

امرأة الرسالة

رجاء بكرة



دار الجندي للنشر والتوزيع
القدس

٠٠٩٧٢٢٣٤٠٠٣٥

info@aljundi.biz

www.aljundi.biz

*

امرأة الرسالة

رجاء بكريّة

*

الطبعة الثانية (٢٠١٤).

*

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر والمؤلف.

All rights reserved. No part of this book may be reproduced in any form or by any means without prior permission of the publisher

رواية

امرأة الرسالة

رجاء بكريّة

دار
الحنك
للنشر والتوزيع

رجاء بکریة

الاهراء

إِلَيْكَ ثُمَّ إِلَيْكَ ثُمَّ إِلَيْكَ،

هل علّقت قبلي امرأة بدن شوقها جِسرًا لِعُبُورِ العشق؟

أحبُّكَ.. هل سَمِعَتْهَا دافِئَةَ النبض هكَذَا

كَغَوْصِ نُقْطَةٍ فِي سَطْرٍ؟...

إِلَى عَكَا وَإِلَيْكَ...

رجاء بکریة

في القرن الواحد والعشرين يا سيدي، ستعثر على امرأة واحدة على الأقل يفتنها شكل الورق، هي أنا، لا تؤمن تماما بالحضارة ولا بالعملة، بل ربّما بالعودة قليلا إلى الخلف. أوّل الأشياء بسذاجتها المطلقة، كي تتخيّل أوّل مرّة قبل فيها رجل امرأة بشغف دون أن يكون بحاجة لكلّ النظريات الفارغة في فتح شهية الحب وصناعة مقبلاته.

في عصر التخلف يا سيدي، كان الحب ممارسة لا يهجنس في تعريفاتها أحد. ومنذ أصبح علما مستقلا ومعقدا استقال من كتلة الأعصاب التي تتحرك بنا، وأقالنا نحن منه، جلس في أحذيتنا اللامعة ومشى معنا إلى كلّ مكان، خلاف المكان المخصص له، ولذلك قررت في يوم الحضارة هذا أن أصبح امرأة تتمهنّ التخلف ببنية عالية وتكتب لك بأظافرها المتسخة هذه الرسالة.

رجاء بکریة

الباب الأول

رجاء بکریة

الفصل الأول

فَكَ أَرْارِ الْمَغْلَفَ بِأَصَابِعِ رَاعِشَةٍ شَوْقًا أَوْ رَعْبًا، لَا يَعْرِفُ، لَكِنَّهُ سَمِعَ

ضَرَبَاتِ قَلْبِهِ تَقْفُزُ فَوْقَ السَّطْرِ ٦ عَثَرَ عَلَيْهِ مَمَحُوًّا بِأَحْمَرِ شِفَاهِ
أَزْرَقَ، ثُمَّ صَفَعَتْهُ مَوْجَةٌ انْبَعَثَتْ مِنْ وَهْجِ رَائِحَةِ حَرِيفَةٍ لِامْرَأَةٍ
بِخَمَرٍ قَرْنَفَلَةٍ. تَشَبَهَ مَا فَكَّرَ أَنْ يَكْتُبَهُ وَلَمْ يَجْرُؤْ، تَعَبَّاهُ الصَّوْتُ، ثُمَّ لَمْ
يَسْمَعْ غَيْرَ أَنْفَاسِ نَهْمَةٍ لِقَبْلَةٍ تَلَا حَقَّ شِفَاهِهِ.

« تَرَى هَلْ تَوَقَّعْتُهَا؟ رِسَالَةٌ بِبَرِيدٍ مُسْتَعَجِلٍ مِثْلَ بَرِيدِي، أَمْ أَنَّ
الْمُفَاجَأَةَ عَقَدْتَ سَحَابَةً غَائِمَةً بَيْنَ حَاجِبِيكَ؟ لَقَدْ وَعَدْتَ نَفْسِي
بِالْإِقْلَاعِ عَنِ التَّوَقُّعِ بِشَأْنِ مَا سَيَكُونُ مِنْكَ مَا دُمْتَ شَرِيكَةَ غَائِبَةٍ
عَنِ السَّطْرِ، وَحَدَّاهَا الْكَلِمَةُ تَزَاحِمُ الْآنَ مَزَاجِكَ الْعَصْبِي كَيْ
تَحْضُرَ مَعَهُ، فَلَا بِأَسْ إِذْنٍ مِنْ رَدُودِ فَعْلِكَ مَعَهَا تَكُنْ.

لَمْ يَحْدِثْ أَنْ اضْطَرَبَتْ هَكَذَا، وَأَنَا أَكْتُبُ رِسَالَةً، لَكِنْ يَبْدُو أَنَّهَا
رِسَالَةٌ غَيْرُ عَادِيَةٍ لِرَجُلٍ لَمْ يَعِدْ عَادِيًا. كَلَامُهَا مُشْتَتٍ فِي أَقْصَى
دَرَجَاتِ تَرْكِيزِهِ، وَرَغْمًا عَنْهُ. لَمْ أَخْطِطْ لَهَا، إِنَّهَا هِيَ مِنْ كَتَبَتْ
كَلَامُهَا. فَمِنْ عَادَتِي أَلَّا أَكْتُبَ رِسَائِلَ لِرِجَالٍ، لِأَنَّنِي لَا أَعْرِفُ أَيْنَ
يَذْهَبُونَ بِهَا. وَرَبَّمَا لَوْ كُنْتُ أَعْرِفُ مِثْلًا أَيْنَ سَتَأْخُذُ رِسَالَتِي هَذِهِ
لَا مَتَمَنَعْتُ عَنْ كِتَابَتِهَا. لَا، آسَفَةٌ، لَمْ يَكُنْ أَمَامِي غَيْرُ هَذَا الْخِيَارِ.
فَحِينَ تَنْعَدُمُ الْخِيَارَاتُ الْمُنْطَقِيَّةُ أَمَامَ امْرَأَةٍ، تَحِيلُ قَلْبُهَا إِلَى رِصَاصِ

وتطلقه على مساحات بيضاء يسمونها رسائل. بلا ترتيب، وبدون ضوابط. لأنها تكتب حينذاك بلا قلب. تملل قليلا، وهو يغيب السطور تحت كفي، ويلوّن قلبه بالشوق. مدّ رموشه إلى السطر، وقرأ:

إذن أريدك أن تعرف أنني أكتب برصاص ينبض عني. كيف حدث ذلك؟ لا أعرف. عذرا نسيت سيجارتك، هل ترغب في إشعالها الآن، أم أنها ذابت بين أصابعك من أول سطر؟ هل قلت لك أنني أرتجف شوقا، وخوفا ربّما. وأنّ الكتابة إليك كانت مخاطرة منذ الكلمة الأولى؟ وغير منطقية تماما؟

هكذا شاءت صرعة القرن. أن نستعيض عن هاتف المكتب باللاسلكي وعن اللاسلكي بالخليوي وأحيانا نستعمل عنه البرقيات الهوائية، هكذا أحب أن أسميها، فما هو المنطق إذن برصاص يذوب بين جفني السطر كي يحفر إحساس امرأة مهما يكن؟ منطقي ربّما في اعتبارات امرأة ضاقت بها السبل. وأعني ترتجف مثلي بمجرد أن تتخيل الورقة البيضاء مستلقية بملء عافيتها بين يديك. كيف؟ ولم تمت حين مزّقت طرف المغلف وبدأت تسحبها بنفاذ صبر؟

تهدّجت أنفاسه، والتفت حوله، كأنه خاف أن يُضبط متلبسا بتقبيل الكلمات التي تداور عينيه. بشيء من العصبيّة أطفأ عقب السيجارة. دفنها في عمق المكتة، وأشعل واحدة جديدة.

استفزّته الكلمات من جديد حين حرّك طرف المغلف الممزّق.. «أنا لا أعرف كيف تفتح مغلفات رسائلك لكنني شبه متأكّدة أنك لا تلجأ للآلات الخاصة بالرجال المهمين. لا زال في أصابعك

رائحة النزق الأولي وسلوكياته، حذرت من الطريقة التي كنت ترسلني بها إلى الغرف المحترقة بأنفاس البشر، وتجري راسما في الهواء حركة غريبة من يدك، وتعني سأعود إليك أو سأجديك. وكنتُ أحتار كيف ستجدي بين هذا الخلق الهاجم على البلاط والحجارة والكراسي والطاولات والأصوات.

بصراحة لم أعتد على هجمات البشر المنظّمة، وأخاف من الحشود، وقد أهرب دون تفكير إذا وجدت نفسي وحيدة. فجأة تذوب قوّتي وجاذيتي أيضا، وأشعر بأنني طفلة ضائعة. هل يفهم رجل هذه الأحاسيس المركبة عن امرأة تُذهب عشرة رجال إذا علت أصواتهم إلى مقبرة؟ مؤكد لن يفهم، لذلك يجوز ألا يكفّ مثلك عن إرسال عينين مستأجرتين خلفها حتّى تفرّغا عيناه الاثنتان مما يشغلها. حكّ ذقنه، وقطّب ما بين عينيه حين رآها واقفة محنيّة القلب تعترف:

لم أكتب لرجل وأنا في حالة هستيرية كما أنا الآن. وغريب أن أُلجأ إلى الورق، وأجعله رسولا مكان صوتي إليك. ماذا أفعل ولم تترك من ذاكرة مكانك غير حفنة رسائل مسجّلة وكومة أرقام ليست لك. مرّة واحدة سألتك عن هاتفك وتنصلت عن الإجابة. قلتُ كلاما مبهما مشتتا مثلك، فهمت بعد أن ضربته يمينا وشمالا للأسلاك أنّك بلا رقم وبلا عنوان، وضحكت منك.

كيف لا يملك رجل اسمه معلقاً في كل مكان علامة لوجوده؟ فهمت لاحقا أنّك من النوع الطيّار. مثلي تقريبا، ولا تحب أن يعثر عليك أحد ولا حتّى قلبك، على اعتبار أنّه لا يسكنك، كما أعلنت وضحكت.

كان من غير الممكن أن أحتمل غرورا كغرورك، (تراجع خطوة إلى الوراء، وعاد ينغمر برائحة الكلام)، لكنني كنت متأكدة أنك لا تقصده تماما بل تتسلل بأبعاده كي تتحلل من ذاتك. كيف وصلت لهذا الحل؟ لا تسأل لكن قد أعترف لك، لم يكن صعبا تماما أن أعثر على عنوانك. لم أطلب هاتفك، قلت في نفسي مادام غير راغب بذلك فمن غير اللائق أن أزعجه. ومن غير اللائق أيضا أن يجيبني صوت نسائي فيقتل لهفتي ويسحق اللعاب المحتفل باحتقانه في فمي.

كنت مشتاقة إليك لدرجة لا يمكن أن تفهمها لأنك لم تعيش ما عشته خلال الأيام الفائتة. لقد ارتجفت أسبوعا كاملا بك. لعنتك بداية، وأقسمت أن أنساك. لم أنم جيّدا بعد قسمي. عند الفجر أستيقظ ثم أعود إلى النوم ساعة قصيرة قبل طلوع الصباح. أشاغل نفسي بكل شيء، وحين تعلن ساعة الحائط عشر دقائق قبل العاشرة بالتوقيت الذي زامن رنين صوتك، ولا أسمعك يخلّ عقلي. أملاً البيت بهايدن وماياكوفسكي وكورساكوف. بيتهوفن وموتسارت، وماركيز وكل ما تقع يداي عليه. أصول وأجول مثل فرس بلا رسن، كأنني لم أنجز تمارين الصباح جيّدا، أو كأنني استعرت طاقة غيري لرفع الكرات الحديدية وتعذيب الدراجة الهوائية من موقعها مقابل قطعة البحر الزرقاء. لم أحبّ البحر أزرق تماما في الصيف. وتمنيت كل صباح أن تنزل الغيوم وتغتسل به كي يمتلئ بالغبار، لونه أجمل بدون طيف جسد، جميل وهو مغيب عن المادّة، مثل الصيف، أما الزرقة الكالحة فهي من نصيب الشتاء.

ضرب رأسه كأنه يتذكر لحنا، رقّص رماد سيجارته فوق المساحة

البيضاء، رسم نوتة لوجه أسمر، تبعثرت شعيرات لحيته أمامه...
أحيانا أترك «ريت» تصبّح عليك، تناديك عبر رسالتها الأولى
لعشيقها. عفوا، لا أعرف إذا كانت الأولى حقا، فلديها عشاق
كثرون، بغضب أو فرح يوقّعهم مزاجها:

«سلام لك/ رفعت المدينة مراسي الليل/ وجذّفت في العتمة/
أكتب إليك لأنني وعدت/ رغم أنني لا أملك ما أكتب عنه/ انطفأ
سر في كلّ نافذة/ عادت ساعة الزمن إلى الهاوية».

أرسل أصابع رشيقة إلى خواتم شعره الكستنائي، وأعاد قراءة
الأغنية. صفرها أولا، ثم صمت وهو ينصفها فوق زرقة بحر
متخيل. سمع ورقها يجتذبه ثانية:

.. كنتُ عكس تلك اليمامة اليمينية تماما، فلديّ عتمة روحك
أجذّف فيها وأملك كلّ الكلام الممكن كي أكتب إليك، وكلّ
الأسباب المقنعة كي لا أراجع. لم أعدك بالكتابة لكنك وعدت
بهااتف لم يأت إلي، وبدعوة لم تصل بالبريد الجوي أو الأرضي.
الأسرار أعرفها وحدي، وأنا من أطفالها داخل النوافذ لئلا يصل
إليها بحارة الليل، وساعاتي كلّها تنفذ هجوما مدروسا إلى الأمام،
ليس مدروسا بالضبط، ولكنه هجوم حتمي على روحك.

تُرى هل فهمتَ ماذا كنتُ أعني حين تمنيت أن أقبل روحك؟ هل
فكرتَ لماذا لم أقل فمك أو خدك أو شعرك؟ لقد كنت بحاجة لما
يؤكد روحانية حضورك معي. بحاجة حين أتذكرك أن أتصوّف
بمفاهيم أحاسيسي. بحثت عن مسميات مجردة لتبقى في مطلق
فضاءاتي نفسا حائرة.

أحببت ألاّ يشغلني أحد عنك، كي أدرسك على مهل، والأصح

أستشفك على مهل. أكنتَ تعرف أنني أتدهى لهذا الحد وأنا أراقبك من زجاج الباب المقفل؟ لكنني حقا بعد الذي رأيته في القاعة الجانبية تركتُ الحضور وبحث عنك، بل جرؤت على فتح الباب الثقيل وترك رأسي تقلب كل زاوية تتوقع أن تلجأ إليها في محنة ارتجاج القاعات بوجوه وأحذية لا تعرفها. ولم أجذك. بحثت كي أقل لك أنني أريد الآن أن أقبل روحك.

أخيرا عثرت على إحدى السيدات اللواتي يعرفنك، فقالت بابتسامة غير بريئة، كل النساء يبحثن عنه، ولأنني لا أدخل ضمن «كل النساء» اللواتي يبحثن عنك. قلت لها، أعتقد أنه بالإمكان الاستغناء عنه. وهكذا قررت أن أضيع منك، ولجأت إلى كل الأماكن التي لا تفكر بالمجيء إليها. ترى، هل بدأت أرتجف منذ كاشفتني تلك المرأة العابرة بالنساء اللواتي يبحثن عنك؟ بدأت أعرق أكثر مما اعتدت حتى أنني رفعت شعري ببكلة تذكرت الاحتفاظ بها في حقيبتني الجرار.

حين رفعته ونظرتُ إلى المرأة ابتسمت، وهمست لنفسي على استحياء، سيعتقدون أنني أحمل بيتي في هذه الحقيقة. لكن أعجبني مظهري هكذا، وشعري معلق أعلى كجسر ضوء يمرجح نظرات الرجال في الهواء. والحقيقة أن ثمة رجلاً لم يترك تسريحتي الفوضوية في حال سبيلها، ولم يسحب نظراته من عيوني حتى خيل إلي أنه ربما سيسحبها من مكانها، أكثر من مرة هربت وعثر عليّ. ليته عثر عليّ بين أعشاب الحديقة، بعد عودتي من مدينتك، عثر عليّ في كل مكان ذهب إلى. لقد أصبح الرنين غير المعلن هو الذي يرهق مسائي وصباحي، والعشر دقائق بالذات التي خصصتها بأنانية

شديدة لصوتك.

هل تفهم كم كان سيئا أن تجعل أرقامك كلها غير مُعنونة وعناوينك بلا أمكنة وقلبي بدون نافذة ينطفئ فيها؟

لا يسمع سؤالاتي عنك غير ورق المساء، عندما يأتي من الغرب يبدأ جسدي بالتآكل، لماذا يأتي المساء كل ليلة ليرهقني بك أو ليزوجني بهواجس فقدت صوابها وهي تكتبك؟ لقد أحبت المساء قبلك، فلماذا أرتعب منه إذن هكذا لأنه يأتي هذه الأيام بدونك؟

كل شيء يمكن الإفصاح عنه، وأنت تقرأه فقط. أنني مشتاقة، وأنني مرهقة وأنني أحتاج أن أراك وأنني.. لا أعرف ماذا. أين ذهبت هكذا دون أن تترك بعدك شذرات ضحكة؟ حين تقرأ كلماتي سلّم لي على البحر الذي يصبح عليك، وقل له أنني دائما سأحقد عليه.

لو كنت قادرة على قراءة ما تحسّ به الآن وأنت تطالع تمزّق الأيام الفاتئة بين ساعاتي لامتلائتُ بنفسي. لكن، ماذا يهم بحق السماء، ما دمتَ أعلنتَ كل ما سجلته في دفتر ملاحظاتي الصغير طوال لحظات لقائي بك دليل امتلاء؟

أحسّ قامته تطول، ومن صدره تخرج شوارع المدينة مستقيمة كأول مرة فكر بنساء تمشي عليها. أطلق نصف ابتسامة، ومجّ نفّسا طويلا من رأس السيجارة، ثم ترك ابتسامة مشاغبة تشرب أنفاس المرأة التي تتلون أمامه..

«لقد فهمت أن رسالتي ستصل لأحد الشوارع الحرّة في المدينة، تُرى، هل كانت الصدفة وحدها من ألقته عليك، أم تطلعاتك لمستقبل أجمل في مدى أشدّ اتساعا من الكلمة؟ لا أعرف، لكن

الحقيقة، حين أملت السيّدة اسم الشارع على قلبي ضحكت. سألتني لماذا أضحك، فقلت أنني أتخيّل أحد أقواس النصر تكلّل مداخل المدينة، وأنها خالية من المستعمرين، ولا يهدل على قباها غير الحمام.

ضحكت هي أيضا، وهمست باستغراب، يخيل لمن يسمعك أنّك من دولة أخرى. أحبّتها بحزن: كنتُ. قلتها وسكتُ. تذكرت فجأة كلامك الغاضب عن أمك، وخيل إليّ لنفس السبب الذي يجعلك تتحدث عنها بهذه النعمة الصافية، أنّك الدولة التي أحببتُ أن أستوطنها.

هل أقول هذا الكلام لأنني كرهتك أم لأنني أردتك؟ لا أعرف، ولا أفهم للآن لماذا توقعتَ منها أن تمرر أصابعها في شعرك وأنت أكبر منها تقريبا صحّة وعقلا. هذا هو الشيء الذي ربما يجري خلفك ويتعبك. ربّما لا تمتلئ جيّدا بصوت امرأة، رائحتها، عيناها، اسمها، عادات قلبها، غمزات خديها، أعمار حكاياها. تمنيت حين قلت ومزّرت شعرك الجميل بين أصابعك أن أمدّ يدي إليه وأخبطه من الأمام إلى الخلف، ومن الخلف إلى الأمام، وعلى الجانين، ثمّ أصفعك بقوة، لماذا تنتظر منها هذه اللعبة المغرضة؟ كأنك لا تفهم أن الحبيبات هنّ من يتقنّ هذه اللغة. إنّ أصابعهنّ النحيفة وحدها تعرف كيف تربط آخر الشعرة بأول الروح. وأنت كنت بحاجة لأصابع تحرّك روحك. ليس لأملك ولا لعمتك. بل لحبيبة تأتي بها من الموج الذي يطاردك كلّ صباح. هل فهمت الآن لماذا رفعتُ نظرات صامتة إلى شعرك، وانتظرت أن تضيف شيئا جديدا إلى جملةك؟

رأها الآن بعيون قلبه تحدّق بأزرار أصابعه الساخنة، متوهّجة
الوجنة. سمع وشوشة أناملها تدحرج خرز حنينها إلى حنجرتة،
وترتعش ..

لقد كتبت نفسي بسرعة قياسية أستغرب لها. توقعت أن تستغرق
أيّاما ثلاثة على أقلّ تقدير. لكن يبدو أنّ تماريني المسائية على رصيف
الشارع الرئيسي لمدينتي التي تُجَنّ في الليل هي من ملأني على هذا
النحو، ودفعني إلى اعترافاتي الغريبة.

ضحك معها وهي تراجع.. أهني اعترافات أم مهاجسات؟ وهي
بين يديك تذكر أنّي سجنتها الأيام الثلاثة التي خصصتها لها،
وأنتك وأنت تطالعها بهذا الملل أو بهذه اللهفة أتميّاً للسفر. أرجو
بعد هذا الكلام أن أتوقف عن التّداخل في ذاتي.

امرأة الرّسالة،

آب، ١٩٨٨

هواجس

1

همست لنفسها، وهي تقبض على مضمون الرسالة الغريبة، وتجري بها باتجاه الحافلة.. هل يحتاج إلقاء رسالة في صندوقه كل هذه المسافات البعيدة خلف سائق حافلة مرهق؟ قطعتُ المدينة طولا وعرضا، وأنا أفتش عن بريد ملائم أرسل منه أوراقي. لا، لم أكتف بابتسامات عاملات البريد في حيي الجميل، ولم يعجبني وسط المدينة ولا المدينة التحتية. ونفيت نفيا قاطعا أن يكون لمركز البريد المتواضع قرب قهوتي المفضلة نصيب في مقاسمة ساعي البريد المركزي فرحة حمل مغلفي المستطيل داخل كيس الإرساليات الخاصة.

للمرة الأولى أحسست أنني أحتفل بقدومي إلى رجل ببذلة غير مستعملة. ولا أعرف لماذا اعتقدت أن البريد المركزي سيقم حفلا كبيرا بشموع ومشاعل مستقبلا، هذا المغلف الخمري الذي يصر أن يكون خاصا جدا. ربّما أنا التي أوعزت لعاملة البريد بأهميته وربّما نوعيّة ورقه الفاخر. على العموم مضت ساعتان على أقلّ تقدير وأنا أرفض هذا البريد وأفكر في ذاك، حتّى لمعت في وجهي ابتسامة عاملة البريد الرومانسي في الجامعة، ودون تفكير هذه المرة غيّرتُ وجهة سيري وركبت الحافلة ربّما للمرة العاشرة وسافرت إلى الجامعة. ظلّت الحافلة تلمّ الناس من كلّ مكان وتفرغهم في كلّ مكان أيضا، وأنا جالسة في المقعد الأخير أراقب بصبر ما يحدث لركاب السائق الذي يطمئن على وجودي في مرآته كلّما دخل

راكب أو خرج منها.

حين وصل إلى محطته الأخيرة أعلى جبال المدينة لمحني في مرآته ثانية أقبض على مغلفي الأنيق داخل كيس نايلون أبيض؛ لئلا يسيل الحبر الذي سجّلت بأسوده العنوان. تنفسنا أنا وهو الصعداء. ابتسم كأنها أحالنا مشوارنا الطويل في أنفاق المدينة إلى أصدقاء قدامى، وصاح من بعيد: «هذا كلّ شيء» ابتسمتُ له أنا أيضا، وقلت: «لا يوجد أفضل من ذلك». لعنت السيارة التي تحرن في كلّ مرّة تعرف أنني ماضية إلى البريد أو المحكمة، لا بدّ أن لونها التراي يجعلها نكدية لهذا الحد، وقررت في سرّي أن أستبدلها عند أول فرصة سانحة.

نزلت بخطوات سريعة كي ألحق طرود الإرساليات الخاصّة التي تغلق عند الثانية عشرة بالضبط. كانت عاملة البريد ترتاح في مكتبها المكيف ويبدو أنها تنتظرنني، ابتسمت حين لمحتني أجذب يد الباب الكبير مثل كلّ مرّة بالاتجاه المعاكس، فأصدرت حركة من يدها مشيرة إلى الاتجاه الصحيح. لم أشكرها كالمرّة السابقة بل خجلت قليلا وأنا أحصي المرات السبعمئة التي قبضت يدي على سكرة الباب بالمقلوب، وبقيت بعد كلّ زيارة عنوانا لمغامرة.

همست بشيء من الضيق.. ولا بدّ أنّها تتندر بضيق بصيرتي أمام عمّال النظافة، وأصفت: «لو أنّ هذه المرأة الفرنسية صاحبة الشعر الكستنائي القصير عرفت أنني منذ السادسة والنصف صباحا ألف مراكز البريد بحافلات مرهقة، أجهزة التبريد في معظمها معطّلة لما اكتفت بابتسامة عذبة، بل ربّما جرت إلي وأجلستني فوق المقعد الشاغر إلى جانبها، وقدمت لي قهوتها المائعة»

لم أفهم لماذا يزهد اليهود لهذا الحد بملاعق القهوة. ولماذا لا يسمحون بأكثر من ملعقة صغيرة لفنجان واسع كالذي قدمته لي حين أتيتُ لزيارتك.

وقفت أمامها مثل كلِّ مرّة بابتسامة عريضة، وهمست ككل مرّة تلاحظ مغلفاتي الطويلة، «مستعجل جدا». ملأت الاستمارة البيضاء التي دَفَعْتُهَا إِلَيَّ رغم أنَّها اعتادت أن تملأها بنفسها. نَقَطْتُهَا بالحروف الأولى من اسمك، ثم كتبتُ بخط بارز اسم شارعك الحرَّ اسم المدينة، ووَقَّعْتُ بقلمها الساعة والثانية. هل تَرى كم كنتُ مهمما بالنسبة لمركز بريد حالم فوق أعلى جبال المدينة؟ على خلفية المغلف لم أسجل غير رقم بريدي ومدينتي حتّى إذا اختلطتُ على ساعي البريد الأمور وضاع بين الشوارع الحرّة الكثيرة، عاد إليّ. همستُ، وأنا أتميّز من شدّة الاستغراب، صحيح اختلطتُ على سكان المدينة مترادفات اللغة، وأصبح كلُّ شارع منحل يسمّونه حرّاً أيضاً. حين أغضبتي الفكرة تساءلت فيما إذا كانت بلديتكم تستطيع أن تحل هذا الإشكال. بلديتنا مثلاً لا تعاني من البلبلة في تعريف الأسماء. وعمالها النبهاء خطوطهم واضحة ومنمقة، وتعاني فقط من أخطاء إملائية قاتلة، أمّا عندكم فاللافتات كلّها مرتبكة أو مقلوبة أو مكفّية على وجهها. تُرى هل أَلقيت بالاً لهذا الوضع الخطير الذي تتردّى فيه المدينة؟ لكن، ماذا يهَمُّك أنت ما دمت لا تخرج من صفحات الكتب إلا لتنام أو تتناول بعض الفودكا؟ أنا هي من تقلق على مستقبل المدن التي تتمتع بقدر معقول من المعازل الحرّة. وهكذا خرجت من الباب الرئيس وجهاز التبريد الحر مثلوجة، أتأمل الاستمارة كأن عاملة البريد منحتني شهادة تفوق في

الإرساليات الخاصّة وليس استمارة عادية من الورق الرخيص.
نظرتُ أسفل الاستمارة، فعثرتُ على الرقم الذي تحبّه مصفوفا
بعناية وبأرقام مربّعة لا تملكها طابعتي اليدوية. قيل لي بعد ذلك أنّ
المؤسسات الحكومية تتوفر على شبيهاتها. وقبل أن أنسى، لم أخبرك
أنّ رقمك المفضّل واحد وعشرون هو الرقم الذي خرجتُ من بين
مقطعيه إلى الدنيا. هل يعجبك أم أنّ عليّ أن أتوقع أنّك ستستبدله
حالا برقم يناسب امرأة غيري؟ على العموم لا يهمني بعد أن
أرسلت أسراري كلّها داخل مغلف خمري إلى شارعك المحرر.

- 2 -

بدأت أحلم بشارعك الحر كأنه حقيقة لا لبس فيها. على جانبيه
الشجر الأخضر، وداخل مساحاته العازلة الجوري والدُفلى وقامات
الزنبق، وربّما ياسمينه هنا وريحانة هناك. لم أفكر بشارع قميء تربته
جافة وشجره يابس، وعصافيره تركت خطوطه البيضاء لعصافير
لاجنّة.

بعد انتظار طويل حضر سائق الحافلة التي استأجرتني كي أوصلها
إلى محطّتها الأخيرة. سائقها اعترف أنّني من أتى به وبها بسبب
بريدي الرومانسي. لم يحتل المقاعد الشاغرة غيري، والآن أيضا
في طريق العودة سأصاحبه معي إلى إحدى المحطّات المغمورة كي
نصبح أصدقاء مستقبلين. سعدت الدرجات النظيفة وسلّمت
عليه بلطف. شكرني لأنني انتظرتّه كلّ هذا الزمن. فطمأنته، كان

لديّ مشروع رسالة مرهق نكبني بكلّ شيء في هذا المكان المزعج. بدون سيّارة طيّارة كسيارتي صعب أن تنهي عملك خلال ساعة ولو استغرق دقيقة. هموم شعبك وقلبك تعصّبك أمام كلّ واجهة سفّاحة من النوع الذي أراه هنا. ضحك مندهشا من الكلمات الكبيرة التي أتصرف بها بحرية وطلاقة. طمأنته مرّة أخرى، هذا يأتي عادة بسبب هواجس الشوارع الحرّة في دول محتلّة. ابتسم بضيق عند آخر كلمة ففهمت أنّ صداقتنا على وشك أن تلفظ أنفاسها. لا بأس، قوميته ودولته بألف خير، ماذا يريد من قيامتي ومخيّاتي، أتؤذيه مشاعري المهزومة لهذا الحد؟

السماء مكفهرّة. تداخلت في دخانها الأحمر كل الطيور التي قررت الانتحار؛ لأنّها لن تجد مأوى إذا هبّت عاصفة من سماء تعيش على مزاج مكتئب. تمنيت حين لمحت الناس يملأون الأرضفة بتمارين الليونة المسائية خاصّتي، أن يسرع قليلا كي لا أضطر لامتنصاص وحول الفصول الأربعة بضربة واحدة. يجب ألا أنهمك الساعات التي تفصلني عن رياضة المساء بغسل ملابس تحب تعذيبي كلّما اتّسخت. توقفت الحافلة أمام مركز البريد القديم القائم إلى جانب محطة القطار الأرضية فسخرت من تحلفه، وساءلت نفسي كما ساءلتها في السابق، لماذا لا يحسّن هندامه قليلا. لا يبدّل بوابته الحديدية الصدئة مثلاً، يجدد ألوان جدران المهلهلة، ليته يصعد مرّة واحدة إلى بريدي الرومانسي أعلى الجبل ليتنفّض على الدولة ورئيس حكومتها. أمّا مغلفي الخمري فقد استراح داخل الطرد الذي يجمع إرساليات خاصّة جداً للناس المهمين. لكن هل أنت رجل مهم حقاً؟ لا أعرف، لكنّ مما لا شكّ فيه أنّ مغلفي

وإشعاره الرسمي سيمنحك وسام الأهمية مادمت امرأة، وأنت رجل. فالنساء هنّ من يسبغن الخصوصية على الرجال تماما كما يمنحها الرجال للسيدات. ولسبب ما اعتقدتُ أن جميع المغلفات التي لاحظتُ تدني قيمة ورقها ولونه تغار من مغلفك، وتحاول جاهدة أن تعرف وجهته. كنت واثقة أنّه يحفظ سرّه لنفسه، ولن يضعف أمام أية بطاقة مورّدة. بقي شكله الجميل يملأ مخيلتي حتّى لفّت الحافلة لفّتها الطويلة في شارع المدينة، وعادت إلى محطتي المتواضعة.

أنجزتُ مشغولياتي وفق برنامجي المدرّس بهدوء ومحبة حتّى سقط الليل في منامتي وبدأ يستثير دمي ويدفع سكنات قلبي ليهرب ثانية منّي. أهذا هو التورط في العشق. حين تقفز أعضاؤك جميعها معا وأنت هادئ تماما تحلم بالشتاء وعناوين الجرائد الهامشية؟ وتأتي النجوم إليك صاغرة ويجلس القمر مبهورا على كتفك؟ وتبدأ تهذي أو تقول ما لا يفهمه غيرك والغائب الذي لا يظهر بسهولة كي تعترف له بحمقك وشوقك؟ أم أنّه كلّ ذلك داخل التمزق والموت؟

- 3 -

الثانية والنصف بعد انتصاف الليل.

صوت ريتا الجميل يملأ همس البيت بهمس مضاعف. أسند أفكاري إلى طاولة المطبخ. أمزج كأساً من النبيذ الأبيض وأرشف من زجاجه على مهل. أمام القنديل الزيتي الذي أشعلته ساعات الأرق، أرى وجهك حزينا أكثر مما كان أمام المعبد. ترمش عيناك البنيتان في قاع الكأس الممتلئة وتسأل لماذا أعذب الكلام، ولا أدع العتمة تذهب إلى فراشها؟ حين أنام يا سيدي، سأترك الكون ينام ما يزيد عن صباحين أو ثلاثة. مددت أصابع باردة إلى خدي الباردة وطلبت برفق أن أغفو كما تعلمت دائماً أن أفعل. لكنّها الليلة التي سيعقبها صباح يصل فيه مغلفي إلى شارعك الحر وقد يأتي صوتك بعده أو لا يأتي. هل سأحتمل عاقبة أشواقي؟ سأغادر المدينة غداً إلى أي جهة غامضة كي أتخلص من وحدة هذه الأغاني البائسة التي يلحنها قلبي خصوصاً. يعلو همس ريتا من جديد:

« ألبس فستاناً أبيض / قرب طاولة المطبخ / أشعل شمعة / لا تذهب الفكرة / لكنّها تذهب تذهب، وتصبح ذكرى ». أجل ذكرى. لا تلائمني هذه الرومانسية تماماً، وثمة عشاق حقيقيون تخلبهم أكثر مني.

أقبل صباح لا يشبه ما جاء قبله. صورة البحر أجمل لوحة لأهازيجه. السماء اغتسلت تماماً في ملوحته وصارت أشد بياضاً من الثلج. كأن الملح يعيد الأشياء إلى ألوانها الأساس بمجرد أن يضافحوه.

لكن لا شيء منك كما توقعت. رسالتي الأولى إلى رجل تاهت في بريد مدينتك، ومؤكد لم تصل إليك. ماذا إذن؟ هل أعترف بإهمالك نهارا وليلا كاملين لمفردات تفرع الحيتان إلى إنائها، ولو كنّ في أعلى جبال؟

كعادتي بدأتُ اخترع تبريرات جائزة لا أساس لها. لعلّ ساعي البريد عندكم لا يوقظ الناس من النوم صباحات الجمعة والسبت. على العموم كان أسوأ سيناريو ليوم لم أتوقع فيه شيئا غير وصول أوراقي متسخة بأشواق الساخنة. سأضع أعصابي في ثلاجة، لا أملك حقا في الاحتجاج ما دمتُ أنا من بدأ هذه الحرب المسلحة على لا شيء. سوف أبدأ بترتيب ملابسي داخل حقيبة السفر الصغيرة. لن أحتاج للملابس كثيرة، فعَمَّان مزاج سمائها أفضل من سمائنا. أحبّ عمّان، ولا زلت ممتنة للرجل الذي أحبّني لأنّه انصاع لفكرة البحث عن امرأة تفهم أشواقه أكثر منّي.

تُرى، أكنْتُ أعرف أنني في يوم صيفي قائل؟ آب لا أحبه، سأقف على رصيف شارع يجمع الماضي بالحاضر. يمد لي رجل يده، يكون أنت، ويهمس بما لم أسمعته من رجل فاتن لهذا الحد «سعيد هذا الصباح بك يا سيّدي». جميل أن يحضرني الصباح إلى أماكن لم أسجلها على جبهتي أو في عروق يدي. داخل القبو المعتم أحببت صمتك، كنت خرافي الصوت، وأنت تتحدث عن رجل ليس أنت، ثم تعلن في آخر السطر أنّه يشبهك. ترفع سبابتك فوق المنفضة الغارقة بالرماد وthemس، متى ماتت كل هذه النساء، وتضحك بمقاطع واضحة. فاتنة ضحككتك حين تسقط مكاحلها فوق الطاولة السوداء. وخيّل إلي حين أفرغت ضحككتك الرماد

من المنفضة مثل جبل من القتلى، وجلستُ بفرح مكانه، إنَّك الرجل
 الفوضوي الذي سأطور به خلال الأيام اللاحقة.
 لم أكن امرأة صالحة لرجل يريد فروض حب ثابتة ولا مهاتفات
 بالدقيقة والساعة، ولا همسات. وكنت رجلاً يصلح لكل ذلك
 ولا يصلح لشيء أبداً. فهمت من الحروف الأولى المحفورة أعلى
 باطن يدك أنَّك فتشت دائماً عن علاقة لم تحدث لامرأة. لماذا؟ هذا
 ما ستقوله أنت. وكانت تلك العلاقة لم تحدد أبعادها، أو مفرداتها.

4

هل تشربين قهوة؟ أطلقت سؤالك لفضاء الغرفة كحمامة فرّت من
 قلبي لشفتيك.

ابتسمت بحذر، أحبّ ذلك. سوداء! كنتَ تقرر وحدك. أكّدت
 لك بإشارة من عيني، سوداء وثقيلة. أكنتُ أقرّر حقيقة التصلّب
 الذي ستلحقه ببديني؟ معذباً لهذا الحد؟ لن يفهم الرجال قلب المرأة
 ولو شرّحوا عضلاته عضلة عضلة. الرجال-هذه حقيقة- لن
 يفهموا امرأة. لماذا يعبدون الجري خلف الأحذية العالية؟ يتدهّون
 بتحريق النساء لأعضائهم، وتقليمنهنّ لأظافر عواطفهم حين
 تكون صدفة على قيد الحياة. لماذا إهمالهم حدّ الموت سيظل حلاً
 وحيداً أمام الحياة؟

أكنتُ أقتلك بلامبالاة، هل أقسو عليك كما أفعل للقطّة التي
 تلحقني كلّ صباح على الدرج، وهي ترى الخبز والحليب بيد
 والهاتف الذي يستهدفه رصاصك بيد؟ هل أحيلك إلى قطّة.

آسفة، لا أحب القطط، أحب الكلاب، وأن أعاملك كما أفعل لكلب سيّدة شتاينر؟ شيء قمىء جدا. أخافا الاقتراب منه، وحين ألطفه فمن بعيد، وهي ممسكة بالطوق المذهب الذي يزين فروته. أقذف له بعلبة المارتديلا الفاسدة، وأصعد إلى شقتي بخطوات عجلي دون أن أنظر إلى الخلف.

متى سيفهم الرجال إذن، وأنت، كيمياء الحبّ المعقدة كي يرفعوا منسوب الزئبق قليلا في شرايين سيقانهم، ويتخللوا عن عادة الإسراع إلى زوايا لا يرى الحب منها أسماؤه واضحة، مثل كومة الرماد التي جلست أمامنا فوق الطاولة.

- 5 -

أحين تموت الشموع تمتلئ المنافض بالغياب؟ ولماذا الموت يختصره الرّماد دون سواه من ألوان المادّة؟ كان أوّل سؤال طرحته عليك حين وصلتُ إلى عكّا.

ضحكتُ، تلك الضحكة الخجلى، وأضفتُ: «حالات المادّة يدرسونها في الصف الرابع الابتدائي. قلتُ: «أريدك أن تكون من يدرّسها لي، لديّ معلومات ناقصة في علم الأحياء، لم أعاشرهم جيّدا كي أتعلّم شيئا عنهم». «لكنّ الشموع ليست أحياء»، قلتُ: «بلى يا سيّدي، كيف لا تعرف أنّها حين تضيء تصبح كذلك، غريب كيف لم يدرّسوك هذه الحقائق في فلسفة الطبيعة!». « قالوا لنا أشياء كثيرة، قلتُ لكنهم يبدو أنهم تركوا بعضها لك»،

وضحكت بخبث.

ابتسمت لاعترافك، ونظرت إليك بملء عيوني. كان الحليب الذي يشرب منه طحلبان عميقا الخضرة يسطوان عليك، كأثما من عالم لا تعرف كيف يتشكل فجأة ويجلس مكان عينيك. بعدهما لا ترى أحدا. كنت سأسألك كيف يحدث لك هذا الأمر، ولم أجرو. رأيت أعصابك في أصبع قدمك، واعتقدت لو أنني أضفت أي شيء عادي لمزاجك الاستثنائي لما بقي على الطاولة غير صورتي المخربشة أمامي وصوتك المرتجف في شعري المنبوش.

متى تفهم ثورة امرأة لم تحب الحب قبلك، تتهجأ كأثما تخاف الحياة، أو أنها تخافها حقاً وتجد بك ذريعة لإعلانه هكذا عاديا وتلقائيا ومألوفاً. كأن الحياة دارت معي جيلا كاملا ولم تعثر على رجل تؤسّطره وتلخصني من خلاله غيرك. لكن هل تلخص المستحيلات؟ فمشروعك واضح، أن تذهب إلى السراب، ومشروعي أن أرسمه بكوعي، أو ربما بعنقي، أو ربما بالجزء الذي لا كبريت فيه كي يشعل من حوله الأشياء، وأنت أحدها.

صباح الغد أتى سريعا، أو ربما أبطأ مما اعتقدت. وقفت سيارة أجرة بانتظاري إلى موقع الإقلاع، وأعني السفر. ومنذ صعدت لم أر غيرك، ابتسامتك المعلقة على جانب فمك رسمتها على وجوه من احتلوا المقاعد المجاورة. كأثما قطعة تنزع وتثبت بنفس الطريقة، وتنقل إلى وجوه لها شفاه مثل شفاهك بألية تحسّد الحضارة عليها نفسها.

هل قلت لك أنني في إحدى المرات مددت يدي إليك وأردت انتزاعها؟ اعتقدت أنها قطعة معدنية متحركة يكفي أن تلوح لها كي

تستسلم ليديك. كيف يصبح الحب حالة مرضية على هذا النحو؟ لا شعوريا بدأت تتكلم في قلبي. يومي الأخير قرر استعادة وقته معك. بدأ يحكي ما اعتقدت أنه لا يعرفه، أو لا يذكره. لم أملك إجابة عن السؤال، كيف أتذكرك بهذا الوضوح؟ شعرك الهارب إلى الخلف، قامتك العالية، وجهك الأسمر، عيونك الحاملة دائما بلون تسرقه على غفلة، وكُم قميصك العالق بأعلى كتفك. لم أحب في رجل كل ما أحبته فيك.

كل هذا الزمن لم ألتق بك، وحين دفعوني لذلك رفضت. قلت باستخفاف، ماذا يعني أن أقابل رجلا يقفز كالقردة تحت الأضواء؟ لكن الحقيقة أن الأضواء كانت تقفز إليك. كنت تمسكني من قلبي وتشدّه إليك. هل تعرف كيف؟ من انحناءته الصغيرة باتجاه الأمام، كما يفعل طفل لِكوع أمّه حين يلح في طلب شيء! أين كان هذا الزمن الحار بكل أبعاده المدهشة؟ استعدت حالة الفزع التي استولت علي، ومعها جوعي وفقدي. هل وصل بريدي كما يُعتقد؟ همستُ بحياء للنافذة التي يغطس منها البحر مع أشجار الكرمل وسفوح تلاله المتحاضنة، لماذا لا تحضنني مثل هذه الأشياء؟ مشيتُ إلى البيوت القريبة من الشرفة، تحتها مباشرة بيت العجوز، ضاربة البيانو، وبعدها بقليل رغوة الموج الضاحك للصباح، صباح يشبه اسمي. أوشكت أن ألتهم وحدتي وأحوش الصمت بمرفقي كأني أحوشك أنت.

_ 6 _

حين رنت ضحكتك الواضحة مع جرس الهاتف. كتبتُ في مفكرتي
 إنه صباح السبت، السابع عشر من أغسطس، الثامنة بالضبط. رنينا
 لحوحا برقم ضائع الهوية. كأن الناس مدمنة حد المرض بالتستر
 خلف أقنعة. أم أنه من عادة المدن أن تتزيى بالأقنعة؟ وقررت
 بهمس.. سأصغي لرائحة الصوت بأنفاس مَيّنة، وأضفت، انبعاث
 الدخان العصبي هو العلامة، واستدركت، لئلا يعثر على ورقي
 متطائرا، هنا تحت عجالات الصباح. الرجل الذي لا أحبه ويغار
 منك، هكذا بدأت أسمىه، يرهقه عشب الليل لهذه الدرجة. لكن
 ربّما أنت من سلّم أسرار بيتي إليه حين تطايرت مثل الريش في كل
 مكان. بعثرتُ ربّما معك بعض ما تعرفه عني، عن بيتي، عناوين
 أمكنتي، كحلي، حلقي، نمرة حذائي. هذه تفاصيل مهمّة لرجل
 قرر احتضان امرأة. بعد الضربة الثالثة رفعتُ الصوت إلى:

- صباح الخير، لا تأتيني رسائل خطيرة لهذا الحد من نساء.
- صباح الورد، لا يها تفني رجل في ساعة مبكرة هكذا، كما
 تفعل أنت، وكى يحتج على يوميات فرّت تقريبا كالعصافير من
 غرفتي .

- أخافني حجمه، اعتقدت أنها شرطة الأحوال الشخصية
 ترسل إخطارا أنت من ملأ استمارته. لم أتوقع أنني من علّق شوقك
 على أسلاك المدينة وهرب.

- هل قيل لك أنك تعيش في فنّ الفكاهة. لقد اعتدت الهروب من أماكن انتشار الأشواق. حتى عرفتُ أنك من ملأ الفضاء بها.

- أنت من فعل إذن؟

- هل عرفت امرأة تعيش من رائحة الورق مثلي لتسأل؟
- يجوز، ويجوز أنني لم أفعل، لكن يبدو أن حيرتك تساوي كماً من نساء تورطتْ بهنّ. ما أجمل صوت الصباح من حنجرتك! هل تكتب النساء مثل هذه الفلسفة الغريبة في رجل رأيته على باب مغارة؟

- حين تسقط قلبها، ولا يمسك به المكان تكتب أعماراً ليست لها.

- عمرك يا سيّدي، سيكون لقلبي حين يجنّ.

- وقبل أن يفعل؟

- كان لكلّ النساء.

- لكنك مجنون دائماً.

ضحكت ضحكتك، واضحة، مفصّلة المقاطع، وهمست:

- كنت سأحبك في يوم آخر من السنة.

- من فصل الشتاء؟

- من كلّ الفصول في يوم مجهول النسب.

- حسناً، فكّر بلون أزواره، وعد إليّ. سوف أنتظرك كلّ أيّام السنة.

- وإذا فعلتُ بك ما يفعل الرجال بالنساء؟ صرخت بدهشة، خنتني؟

- ربّما!
- سأتوقف عن رسائلتي المستعجلة. لن أكتب بعد الآن لرجال بعناوين. سأرسل ما أكتبه لعناوين لا يوجد خلفها رجال، ربّما لصحار قاحلة، ورمال ساخنة.
- فيلسوفة إذن! ما هذا الكلام الصعب؟ ستلتهمين صباحي بما لم تلقه عليّ امرأة. ما اسمك قلت؟ على اسم الصباح؟ ستحررين أيامي إذا من سطوة المساء. أجل، لا شمس تضيء في الغرف التي لحكاياي. كلّها، كلّها تعيش في الليل. متى ستؤجّرين شمسك لهذه الغرف الباردة؟ أربع عشرة غرفة قسّمتها عمر الأعداد التي خرج منها العالم.
- قاطعته، «واستراح في اليوم السابع».
- (ضحك)، لديك رصيد يبدو في الكتب المقدّسة.
- (بلؤم)، والكافرة، لا تنسى.
- ساعة الصباح الأولى، يا للسماء! كلّها خلف صوتك. لم أحادث امرأة وقتا دافئا هكذا، ولا أحبّ التحوّل مع صوت وراء ستارة، لماذا أنت؟
- لكنّك تنسى أنّك نسجّ لا نهائي لستارة.
- صرخ: ما هذا الكلام الغريب؟
- وما هذه الاعترافات الناقصة.
- طبعاً قلبي على كلّ صفحة، تسع صفحات طويلة. انتظرت أن تقول هاتفك قبل الآن، مثلاً. لم تقل، قلت شيئاً آخر معذب هذه الأيام. «صوتي قرضته السجائر، ويلي سُمّنت من يقظته فئران العتمة».

— كنت بحاجة لصوت امرأة دافئ مثلك، يعرف كيف يفرغ الحلم من قطنه. هل تسمعين؟ أريد حلما يتنفس، أحلامي كلها بدون هواء. لا يسعفون الأحلام في هذه المدينة. الأقفاص المغلقة فقط يحيطونها بالونات الأوكسجين الحية.

- وهل يوجد بالونات أوكسجين مية؟
- مؤكّد، حين يعرفون أنّ وجهتها أحياء بأحلام غير واقعية.
- هل تحبّ دولتك الواقعية لهذا الحد؟ لقد أرهصت الحضارة مفرداتها. والموت هذه الأيام يمكن أن يعلّب ويبيع.
- لماذا تأخذيني إلى دول لا أحبّها.
- كي تفكر بدولة أسماء العشق فيها معرفة.
- مثلك تقريبا؟، سألني بخبث.
- تقريبا.

ضحكنا معا، وسكتنا فجأة. حرّضني قلقا، هل أنت قادمة

إذن؟

- إلى أين؟
- إلى شارعي المحرر.
- لقد سجنه كلامك. هل صدّقت أنني أعترف بعصافيره وورقه. الشوارع الحرة تسجن طيورها في أقفاص للزينة، هذه مهنتها. وحين سأعترف فبرجل لا تستدرجه الرسائل بهذه السهولة، وبطيور كالحمام الذي يلفظه الغيم، يعني لاجئة، تكرهها طيورك. دعني أفكر. قد تستفزني إذا ابتكرت اسما لا يشبه أسماء الشوارع التي تعرفها العاصمة.
- ألقى صوته في كفّه وأطلق أنفاسه إلى وحدته. كان ينتظر أن

تقرر ماذا بشأن اكتشافها لشارعه. وكانت هي أيضا تنتظر أن يطلق طيرا آخر غير العصافير إلى قطعة الشارع التي تمشي دائما في شعره. صوته المحي تماما، استعمرت سجائر بكعوب بنّية، بروردوي أحمر، يجعله عصيبا جدا، مثل القروود حين لا تصل إلى حبة الجوز التي تقف فوق رأسها تماما. لا تفهم كيف تحكّ رأسها ولا تصل إلى الغصن حتّى تسقط بفعل الجاذبية وصراخ الحشرات. هل ستسقط هي أيضا بفعل تلك الجاذبية كحبة الجوز؟ أهى جوزة؟ تساءلت بقلق. لا، لن تنسى، هي امرأة باسم وشارع وبيت. ولديها مشكلة صغيرة فقط أن شارعها يمتدّ فوق الماء، تقصد البحر. لا تحب الجوز، هذا ما تتأكد منه يوما بعد يوم. تتذكر، حين وضعه والدها في صينية الألومنيوم، وفصل الماء عن قشرته اليابسة اشمأزت. واندھشت مرارا حين تدقّ الماء من ثقبها الصغيرة. وتساءلت، أهى تبول يا أبي؟ يضحك والدها منها: «لديها فائض ماء». مثل المرأة حين تلد، أليس كذلك؟ قالت باهتمام. ضحك والدها ثانية، «من ذكر أمامك هذا الكلام العيب؟» مدرّس البيولوجيا، همست باستغراب، كيف عيب؟ لم يجب، بل سأله، هل تريدين قليلا؟ زمّت شفّتها، كيف أشرب بول الجوزة؟ تابع الضحك، «يجب أن نشكو مدرّسك الملعون هذا لشرطة الآداب». تحتج، أستاذ نصّار مؤدّب جدا يا أبي، لماذا ستشكيه لرجال غير مؤدّبين؟ ومن قال لك أنّهم كذلك؟ «مدرّس الرياضيات أخبرنا أنّ الأعداد السالبة مثل الناس، نقیض ما يجب أن تكون عليه. يعني أن كل ما نراه من حقائق كذب». لوت رأسها يمينا وشمالا، وأضافت مستدركة، كمتبخرّة في علم الرياضيات الذي لم تودّه أبدا: «هذا على فرض أنّ

لرجال شرطتك ناقص طويلة مقابل حواجبهم على شكل عصا». يضحك» نشوة جميع مدرّسي هذه المدرسة يجب أن تكسبهم شرطة الآداب في معتقلات خاصّة». «ولكن لماذا تضللني يا أبي، لا علاقة للمدرّسين ببول جوزتك هذه». نهاها بجديّة هذه المرّة، «لا تقولي بولا، إنّ ماء بالحليب» «كل ما يخرج من تحت يسمّونه بولا، ولكن ماذا يسمّون ما يخرج من فوق؟» تساءلت بحيرة. «يسمّونه طولة لسان»، هيّا هيّا، وأرسلها إلى النوم. بعد ذلك بساعة كانت تتقلب فوق السرير ولا تجد اسمًا للسائل الذي يخرج من فوق. تعيسة جدا لأنها لا تميز العضو الذي يفرز سوائل غير حليب الجوزة. كلّما أغضبته قلّة أدها يرسلها مثل طرد بريدي إلى الفراش.

لماذا يأخذها كلامه إلى تلك الجوزة العملاقة بالذات؟ بعد ذلك أكلت من إسفنجه الأبيض عدّة مرّات، بل وأشبع جوعها تماما. هجست برجل الهاتف، الحقيقة أنّ رأسه عنيدة مثل قشرة الجوزة الصلبة برغم رقتّه البالغة. إن ما لا تعرفه تماما إذا ما كانت بطانتها بيضاء مثلها. بعد أن فكّرت قليلا اعتقدت أنّها بدون بطانة، وعثرت على منطق في اعتقادها، فلو أنّها منجّدة كحبة الجوز لما تقافزت أعصابه على هذا النحو بمجرد أن تنفخ عليه.

في العاشرة قرّرت بأن تلتقيه اليوم. لا، ربّما غدا، يوما قبل السفر. يجب أن تؤسّطر مسألة وجودها، ومن المناسب أن يحسّ استحالة نيلها.

- متى أراك؟

تراوغه، «في زمن لا ينادى على الشوارع بخيبات تاريخها، أو حين تذهب شوارع المدن الحرّة إلى ساعات نومها».

- أنا جاد في تساؤلي.

- وأنا جادة في إجابتي.

لا يمكن، هذه امرأة مثل الناموس توزّ تحت البدن. هل بدأ يفكر بها أكثر من العادة، ويهمس لها كما لم يفعل لقلب امرأة؟ إنه يخاف النساء، يهوسه ويخافهن. سوف يحطم يافطات الشوارع، لن يبقی ذكرا الشارع حر واحد مهما تعرّت على أرصفته النساء كي تأتي إليه. فقط يراها من بعيد كما رآها حارّة ومفاجئة حين اقتحمت غرفه الحاملة. ويهجم على أنفاسها كما هجمت عليه واحتلت كرسية. حين سألها لماذا تركت الكرسي الفارغ، قالت بأنها لا تحب أن تلامسها أطراف المازّة في الذهاب والإياب.

تذكر أنّه صَحِكَ حينها، عقابك لي إذن! ليس بالضبط، ولكن كنت سأرغمك على استبدال مكانك لو رفضت. سيقول لها أنّه غير قادر على فعل شيء آخر منذ الأيام الفائتة غير التفكير بأذيال الفستان الذي لحقها وهي تعاین ألوان الستائر ووقوفات مكبرات الصوت، وتهمس هذا جيّد، هنا ستضاف ألوان باهتة، فالصوت ربّما يأتي غير مباشر، من الخلف. تتنقل بسرعة محسوبة والذيل يلحقها، أو يقلّدها. كلّما تساءلت تساءل مثلها. لم نقشه وتقدّم أمامها إلى حيث لم تعرف أبدا.

غدا، فكرت، حين سيبحث عنها ستبتلع أذنيها كي لا تسمع مفردات قلقه. وقد تحطّط رأسها قبل أن تفتح صورته شقا فيه. بدأت تعتكف غرفتها طويلا، همست لنفسها أكثر من مرّة، هكذا تنقّي نفسها منه عبر انقطاعها إليه. كانت حساباتها ربّما مرتبكة ولا تعرف التمييز. أكانت ستنجح في فصله عن دسائس مخيلتها

العجيبة لو هي ابتلعت أذنيها وعلكت عينيها، ثم أرسلت من يختطف رأسها؟ كيف ستعاود العثور على نفسها ذات يوم؟ منطق هروبها المتواصل منه مختل. سألت واستنتجت ألا تفرش له بساطا حقيقيا على سريرها كل ليل، كي يتأمل كيف تكشف عن بطنها السريّة قبل أن تغفو؟ حين تنهيا لمحاورة جسده كلّ ليل تفترض أن له صورة شيطان مدجّن يستلقي تحت سرّته، وربّما هو من يرشّ الفتنة في ضحكته. هل أحبّت ضحكته حقّا، أم أنّه خيل إليها. حين تتورط امرأة أوّل ما يسرقها إلى الرجل ضحكته. هل أصيبت بها؟ لا زالت تكابر، ولا تعترف. من الجائز، تهمس مسترسلة للعنّاب المحتقن في أطراف أصابعها، ليست كأصابعه، نقيضها تماما. جائز سرقتها ضحكته.

يوم الاثنين، يوم واحد قبل أن تغيب عنه ثمانية أيّام طويلة. ساعة يضح كلامها تحت معزوفة هايدن يحكّ صوته المرتبة اللامعة. سوف يلحّ وسوف تأتي. «هَيَّأتُ لك مفاجأة ثمّ أقلعت عنها»، قالت: ما هي؟ أثارتها. ولكنّها مفاجأة/ ولكنّها تخلّت عنك. استدرجته بصوت حالم: «كنت سأفتح مدينتك مرّة أخرى». قفز صوته على وجهها من شدّة تأثره: «سأغلق بوابتها الرئيسة حتّى مجيئك». أجابته كأنها تعلن عن تفاصيل خطة مدروسة: «لا أعتقد» «امرأة متقلبة، ومزاجها مثل البوشار»، استفزها. «وأنت رجل يتسلّى بأيّام خالية من النساء والأضواء»، عبثت بلهفته. لكنّها فكرّت بسرعة فاجأتها، وقررت «سوف تذهب». قالت لنفسها بتأكيد، ودقت أصابعها المقرّصة حديد الغاز المشتعل. بعد القهوة ستهيئ أنوثتها. لقد لخبط أفكارها المسبقة عنه. هذا رقم ابتني،

دقيّـه حين تقريرين. تضرجت ساقاها بالعجز. لم تلاحظ علامة واحدة لارتباطه، ولا الطوق الحديدي الصغير حول أصبعه. لم تعتقد أنّه مسجون كشارعه بالخطوط والأقواس. كان واضحاً أكثر من أيّ مرّة. لماذا بعد أن انسرقت يتوافق هكذا؟ ويعلن أنّ له ابنة لها رقم هاتف ويتركها ترسم حلقة الزهر التي تزيّن عطفة حيّه المفترض حول إصبعه، أذلك كانت أصابعه باردة؟ لهذا الحد تمنح العلاقات المستوية الدفء للأصابع؟ أمن شدّة الانفعال أم من شدّة الملل؟ هي لا تحتمل الإطارات المغلقة، حتّى إطارات سيّارتها اقترحت على عامل الورشة، صديقها، أن يحرر جانبها من التبعية لوحدة الكاوتشك الدائرية؟ كيف يلتصق رجل وامرأة عمرا استوائيا حارا دون أن يفلج واحدهما الآخر؟. هل تحتمل الحياة رباطا أبديا بين رجل وامرأة؟ لماذا إذن أصحاب تلك الحلقات لا يتعبون من التفتيش عن واحدة بلا أوصاف محدّدة؟ لم تمنح تفسيراً عابراً لما انهال على كبدها بالكلام.

قرارها واضح ، ستراه كي تتأمل الحلقة الفضّية التي لمعت أمام عينيها ولم تعرّها اهتماما. استرجعت الأرقام، « هالو، أنا قادمة» وأقفلت صوتها. لا مكان للأغراب سوى الشواطئ اللامبالية في يوم صيفي. حين وصلت كان هناك. أسلمت يدا مترددة إليه ومشت إلى جانبه على مهل. «بحركم غير جميل، استهدفته. أنظر كيف تضربه الشمس ولا يقاوم. » البحر جميل في كلّ الفصول، إنّـه لها جميعها» ، قال: «بحركم يفقد نفسه بسهولة في الصيف، لذلك لا أحبّه» ثم استدركت وهي تحول نظراتها عنه، لو كان نابليون يعرف أنّكم لا تحصّنون أسواره، ولا تحسّنون صيانة أسماكه لسحبه خلفه

إلى بلده، لكننا نحبه. « لكنكم تهملونه » اغتازت «تجونه كما تحب القطط والفيلة أبناءها».

حين دخلت شارعها الحر ضحكت ضحكة عالية. ثم هدأت، وامتصّ كبدها انفعالها.

بدأت تلملم شكل التفاصيل التي تمرّ بها. سيّارات الأجرة أولاً، العصافير الهاربة من مشهد الساحات الخالية. الخطوط البيضاء التي تملأ الزوايا. خيل إليها أن ازدحام الخطوط على هذا النحو المفجع هي ما يتذكره الشارع عن أيام استقلاله. حين لاحظ وجودها باغتها: «هذا شارع الاستقلال». «عرفت من عدد الخطوط التي تحاصره، مقابل الخطوات المائة أحصيت خمسين خطأ محرراً». ضحكت، وأحاطت نفسها بصرامتها. «ما أغنى فاتحي هذه المدينة!»، همست وسكتت. ابتسم للملاحظة، وحدجها بنظرة طويلة من فوق إلى تحت، ومن تحت إلى الوسط. «أنت سامة، وغريب أن يعيش بعد كلامك عشاقك». لماذا عشاق بالذات؟ كأنّ صفاً طويلاً يختفي خلف بلوزتك الرمادية، ويتأفأف بنفاد صبر. قال بصوت غائم: «لا تتلاشي خلف نفسك، الحقيقة أنني أراهم خلف عيونك يقفون بالدور»

تذكرت وائل، وشوارع رام الله أيام فتحها الأخير. كان يقبض على يدها بقوة وهو ينتقل بها من شارع لشارع. اجتياز الشوارع في رام الله مغامرة. كلّ شوارعها محرّرة، ولا يوجد خط واحد يلجم شهية السيارات عن مسح الشوارع دون توقف. هناك منحت اسماً واحداً للشوارع الرئيسة وللطرق الفرعية، محرر.. محرر، وأضافت على هامش الهواء بينصرها الملفوفة بالشاش: «مع وقف التنفيذ». من

يرغب بالتنزه على الضفة المقابلة لحدود الشارع مع الرصيف يجب أن يستأجر طائرة ورقية ويغزو السماء. كان وائل يستحثها، «نشوة أسرع، ستنسلخ قطعة من كتفك إذا بقيت ساهمة هكذا. طائرات رام الله لا تملك مطارا تقلك منه». ضحكت، «هي طائرة واحدة للرئيس ومعطلة». «من قال لك؟». اعترض وسط صفير سيارات الأجرة الساخطة على احتكارهما للرصيف. ناكدته، «سمعت الخبر على الموجة الإسرائيلية الأولى». احتدّ وعلا صوته، كأنها شتمته دون أن تنتبه: «يكذبون، طبعاً يكذبون، هل امتهنوا طوال عمر الاحتلال غير الكذب؟» مرّت سيارة قريباً من ركبته، فصرخ بالسائق: «الرصيف أيضاً لعجلات أمك؟» شقرقت، «ولك استحي، لو كان لأمه عجلات لما ركب عجلات سيّارة». «هيا، قلت لك تحرّكي»، عنّفها غاضباً: «لا أعرف كيف أقطع هذه الدونمات كما تفعلون بلمحة بصر». سكت ونظر إليها، ثم همس: «سأحملك»، وفرد كفيه على شكل وسادة. اشتعلت تربة عينيه في قلبها، احمرت وجنتاها، «لا يمكن، ناد هذا الشرطي كي يساعدنا». «لن يسمعك». «بل سيسمع، أفرجيك؟». صرخت باتجاهه وخطّت سبابتها بموازاته حركة استغاثة. «يا سيّدي، إمّا أن تؤجّرني طائرة ورقية تحلّق بي هذه الدونمات الواسعة، وإمّا أن تحرّر هذه المسافة المتهكة من هدير الدواليب المسرعة». نظر إليها وضحك. كان شاباً يافعا، أسمر الملامح، فهمس لها بمزاح، وهو يتأمل الشقيق الذي يشقّ طحالب عينيها العميقة: «سأحرّر لك ما شئت من الإسفلت شرط أن تحرّري ورقة واحدة من شقيقك الفاتن». فوجئت، وازداد عصير البندورة تجمّعا على

جانبي شفيتها. فاجأته بابتسامة مأكرة: «ماذا يحدث هنا، من يحرّر من؟ شوارعكم يا سيّدي، بحاجة لكتيبة كاملة كي تحرّر شارعاً بمساحة عشرين خطوة». ضحك الشرطي الوسيم، «يخيّل إليك»، قال، انظري كيف تحرّر الشوارع في هذه المدينة. وأطلق صفارته في الهواء، فتوقّف سطر عريض من السيّارات الصفراء. ضحكت بشدّة، وهي تلمّ أصابع وائل، وتجتاز به الشارع إلى «حلويات الشرق». كان وائل مشدوها أمام المشهد الدرامي الذي يتشعّب تحت عينيه، ولا يتفوّه بكلمة. لكن حين قرر الشرطي اقتصاص ورقة من شقيق رفيقته دقّ قلبه، وغلت دماغه بالحيرة. أكل طرف شفته، وهو يتهيأ للدفاع عن مزرعة الشقيق التي صارت خاصّته. لقد أنقذته ضحكتها الجميلة من ليلة حصار خلف القضبان. رآها تلوّح للشرطي، وهي لا تزال قابضة على يده، ثمّ تدخل بها إلى الردهة الواسعة.

بدأت توزّع ورق عينيهما على الطاولات الخالية. فقررت، «هناك حيث النافذة سنجلس»، وسحبته من زرّ يده كطفل لم يفهم تماماً ما قالت. لم تنتظر ردّ فعله، بل أضافت لاهثة، كي أشرح لك كيف قفزنا من الإسفلت إلى هنا. سكّت وائل بضغّ ثوانٍ، وهجس، خبَلَتْهُ هذه المرأة، وأجهزت على رُوحه. قرأت شكواه من عربات القطار السريع الذي قفز بين عينيه وأرغى تحت جفنيه. كان ينظر إليها والى النادل بعدم تركيز كأنها يرجو منه إنقاذه. حين فهمت، اقتربت منه وهمست: «هل كنت كما تحب؟» تأمل وجهها بين كفيه، ولم يقل، بل مسح شفيتها بزجاج النافذة وأعلن: «قد لا أرافقك بعد هذا اليوم أبداً».

ترى لماذا زاغ بصرها إلى قامة وائل. وماذا يجمعه بهذا الرجل الغريب؟ ربّما شارعاهما المتناقضان. لكل منهما شارع بدونيات واسعة. فقط يختلفان في أسلوب احتيالهما على دواليب السيّارات. كانت تتقدم ببطء، كأنّها تتأكد من معالم مدينة على وشك أن تفتحها. وكان هو ينظر إليها باستغراب ويتقدم مثلها بخطوات وثيدة. يتوقف حيث تتوقف يتفحص معها شكل الأعمدة القديمة، زخرفات المباني، حجارتها البنية كأنه شريك ضمني في الغنيمة. لكنه لم يستطع تمالك أعصابه، فزّت أعصابه من مكانها وسألها: «لماذا تقيسين خطواتك بالشبر؟»، هل أنت خائفة، قولي هل راودتك أفكار سيئة، ثم بضحكة عالية، هل اعتقدت أنني سأختطف غابات المدن المنتظرة هناك؟ ، ومدّ سبابته بمواجهة غمازتيها العميقتين.

ابتسمت حين قال، وسطت على فكرته. فاجأته حين أعلنت، ولماذا لا تخاف أنت مثلاً، ألا تعتقد أنني أدبر بصمت مكيدة اختطافك؟ ضحك من أعماق قلبه، كما لم يفعل طوال مكالماتها اليومية. ضحكت بلوزته الرمادية معه حتّى اعتقدت أنّها تركته ونشرت أكمامها على نوافذ السيارة الخائفة. صمتت طويلاً قبل أن تنطلق ثانية أساريرها ويحتضنه صوتها، «هذه محطّتك.. ألمحها تناديك. ثم بشيء من الانفعال: «ترى، لماذا الأخيرة تستقل منها كل شيء، الرجال والنساء، والحياة برمتها؟ إنّها تنتظرك.. هيّا يا سيدي، ترجّل». شدّ على يدها بأصابعه الباردة، فانتفضت فجأة. همس وهو يدفع نصف جسده الأمامي بموازاة أذنها، «هل أروعبك لهذا الحد؟» ابتسمت بانهذا حقيقي، «لا ترعبني ولكن تأخذ

روحي فيصفق لك قلبي». حين قالت حلمت عيناه واتكأت ركبته على حديد الباب المفتوح، وشدّ على جملته: «أيّتها الشاعرة الخطيرة». عاجلته: «بعد أن لامست برودة يديك لم أعد كذلك». رتبّ أصابعها الأربعة كرف من العصافير المحنّطة، تأملها قليلا، ومرّرها فوق شفّتيه. ثم همس ببحّة مخنوقة، «هكذا ترتعد المحبّة، هكذا.. هكذا»، وداعب بها أسنانه الأمامية حيث تهيأ سنّاه الجانيان للطيران. ثم لم تنتبه إلى صرخة عالية صدرت عن حنجرتها، حين عضّها بقسوة عضّة محبّة، وأضاف: «وهكذا أستعمر روحك، وقلبك، وربّما، صمت قليلا، وأسرار بترك الجائعة». كان شبه راکع على حديد السيارة المرتعدة حين أعلن وهو يمسك وجهها بيد وسيجارته بيد ويهمس: «هل قال لك رجل أنّك مستعمرة فاتنة؟». أطلق سحابة غائمة من عامود الرماد المنقبض بين الإبهام والسبابة، وقال: «المستعمرون، يا سيّدي الفاتنة، يدخلون المدن كي يفرغوا معالمها من الرموز، أمّا أنت فتدخلين كي تلمّعي مظاهرها الجميلة بمظاهر سحرك وتملّئي متاحفها بصور تأتي بمجرد أن تمّدي إليها مساحات روحك. هل كنت أعرف أنّ تظاهرات الحبّ كلّها تتجمّع تحت صقيع أوردتي؟». امتصّ قمّة أصبعها الوسطى، ثمّ داعب بها حقل خديه القمحي. كانت مشدوّهة، لا تتوقّع كلامه، ولا تنجح في إسكات اضطراب أنفاسها. لماذا صمت كل الأيّام السابقة؟ دجّنت أشواك خديّيه كلامها، كيف تشاكسه بكلام يلتصق قبل حنجرتها بكثير. أمام ما يجري في كابينة السيّارة وقف شاب وامرأة، ونظرا إليهما بشيء من الغيرة، واستدارا إلى الشارع. «سوف يمطرونك باللّوّم»، همست لأنفاسه المتهدّجة خلف أذنها:

«حافلتك لهما أيضا، يا أستاذ». ولم يجب، كان منسحقا في غرابة اللحظة المتمللمة.

ربّما يريدّها الآن، ربّما ستوافق أن يحاضر جسدها خلف باب مغلق. ربّما ستتواطأ معه سخونة البئر الجائعة، إنّه يشم رائحتها تنفذ إلى كيس مرارته مباشرة كرائحة المشاخر. هل احترقت طويلا قبله؟ قبله كان واثل، رجل ارتباكها الأول، انسعر بها وبيثرها، وسعّرها به أيضا كما يفعل السمّ للجراء. أكان ما حدث انسعارا أم أقلّ منه بقليل؟ ما لن تنكره أنّه أوّل سارق للنار من تلك الجبال السريّة، وأنها بعده لم تتوقف يوما عن الاحتراق.

هزّ كتفها حين لاحظ غيوبتها. ألا ترغبن بمحاضرة قصيرة خلف باب مغلق؟ وأشار لفندق قريب في مواجهة المحطة. ابتسمت بمكر: «هل تعتقد أنني من أولئك النساء؟» بالاحاح «أولئك أو هؤلاء، لا يهمّني، لقد فهمت الكلام الذي أريد تسطيره على خام جسّدك، لماذا نشوة، تتجاهلين المرأة التي تتبخّر من رسغيك؟» ابتسمت بلا مبالاة، «غدا آخذها إلى بلد آخر لا يلاحظ فيه الرجال ما ترسمه شهوتك»

سكت وأشعل سيجارة ثانية. ضمّ يده إلى صدره، وأسقط عصفوره المذعور مكانه. حين استرد جسده أبقى الباب مفتوحا، كأنّها ليستشير نفسه ويعود ثانية. أغلق الباب برفق ومدّ يده من خلال النافذة. شدّ على أصابعها الأربعة مرتبة كما كانت في حقل خدّيه، «أحبّك هل تفهمين أيّتها الشيطانة؟ هل تفهمين؟» خيل إليها إذاك أنّها ترى الجوزة التي ترقص في حنجرتة تسقط بين ساقها حارة ساخنة. ثمّ همس من شقّ الزجاج المنتظر لا يزال،

سوف أنتظرك، عودي سريعاً. واسترد أنفاسه وجوزته الذائبة في ساقيه. لم تقل شيئاً، وفقط قرأت شكل غضبه، وأغلقت عليه قلبها.

«هل يوجد مكان غيره تأمنه على سرها؟» سألت عينيه الحائرتين في حلمهما. تركته ومضت.

غدا ستأخذ كل ما حدث معها، تعبته في علب زيتها، إثم، على جسر السلام الذاهب إلى عمان، يذبحون كل من يلمحون في عينيه حلم. هناك لن يشك في وجوده غيرها. هل ستتزين بحالة الحب التي ألقاها عليها؟ تساءلت وهي تهدر خلف هواجسها المتناثرة مع المساء القادم من هناك. من الجبل الذي تحبه، وحين ستعتليه سيفترس الظلام المدينة وتصبح أرصفتها لغسان وحده.

- 7 -

لماذا انتظرت اليوم الأخير لوجودي في عمان كي أسجل لك أيامي السابقة؟ أهي عدوى اليوم الأخير انتقلت منك إلي، أم استباقي الخاطيء للزمن؟ ماذا انتظرت منك عند عودتي وأنا أعرف أن لك زوجة ستعود عمّا قريب وأولادا ربّما عائدون من المدرسة؟ بأي منطق كنت أعزم أشواقى الحارّة في حقائبي مع ملاسي؟ لا أعرف شكل المشاعر التي انتابت امرأة قبلي كي أسجل أحاسيسي المتعاركة بعضها لك وبعضها الآخر عليك. وكيف جرّوت على التزين زينة ملكات لألقي بريقي عليك، والأصح أخطفك بطرف عين. كنت أقرأ سيرة الملكات وأميرات العصور السابقة بامتنان حقيقي

لدهائهن. في غرفة فندقتي المتواضع بدأت أتعلّم فن اغتصاب مشيئة الرجال، عفوا رجل واحد فقط، أنت. تُرى، من كانت أوّل امرأة سلّبت زوجا من امرأته وفرحت للمجد الذي شيّدته على سرير النوم لليلة واحدة؟ هل كانت تعرف مثلا أنّها أغبى امرأة على سطح الكرة، أم أنّها أدهى نساء الأرض؟ لم يكن يعينني حينذاك هذا السؤال الهامشي. كان ككل الأشياء من حولي لا قيمة له. وربّما بعد مرور أحد عشر عاما على تلك الحادثة تبدو لي أقرب للغربة منها للمهزلة. ما أشد كيد النساء حين يعشقن! وما أجن رغبتهن في الامتلاك! عقولهن أحيانا تلامس أطراف أقدامهن، وليس مهماً، وهنّ على جسارتهم، أن يدمرن عالما كبيرا بسعاداته وخيباته.

أمام المرأة جلستُ أعدّ الخطوط التي انضافت للتي حول عيني، ربّما سيلاحظ أنّ خطأ واحدا جديدا يحتال على جمالي، ولا بدّ أن أقصد سيّدة التجميل الأولى في المدينة فور عودتي. مرّرت أصابعي بحذر وفحصت الأجزاء التي تأخر ألقها، وربّما للمرّة العشرين أزلت كريّيات الأساس وأعدتها. تعبت أخيرا من نفسي وغضبت، لماذا هو لا تهمة الخطوط التي تتعرّش على وجهه؟ لماذا ضحكك حين عدّتها كي تغيطه، وكشف لها خطأ جديدا أغفلته تحت لحيته؟ لكنني هدأت ثانية ومررت الكحل بحرص في عيني ثمّ عتّمت رموشي وظلال جفوني بقليل من الأزرق الحالم. تركتُ علامة الحسن واضحة كما اعتاد أن يراها وداعية.

لبستُ الجينز الأسود وتخيلت أنّي سأراه بجينز يشبهه. ولا أدري لماذا بعد أن التمتعتُ بالسحر الذي تبذل النساء الكثير

لقاءه، أحسست بأنني امرأة هرمة ومتطفلة على الجمال برغم سني الصغيرة. أحسست أنني مزيفة، كأن ساعة وعشرين دقيقة من تسوية الخط المستقيم وليّ ما يتدور حول العينين ويلمع فوق الشفتين ذهب هباء.

تربعتُ فوق السرير مظلمة القلب حتى دقّ عامل الاستقبال بابي. ولا أعرف لماذا خيل إلي أنّ الطارق أنت. حين فتحت له ذهل، أخفض عينيه وهمس: «ربّما أخطأت سيّدي». ابتسمت « لهذه الدرجة أبدو سيّئة؟» تألّقت عيناه بانبهار لم أره طوال الأيّام الثمانية، «لو كنت أستطيع العتب عليك، كلّ هذا الجمال يطلّ علينا يوم مغادرتك فقط؟ هنيئاً له الذي ينتظرك» ضحكْتُ، «ليس لهذا الحد، هل بحثت عن شيء؟» هاتفك لا يستقبل مكالمات، قال واقرب من السماعة المرفوعة. أعادها بلطف وأضاف: يبحثون عنك، لا بدّ أن تقولي شيئاً قبل أن تغادري، وخرج.

هل يعرف أنني لا أريد أن أسمع منذ الآن وحتى هناك غيره؟ حين أدركت أنني لا أزال صغيرة وضعت آخر اللمسات، قليلاً من رائحة المور المرّة خلف أذني، لأمرمه قليلاً، همست بخبث. لا تفصل سنوات كثيرة بيننا، سبع سنين كافية كي تشعرني أنه أصغر مما توقعت، كنت أستعيد الرقم الذي ضربه بالطاولة ليثبت أنّه لم يعد صغيراً، كي أثبت لنفسي أنّه لا يصلح لي تماماً.

ثمانية أيّام طويلة وجميلة، لم أعش كثيراً ما يشبهها. ترى كيف شعرتُ بثقل الزمن وجسامته؟ بعيداً عن تلك المدينة يصير للزمن وزناً، جسداً وفكراً، لماذا أكتب الآن إليك فقط؟ أكنت خفة الزمن وثقله معاً؟ أم أنّه شيء آخر لا أفهمه؟ صعب أن أفكر عن الزمن، أليس

كذلك؟. صعب أيضا أن أعتقد أنك ما تنتظره مني. لكن الغريب أنني، وأنا أوشك على المغادرة لم أفكر أنني أذهب إلى رجل ليس لي، ولا يربطني به غير كلام لا مبال كشف عن جدتي في اللحظة الأخيرة. لم أستوعب معنى ارتباطه بسواي. ومثل مراهقة صغيرة خيل إلي أنه في الليلة الأولى لعودتي سيقف تحت شباكي المفتوح ويدندن إحدى أغنيات فيروز القديمة كي أصدق افتقاده لي.

قررت أن أبدأ أوراقك إليك بعنوان جميل، «أوراق من عمان» ، مفصلة بالثانية والدقيقة. ثم استوقفني اسم المدينة، وغرت من الأيام التي ستبقى لغيري فيها. مدينة جميلة دائما. غامضة الأحاسيس، نكرة ومعرفة. مسائية الطالع، وليلها يا سيدي، بارد مثل أصابعك، لذلك أغرتني بالبقاء في يومي الأخير؟ مدينة تحب أن تنثر رائحة أماكنها على زوارها في أيامهم الأخيرة بين مقاهيها. هذا الشعور خالطني وأنا ألاحظ مغادري فندق الكارلتون يرسلون عينا إلى السيارة الصفراء وعينا أخرى إلى عاملة الاستقبال.

كيف تريدني أن أوثق أياما مرّت بدونك بهذه السهولة؟ هل أعترف الآن أنك لم تغادر سريري ليلة واحدة. وأعترف أنني في اليوم الأول اشتقت إليك، والثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، والثامن. اليوم الأخير ألقيت الأيام التي قبله في جيبي. نزلت إلى موقعي الإستراتيجي. الحديقة الصغيرة المطلة على الشارع حيث ترى الدنيا ولا تراك. بكامل أناقتي وزينتي ملأت المكان. قرّرت أن أوزع أيامي على بطاقات ذهبية الغلاف وأرسلها بالبريد العادي إليك. هذه المرة، قلت، يجب أن يفاجئك زهدي الجديد بالكلام. من مدينة الحياة سأتي إليك عبر بطاقات

توهمك أنني عشت عصرا ذهبيا بدونك. أنني ضحكت ورقصت، شربت وأرجلت بل واغتلت أفراح غيري.

ألا يدفع غلاف مذهب كل هذه التدايعيات من الورق مباشرة إلى شريحة أعصاب مستفزة كأعصابك؟ أحاول أن أتذكر متى كنت طبيعيا، هادئا وجميلا مثل إله. على سرير زوجتك مثلا؟ لا أعرف. لكن مجرد ذكرها يحطمني، لهذا الحد لا أعترف بوجودها. لا أعرف شكلها ولم أتخيل رسم وجهها، وفقط في لحظة حقد عابر اعتقدت أنها مثل الزرافة طويلة كجبل، ووجهها ضامر مثل رأس خيل. وربما صورتها بلا وجه، محوته من فراشك، كأنك تنام ليلا مع دمية قطن كي تملأ المساحة الفارغة إلى جانبك. من تجربتي الضئيلة مع أكياس المראה التي للرجال أعرف أن أكياس الحيش وحدها تحتل الجانب الفارغ من أسرّتهم بعد السنة الأولى من زواج سعيد. لذلك كنت أشك بما يعلنونه أمام الأصدقاء حين يُسأل أحدهم، كيف حال زوجتك؟ ويفتح فمه وابتسامته ما استطاع كي يوهمك أنها بأحسن حال، ولا ينقصها شيء.

إذن، لماذا لا ترافقك؟ ويصمت حتى يعثر على مبرر منطقي. مشغولة بالأولاد. تمنيت دائما أن أسألهم كيف حال زوجاتكم. بالجمع لا بالفرد، لكن للحقيقة لم أجروا على ذلك إلا في حالات نادرة، حين أكون مهية للفكاهة.

منك فهمت أنك بحاجة لأنفاس امرأة. قلت، «زوجتك مثلا؟». أدهشتني حين أعلنت، «ليس زوجتي تماما». قلتها متقطعة، امرأة.. امرأة. سكت أنا أيضا وابتسمت للمنفضة بمكر. فهمت أنها أكياس الحيش، «ماذا لو اعتبرت المنفضة مثلا زوجة مؤقتة؟»،

همستُ بجدية لا أعرف كيف مسرحتها، وأغضبتُك لذلك الحد،
أنتِ لثيمة، يلعن، يلعن ولم تتوقف سبع عشرة ثانية تقريبا عن
البحث عمّن تلعه.

حتى أنت يا سيّدي، تحتفظ ليلا بتلك الأكياس التقليدية
لتظل على تواصل مع نفسك ومع الحياة. إذن، كيف تعيش امرأة
مثلي تحتفظ بأناتها للزوايا المعتمدة، ولا تحب الأكياس مطلقاً؟
ببساطة تعادي الخيش والنايلون، وتمجّد لحظاتها في الفراش مع
النمور والديبة الفرائية. تحضنها وتغني لأحلام تستحيل في سماء
الغرفة إلى نوارس شديدة النقاء. لكنني تخيلت خلال الأسبوعين
الفائتين أنك تملأها بتلك الرائحة. تترك بيتك وأشياءك وتبحث
عن أشياء مختلفة على سرير امرأة كل ما تعرفه عنها رائحة التفاح
الحامضة، واحترق أبطيها وأذنيها بالرغبة، لحظات استيائها. هل
أرغمتك امرأة على أكلها لحظة غضب؟ أنا سأفعل لو وجدتُك
العشاء الوحيد لجوعي الطويل.

حزينة هذه الخطوط؟ نظرتُ إلى خطوط الأوراق التي كتبتها،
هل يلقي الذهب كآبته في خطوط لولبية وذائبة؟ نفخت عليها
لأحييها، وأحطت نفسي بها. سحبت مغلفاً وأوراق، ونعفتُ
الرصاص فوقها
ثماني أوراق.

الورقة الأولى

في اليوم الأول يا سيدي، أطفأت ضوئي باكرا وذهبت إلى النوم.

٢١ أغسطس

الورقة الثانية

هذا هو اليوم الثاني. جابت المدينة أشواقي حتى أوّل الفجر فكّرت
بزّر قميصك الفالت. لم أفكّر به مثل عاشقة بل تفكير عابرة، ولا
أدري كيف؟

٢٢ أغسطس

الورقة الثالثة

في اليوم الثالث طردت عبّان سكانها، وأخلت شوارعها لك.
كأنك مشيت خطواتي. كيف لم تسمع صهيل الخيول في طرقاتها
الخالية؟ عند الصباح حجبُ الشمس عن مفكرتي. دفنت بها
أرقي، ونمت .

٢٣ أغسطس

الورقة الرابعة

في اليوم الرابع تعفّرتُ بصياح الناس. في ساحة المدينة جاءت
عمّان كلّها كي تنتظر المساء. فرحتُ بهمزهم ولزهم. بضحكهم
وغزلهم. ضحكت للمرة الأولى منذ أتيت حين قبضتُ أصابع
رجل ظننت حين حاذاني أنّه أنت. أحبك؟ ربّما،
أشتاق؟
مؤكّد...!

٢٤ أغسطس

الورقة الخامسة

اليوم الخامس، أغار من قلبي. سمعت الأغنية للمرّة العاشرة.
وتمنّيت ثانية أن أقبّل روحك.

٢٥ أغسطس

الورقة الساوسة

اليوم السادس، فكّرت بعد أن أنهي مشغوليّاتي أن أعبئ بمخدّتي
هواجسي، وأكتب اسمك مئة مرّة على قصاصات جرائد. بعد أن
أنتهي ألقي برأسي بين كومة الأسماء وأتخيل أنني بين يديك فقد
يصرعني رجع صوتك، وأنا م مختنقة بك.

٢٦ أغسطس

الورقة السابعة

في اليوم السابع، لم أفعل شيئاً محدداً، ربّما تأملت. قلّدت اليوم
السابع من أيام الخلق، استلقيت أمام الجدار وتأملتك ملياً. هل
أستفزّك ثانية؟
أريد أن أقبل روحك.

٢٧ أغسطس

الورقة الثامنة

في اليوم الثامن يا سيّدي، سوف أكون، صدّق! سأكون في طريقي
إليك.

٢٨ أغسطس

— 8 —

دفعْتُ البطاقات إلى مغلفاتها وعنونتها باسم الشارع الوحيد الذي أذكره عن ظهر قلب، الشارع الحر رقم ٢١. لملتُ أشياءي على مهل، ومضيتُ إلى السيارة الصفراء. لم ألتفت إلى الخلف، لكن أصوات المدينة بدأت تلاحقني. جبل عَمَّان أولاً ثم الخط المستقيم المؤدي إلى الدوار الغريب الذي يمرّ منه كل من لا يحتاج الوصول إلى الشميساني. سألت نفسي أولاً، كيف تصل هذه اللفّة المدينة بكل مكان. كنت لا أجرؤ على طرح السؤال على أحد السائقين لأنّه لا بدّ أنه سيبحث عن طريق أطول لا تؤدي بالضرورة لمقهى المدينة الجميلة. تذكرت باريس وشوارعها الضيقة، فكّرت بدوّار الكونكورد، كل متحف زرته تنزهت سيّارتي حول قوسه حتّى جاء يوم وتحلّيت تماماً عن السيارات واستبدلتها بالميترو.

هل تقاس جمالية المدن بقطاراتها وميترواتها، أم أنّها رغبة المقيم في مدينة خارج تخصصات همومه تأخذه إلى كل ما هو غريب فيها؟ تجعله يبحث ويتساءل بلا نهاية وحين يصل إلى الإجابة يفتش عن مبرر آخر للتساؤل. لكن عَمَّان، لا أعرف كيف أفسر نفسي، لا تُعشق تماماً. يظل الشوق فيها متأرجحاً بين شارعين أو محطّتين. لا تأخذك تماماً ولا تتركك تماماً. وربّما هذا التعلق باللاشيء أكثر ما يؤلم في هذه المدينة. بقدر ما يمتلكك بنفسج أحيائها الليلية ثمة ما يشدّك إلى الوراء.

أتذكّرني بك؟، بعلاقتي غير المعرفة، المتأرجحة، مثل حجل يتيم

على أسلاك الكهرباء؟ أكما أفسر الأضواء التي تذهب إليها ولا تعود؟ حين لا أراك ألتف بألف سؤال. من، زوجته؟ صديقته؟ بطلة فيلمه الجديد؟ عاهرة قرر أن يشتري منها حفنة حب على هامش الليل؟ جميعهنّ مشروع خيانة محتملة. أدوخ من التساؤل. لكن فجأة انفض وأنفض غبائي، أمن حقي أن أتهمك بالخيانة، وأنت من حقّ غيري؟ لا أهدأ.

يُداورُني السؤال بلا آخر، «هل يخطر بينَ شعري، وهو مستلقٍ بينهنّ، صوت هاتفه الصباحي إلي؟» الثامنة والرّبع، الثامنة والنصف في الأسبوع الأخير. كل حقبة زمنية لها مواعيدها ومزاجها. ثم أعلن بنفاد صبر، أكان يعني ما يقول حين أعلن هذا الصباح، ودون سبب، أنّه يحبّني ولم أرتجف؟ عمّان برغم كرى وفري منها وبها، بدونك يا سيّدي معك. حميمة اللحظات، ساحرة التناقض. وكلّ مكان لا يزال يحافظ على طوقه القديم، يستبقي من رائحة المارين به كمشة انتظار، ولا بدّ، أصرّ أنك مررت من هنا.

هل جئت قبلي وحدك؟ المقهى الصغير هذا الذي ألمحه من سيّارة الأجرة المتمهلة يخبئ شيئاً من تطرف العطر الذي أبقيته على قلم الرصاص. زرته بشكل شبه يومي كأنني على موعد متجدد تخلّفه كلّ يوم في نفس الساعة. هل تتذكر لحظة انحنيت على قصاصة الجريدة وسجّلت مواعيد الإضاءة؟ كنتُ أتربّص برائحته. حين أسرعَ إلى مكتبك لتتأكد من أمرٍ ما، استلقى غائبا عن الوعي بدونك. كانت رائحة العطر طازجة ورصاصك طري لا يزال، هل جربت رائحة دالي مختلطا بالرصاص؟ أجل كان دالي يتضوع بك ذلك الصباح، وكانت الغيرة منه تمزق ملابس، ماذا لو كان اسمي

عطرا يستولي عليك، ويجرّك علاقاتك بالرجال والنساء؟ كان دالي ييازج رجلا كلامه رائحة، يصنع ساعات يومه من عطر المرأة التي تستوقفه.

هذا النوع من العطور، ربما لا تعرف هذه الحقيقة، يصبح متطرفا ووقحا. لم تسمع بعطر وقح، أليس كذلك؟ هو يا سيّدي، عطر يرسلك بتأشيرة مفتوحة إلى حماقة من كلّ نوع ومع كلّ أحد. أحسسته بعد أن تركتك ورفعتُ قلم الرصاص إلى أنفي كي أستحضرك وزعق بدني. تناثرت رغبتي، وأردتُ أن تمتلكني وتلحس قلقي المدمّر. ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟ ليس لديّ اقتراحات لإجابة. أمّا أنا فمواء رغبتي لم تنجده ولا الرجولة التي توّسّلتُ إليها حتّى تلك اللحظة.

- 9 -

خطوات لهاث غير مرتبة وصلت معي إلى الأسواق الطويلة والمفتوحة. لم أترك نوعاً من البهارات أو الحبوب أو الفاكهة لم أستحوذ على شيء منه. وخيل إلي في حالة السعر تلك أنني سأربط السوق القديمة بحبل وأسحبها خلفي. أقفل شارعها بها لعدة أيام حتى تعود أوردتي إلى مكانها وعضلات صدري ووجهي. كل عضلة ذابت في مكان، وشرط عودتها كان منوطاً بالآثر الذي سيرافقني بك. خرجت بأكياس من كل نوع، كأني حين أنغمر بها أنغمر بعطرك أيضاً.

هل تشطب هذه الومضات من يوميات الزمن الجميل دون ندم؟ هل العودة إلى الخلف سهلة كما يُرجى؟ ألححت على قلبي، هل يمكن أن أمرر قلم الرصاص الذي يندف بوقاحة عطرك، وأودع ما يسلم كل صباح على صوتك؟ صوت من يسمعي بعد ذلك، كحجة من تشاغب قصيدة نزار الأودي للصباح؟ إذا مرّ يوم ولم أتذكر / أن أقول به صباحك سكر / ورحت أخط كطفل صغير / كلاماً غريباً / على وجه دفتر / فلا تغضب من ذهولي وصمتي ولا تقل أن شيئاً تغير / فحين أنا لا أقول أحب / فمعناه أنني أحبك أكثر.

طبعاً كنت أتصرف بالأفعال كما يحلو للغة الضمير. أذكر المؤنث تحديداً ليبدو الكلام صادقا. كل صباح تستغرب من الكلام. تسألني ولا أجيبك. وما لم أفصح عنه لأحد أن هذه القصيدة

القصيرة كانت كلمة الصَّبَّاح الأولى التي ألقاها عليّ رجل مراهقتي
المعذّبة حين يدفع ستارة الوقت عن سريري ويتسم عنه الدفء.
كان شابا ساحر الدفء، ضحكته، مشيته، كلامه، وبحته الخفيفة
كانت أجمل ما يصدر عن الصَّبَّاح.

كنتُ آنذاك في منتجع لنقاها فرضها عليّ طبيب العائلة بعد كبوة
نفسية حادّة، لم يكن موت جدّي لأبي السبب الوحيد فيها. هناك
خفق حيائي أوّل مرّة، وكان مثلي مقبلا مؤقتا يتحرر من علاقة
زوجية فاشلة بعد فقد الزوجين لطفلتها بحادث سير مؤلم. راودني
دفء طاع في عينيه عن نفسي. كان فيها ما لم أراه في عيون سواه.
حين يقول يهمس، لم يكن لبحته خيار آخر. قرأها لستائر النافذة
دون توقف.

واليوم أقرأها عليك حتّى إذا ذهبتُ كما ذهب تتلوها لأول امرأة
سيتغنى بها صباحك. هل سأذهب، أم أنّه أنت؟ يا إلهي! أيمن أن
يذهب واحدنا عن الآخر؟ كيف أواجه نفسي بفكرة فقد لا أقوى
على احتماله؟

_ 10 _

والغريب فيما يحدث حين نحبُّ أننا نحسُّ أن الأشياء ستبقى لنا حتى الأبد. أن لون السماء سيبطل عميقاً كأرواحنا، وعمر الليل طويلاً كلهات أنفاسنا. وأن القلب لن يهرم أبداً، ووجه الذي تحب سيبقى يشرق مثل الشمس ويهطل كصياح الديك من الحنجرة، وربما يأتي بالغيم كي يوقظ المطر. حرب تشن تحت جسدك وأنت لا تسمع غير وشوشة سنّه في قلبك. لهذا الحد يغدر الحب بالحقيقة؟

«لا تفاصيل هامشية في الحب»، قلت هذا أجمل ما فيه. لكن كل هامش يقود إلى معركة قد لا تنتهي بضحايا وقتلى فقط. ماذا أقول وأنا أستنتج مما تقوله أنك ذات يوم ستكون القتيل الذي تمر به سيارة إسعاف وتتجاوزه ثم تحرر بحق وجوده شهادة إغماض اضطراري على الحياة. أعلى الحياة أم على الموت؟

لا أعرف تماماً، كل كلام حرّ يربكني هكذا ويأخذني لتفاصيل غير ضرورية. تأملتكَ ملياً وهمست، «الهوامش في الحب يا سيدي، محور خلاف وضعف؟ لكنني أريد من هذه الهوامش أن أصنع حالة جد، حالة حب، ربما يسمع بها سراقو الحب ويعلنون اسمك شعاراً لمقاومة القمع؟ أصغيت، قلبت عينيك، وازددت إغماضاً، وأنت تحريش في الهواء خطوطاً على شكل قلب..

نزف الكلام كأنه يسمع نفسه داخل هدير محرك لأول مرة. لم أعرف غير ثرثرة هواجسي المتداخلة بعيداً عنك. أحس أنني لم أرك سنة، أو بعض سنة، أو ربما عمراً كاملاً ستبدو بعده أكبر مما توقعت، وأغرب مما تعتقد الغربة عن منفاها.

- 11 -

«أقل من أربع ساعات وأكون حيث يحكي الموج وأسمع»، همست
لنفسي بفرح حقيقي، ونظرت إلى آخر المعالم التي سيطل بعدها وجه
مدينتي. توقعت أن الحياة برمتها ستأخذ مساراً آخر حين أصل
وأنفض أبواب الليل من المخاوف. الحقيقة أنني لم أفكر بغيرك،
بعمرك الذي سأعثر عليه متجاوزاً عدد الخطوط التي تغضنت
حول عينيه، والحمرة التي أكلت بياضهما وربما القلب الذي تلفه
هذه الأيام بأسرار غيرك. اقشعرت شرايين رأسي، وفجأة تراقص
شكل المرأة الوهمية في زندي. لم أتمالك نفسي من التساؤل، ترى
من هي المرأة التي يمزق مزاجها أضواء غرفك؟ لو كنت أستطيع
الوثوق بك لما عشت في أرق الشك. لم أستطع أن أحيأ بعيداً عنك
دون أن أتمارى بوجه امرأة جديد في أحد أعضائي. كيف يمكن
وأنت تمارس حياة متكافلة نصفها مع امرأة تجلس فوق فراشك،
ونصفها الآخر مع أخرى تقف تحت أضوائك. ترى أبعد ما أعلنته
سافر الخطورة هكذا، هل أعود أم أهاجر، والعودة شأن الهجرة
مرتبكة ومرهقة!

الفصل الثاني

- 1 -

مرّ أسبوع لم أسمع منك . ماذا كانت إذن كل الكلمات؟ أكان فقط يخيّل إليّ؟ مساء اليوم السابع خرج وجهك من نشرة الأخبار المركزية محاطا بوجوه رجال غرباء، لم تقل لي ذات يوم أنّ بعضهم يدخل في قائمة أصدقاؤك المقربين، رجال شرطة الأمن العام. واعتقدتُ، حين داعب طيف فرحة غير متوقعة وجهي أنهم بصدد منحك شهادة مواطنة صالحة. إنّك من أنقذ الحافلة من حقبة الديناميت التي عثرت عليها كل الموجات الهوائية في ذات اللحظة. لكنّ استعادة سريعة لصواب اليوم الأخير أعادت إليّ صوابي. استنتجت ليس بصعوبة شديدة، ولكن بلوعة عميقة أنّهم يوزعون وجهك على المحطات الأرضية والفضائية كي يمنحوك شهادة من نوع جديد.

باحترافات رسمية باهظة التكاليف. بثّت الفضائيات الإسرائيلية بكلّ اللغات أنّك الإسرائيلي الخائن لدولة اليهود. عفوا، الفلسطيني الإسرائيلي المتورط بنقل قبلة بشرية من مفرق الكابري

إلى قلب عكا الجديدة، شارع بن عامي تحديدا. كان من الصعب حينذاك أن أتفادى ضحكة فزت في كفي، وأنا أردد، بن عامي وليس شارع المحرر. أصبحت ناسف بشر محترف دون حاجة لبراهين، في دولة اعترفت، ربّما لأوّل مرّة، بأنك غير الحيوانات الناطقة التي يربّيها مواطنوها في غرف النوم والصالونات الفارهة. كيف عثروا على الدلائل؟ لا أعرف. لم أسمع ما قاله مقدّم النشرة، ولم يكن لدي شك أنهم لا يحتاجون لبراهين أصلا، يملكون من البنود القانونية ما يمكن تطبيقه على كل ظرف وحالة.

كنت مصعوقة من شكل استقبالك الملوكي لعودتي. لقد أجهدت نفسك كثيرا دون شك حتّى اكتسبت هذه الشهرة الفائقة، يا سيّدي، على لسان دولة بل وعالم برمته. غسان صقر يستلم وسام الخائن نمرة واحد من منصة رئيس الحكومة، جنرال صبرا وشاتيلا سابقا. هم يحبّون التسميات البراقة، تفتنهم انعطافاتها. يعتبرونها تطورا نوعيا في قدرات جهاز الأمن العام، وتصنيفه لهوية الأشخاص. لهذه القنابل الإعلامية مفعول السحر على أيّامهم، لأنّها تستطيع أن تملأ شاشتهم بملفات دسمة عن تاريخ الإرهاب. يحيرهم؟ لا خلاف في ذلك، حدّ استعانتهم بأغبياء العالم كي يحدّوا معانيه ومخابئه. وأنت الطّعم الآن يا سيّدي، لذلك غفرت لابتسامتك التي تصرّ على البله.

- 2 -

في أوضاع غير عادية تكتسب التصرفات الخارجة عن العادة مصداقية روحية عالية. سواها قادر على الإساءة لمواقف الأشخاص تجاه قضاياهم. أنت مفتاح الإرهاب النوعي الذي يقلق دولة بأجهزتها المعقدة، ومهما تقل لن يسمعك أحد. همست لنفسي بخشية حقيقية: «بعد ذلك سيقف العشرات خلفك بالدور». موسادهم أقوى من أدوات السياسة الرجعية لقواد السياسة المقاومة في جيتواتنا المنتشرة على طول الخطوط الخضراء والصفراء. هم يخططون وأنت تُتهم. هم يعثرون وأنا أنفقد.

كانت التفاصيل لا تستوقفني مثلما تفعل ابتسامتك اللامبالية. كأنك كنت تؤدّي مشهدا إضافيا عن أحد أفراد طاقم مسرحيتك الجديدة. تعرض مكانه، غاييا، مشهدا حيا من «يوميات فلسطيني عادي». كنت مقتنعة أنك لا تزال محلّقا بالتفاصيل التي زوّدتني بإشكالياتها حول ذلك العمل، ولم أتمكن من بحثها معك قبل سفري. كان يشغلني شوقي الذي يشبّ إلى كرسيك المحروس بشرطين أشقرين ونجوم معدنية كثيرة. أطلع مخطوطة الدهشة الغيبة التي تعكسها ملاحك دون جهد وأزداد انفعالا.

سينمائية كانت الخطوط التي تناثرت في كل مكان من وجهك، لو كنت أعرف أن وجودي يدفع عنها الزمن لتأخرت قليلا، لهذا الحد أقلق غيابي الزمن؟ وربما أقلقك!

«يَهِئُونَ مَرَقِدًا لِلْوَهْمِ فِي مَخَيَّلَتِهِمُ الْمَلْحَقَةَ، وَأَنَا قَدْ أَعِيشُ عَلَى وَهْمٍ كَاذِبٍ شَرَطْتُ أَنْ تَصْبَحَ بَطْلًا مُحْتَمَلًا لِفِيلِمٍ لَمْ تَصُورِ أَجْزَاءَهُ كَامِلَةً». لا توجد أسماء مرشحة لدور هذه البطولة المعقدة سواك! أنت من سيؤدي أدوار الشخصيات ويتقمص ملامحها. يسترجع لحظات فرحها وغيوم ذكرياتها. يكون واحدا بصيغة الجمع، بل الجموع التي لا تصل إلى أي مكان. هذا كل ما كان يعينني في الأمر، فنية اللحظة التي ستنكمش فيها لامبالاتك لصالح تألقك المفاجئ. يحدث دائما للرجال المغمورين أن يكتشفوا شخوصهم النائمة لحظة خروجهم من الحياة. هل محكمة عالمية، أقصد علنية كافية كي أعلن لحظة خروجك الدرامي من حياة ملأت زواياها بالأضواء، أم يخيل إلي فقط؟ هل تخرج أم تدخل؟ لا أعرف لماذا يربكني الحديث عنك هكذا. أأحبك حقاً؟

فكرتُ أن أقنعهم بمنطق امرأة ترى الأشياء بعيون حسّها. جائعة، من عاصمة لا يفكر الحب في أحيائها بصوت عال. لكنني كنت أيضا عاشقة لكل شيء فيك حتى التهمة التي تعبت لحدّ الضحك من أبعادها. كنت ناسفا محترفا حقاً، لكن لأضواء الزوايا المحررة، ليس فقط الغرف المحتلة بالهواجس والخرافة. لا أعلم من أين يأتي الزمن بأمثالك، لكنه فعل. فهل يفهم المعدن أنك ناسف أضواء فقط؟ أنك لا تعرف حتى أين يضعونه كي ينفجر. متأكدة لو أن حامله أخبرك أنه يحمل كيس طحين ستصدّقه دون نقاش

كان يجب ربّما أن يبحث عني أحد كي أفسر لهم شكل الأشباح التي تقتلها في غرفك الرومانسية. وكنتُ سأعترفُ دون ضغوطات، «يحبّ الأضواء أكثر مما يجب البشر. علاقته حسنه بجيرانه اليهود،

لكنهم أحيانا يعلّقون عقله بقيطان حذائه ويجعلونه يرمي كلبهم وبابهم ودرجات بيتهم بالشتائم. صامت جدا، حتى يثيره أداء غير مدروس لأحد المرتجلين الهواة، صوتا نسائيا سيئا يجرب الغناء، لحم العجل الفاسد منتف أمام شقته. كان لا يحتمل رؤيته متناثرا أمام الباب. أتذكر الآن، حين رأى قطعة ملتصقة بسكرة بابه أصيب بالغثيان. كنت من أنقذه بطائرة ورقية لمحته من السماء، فكيف يمكن أن يحتمل التصاق اللحم الميت بسقف حلقه وجدران قلبه؟ من ينقذه من الجنون لو عثر على نفسه وحيدا؟»

سيستاءلون يا سيدي، وقد أكون من حظّ المحطات الفضائية التي تهجم على قاعات المحكمة ساعة كاملة قبل تمديد اعتقالك. هل حظي رئيس حكومة بما تحظى به أنت؟ وأنا، إذا صدّقوا أنني متورطة بالديناميت الذي شحنته من والى.. أنه يعلق في قلبي مثلا، ويعمي بصيرته. لكن كيف قدت منتحرا وحقية وأنت بدون رخصة قيادة؟ هذه هي الإشكالية المربكة. كيف لم يذكر أحد أن أوراقك مسحوبة كلسانك وضحكتك؟ جائز، هذه المرأة غير المنونة هي من سيشكل قضيتك بالأدلة المنسية.

التاسع والعشرون من أغسطس، اليوم الذي سأذكر فيه نفسي أجتاز القاعة الواسعة أمام دهشة القضاة والشهود وأمشي بثقة لن تصدقها. ستسقط ابتسامتك المدبسة بين شفتيك، ربما، وتصرخ خلف النجوم المعدنية، «أنت، أيتها المجنونة، ماذا أتى بك؟» وأعثر على قلبي يدق في دهشة وجهك، يلمّ لهفته من فمك إلى ما تحت أنسجته. أنت من أتى بعاصمة تحلم إلى عاصمة تقتل الحلم. قد تكتب قليلا، وتساءل، أما زلتِ تحلمين؟ وسأفاجئك، كي

تجبل المدينة بغرفة تنشر أضواءك المحرمة عليها. وقد لا تقول شيئاً
وتتابعني أتقدم بثقة إلى القضاة وتدبّس لامبالاتك بأكام فستاني
الأسود وأنت تسمعي أفصح عن تفاصيل لقائي الأخير بك قبل
السفر كي أنقذك!

- 3 -

هذا الرجل كان معي، نام على ركبتي في عرض البحر. تحدثنا عن
مشاريعه الانتحارية، أقصد أفلامه المستقبلية. وزعنا الديناميت في
زوايا المدينة، أقصد الأضواء، وقررنا عدد القتلى بالانفجار، يعني يا
سعادة القاضي، المعجبين بالأدوار. أنا من جاب شوارعه المحررة،
هو لا يقود سيارة أو قطارا، ورخص وجوده كلها مصادرة ما عدا
الأضواء. مركبة فضائية للأطفال، خاصة ابنته الصغيرة وسيلة
النقل الوحيدة التي يخلق فيها داخل البيت. يجرؤ على قيادتها دون
أن يخشى كاميرات شرطة السير، هكذا فوق أثاث البيت، أرفع
يدي بحركات متموجة كأنني أقود مركبة حقيقية. فكيف تسقطون
إدانات ملفقة لا تأتي بها الأبالسة؟ وسأكون سعيدة بأمر إيقافي إلى
جانبك.

لن أصمت كما تفعل، بل سأجنن كاميرات الصحافة الغربية
خصوصا بإغواءاتي الجانية. وقد أخرج من هذه المحاكمة بمواهب
لم أعرفها عن نفسي. لنظراتي الجانية أثر على الأشياء، ليس أقلها
عليك، هذا ما أعتقد على الأقل. دعني أعتقد عن سحري على

لسان انبهارك في ذلك اليوم القائظ من يوليو. لم تحرك فيه رمشا أو حاجبا بل سيجارة عصبية لم تنطفئ حركت كل شيء حتى أفكار العداية عن الرجال. كيف حدث أن غزوت جوانحي خلال دقائق هاجمتها أجواء الفن المكتتب؟ أحاطنا إغماء ليس أسود تماما، أنها يتأرجح بين الأسود والرمادي مسحوقا بالأزرق الحالم، ربما لون السماء الذي جاء يتجسس على غريبين لا يستضيئان بشمسها. أذكر أنني رفضت الضوء الذي عرضت عليّ إشعاله. قلت كي أستفرك، ألا تكفي الأضواء التي اشتعلت حين دخلت؟ لم أستفرك، علقتُ بابتسامة ذابت على عجل تحت شفتك المتضامنة مع الكأبة.

- 4 -

كلما رجعت إلى اللحظة الفاصلة في تاريخ لقائي بك أكتب، كيف لم أنجذب لخلاف الشمعتين المتقدتين مكان عينيك. كيف لم افتتن بخلاف الضوءين الكابين؟ أهى القوة التي تتزع الإرادة غصبا من الذات. أم أنها الطفولة التي تحتضن الرغبة مثل قرنيطة على زهرتها وتستولي هكذا بمحبة عليها؟

لم يأخذ الرجال خلال عمر طويل ما سببته أنت بلحظة. هل جئت بذئبية الصقيع تلك من بلاد الثلوج، كي توظف شهوة النساء الساكته؟ أهذا ما ألقته في حقائبك شوارعها، موسكو الباردة؟ أمّا أنت فلم تلق في قلبي خلاف شهوة تتأجج كلما هفت نسمة وأذكت لون عينيك العسليتين.

الحقيقة، لم أكن أعرف أن للعسل هذا المذاق المر عند آخره. أنت من أفهمني أن المرارة يجب أن تتخلل الأشياء ليظل لها نكهة. هل كانت إذن نكهة اليوم الذي قررت أن أكون شاهدة كذلك؟ البراءة لا تحتاج لأوّل مساء كي يشهد على مرارتها في الفم؟ كلّ الأوقات جاهزة وجائزة. أكذب لو ادّعت أنني هيأت ظروفًا فنية كي أمسرح دوري في قاعة المحكمة، لكن قد أعترف أن غيري أدلى بمثل هذه الاعترافات الغبية قبلي. غبية لأنها، وخلافًا لما اعتقدت، أبقت ابتسامتك اللامبالية متأرجحة على لعب الشهود والقضاة، كأن الجلسة لرجل لا تعرفه. فاجأت الجميع حين ضحكت بشدة. بعد صدور الحكم جلجلت ضحكة سائبة بين الجدران، ضحكك. ويبدو فهمت أن الحفلات الإعلامية انتهت، وأن الوجوه التي سترها الأعوام الخمسة القادمة سوف تكون لوجوه بلا قسّات، سيخيّل إليك أنها تخرج من الجدران.

- 5 -

ولست أفهم كيف أدنت بتلك السهولة، رغم أنَّها بدت دلائل هشة وواهية. سيارتك في مكان وأنت في مكان آخر. والحقية الوهمية عشروا عليها، لا أعرف كيف، تحت ملابسك. قبل أن يعلنوا هذه الحقائق المفبركة لم أرك تحفل بحقية أحد، وأوراقك كانت لها قبضتا يديك، تصنع منها نواظير ترى من فتحاتها الضيقة الحياة. هذا كل ما عرفته عن علاقتك بالحقائب. كان يحمل أضواءه في أعضائه لثلا تفاجئه الجموع بمشاهد مباغته. أردت أن أسجل في الملحق السياسي، فاكشفت أنني أكتب أدبا ولا أسجل وقائع صحافية، لذلك صمت صمتا طويلا.

الغريب فيما حصل أنك بقيت تعيش الأيام معي. وكل يوم أنتظر أن تتذكر بيتي في شارع غير المحرر كي تفاجئ الصباح. كل يوم كل يوم أقرأ الجريدة كي أعثر على صورتك، ربما، صورة مسروقة من حبسك الانفرادي. خبر هامشي، أو أي شيء ينقذ الأيام التي لا تمضي بدونك. لا شيء غير ثروة الجيران في القرية. قررت أن أمضي يوما كاملا أنتقل من جارة لأخرى كي ألملم نفث أخبار عنك، لديهم دائما ما يقولونه أو يؤلفونه أمام امرأة مشكوك بأمر اهتمامها بالسجين الأمني الذي يخصهم. لكن بنظرة قصيرة إلى الورا أفهم كم استغرقت بالتفاهة والخفة، لماذا أتبع أخبارك على هذا النحو المستيري، ولست أكثر من امرأة عابرة؟ لماذا أتعقبك كظل يمشي تحت الشمس حتى لا تراه؟ هذه هي الحقيقة، لست

أكثر من هاوية للغرف الحاملة، هاتفتك وكلمتها. هاتفتها والتفتها. تحدثتا عن البحر والنوارس ومشروع حكاية لا زالت تلملم أذيالها عن الورق. صارحتك مصارحة المراهقين على باب سيارة وسافرت. اقتسمت مع امرأة أخرى تحرس أطفالا في مطبخك. وحين عادت مفزوعة الولاء إليك وجدتك متورطا بمشروع خيانة. ليس مع امرأة عادية يمكن أن تعاركها وتنتصر عليها، إنما مع امرأة وقحة اسمها دولة. تقتل كل الدول، تزدرين وتسخر من لباسهن وحضارتهن، تنهب حقولهن، تحصد نجيلهن وتعلف من برسيمهن، بشرها ودوابها ولا ترفع واحدة حلقة كي تحتج.

امرأة اسمها دولة أو دولة اسمها امرأة، هل يهم من يتصدر مضامين الآخر ما دامت التاء الرابطة تفصل في الأمر؟ كل التاءات، يا سيدي بها ولها، فمتى إذن أنسلخ كي أقرر تبعيتي؟ أنا أريدك، وهذه المرأة لن تفهم حاجتي الملحة. لقد هيأت جحرا على مقاسك، حقيبتك التي أتت بها زوجتك وكتبك. مرة أخرى زوجتك، أجل قالت لي جارتكم أن هذه الأشياء هي كل ما سمح بإدخاله، لأنها كل ما يمكن أن يستوعبه جحر الفئران الذي دفعوك إليه، وأضافت أنها لا تعرف إذا كانوا في دول أقل بطشا وإرهابا يوفرون شروطا أفضل للسجناء الأمنيين. لا أذكر تماما كل ما قالت، لكنها أشارت بيدها إلى رزنامة السنة وبكت.

لا أذكر تماما ما قالت، لكنها أشارت بيدها إلى رزنامة السنة وهي ترشف من فنجان القهوة، «جعلوه رقما، رقم ٢١». قالت زوجته، حين ذهبت لزيارته لم ينادوه باسمه، بل نادوا عبر مكبر الصوت رقما فخرج إليها. في البداية اعتقدت أنهم يذكرونها برقم الشارع

الذي يقطنه حتى فسّر لها معنى ما قالوا بلغتها.
عصّت شفتها، وأصافت، هو كل ما تعرفه من تلك اللغة العفنة.
قلت كي أسكتها: «سيأخذونك أنت أيضا إلى زنزانة مشابهة إذا
فرطت معجم بغضك لهم في كل مكان».

سجين أمني، سمّوك، كيف صدّقوا أن رجلا يخاف من شفرة
الحلاقة يمكن أن يقتل؟ وكيف يمكن لإرهابي أن يخاف من قتل
شعر ذقنه؟ لم يتزود بخلاف أقلام وكتب وأوراق. سألت نفسي
ألف مرة لماذا لا أذهب إليه لأراه من بعيد، بعد أن يذكروا رقمه
ويخرج. سأجعله يلوح ظلا يحدّق فيه من بعيد ويهرب. أوشكت
أن أفعل حتى انهزت أمام التعريف الذي سأقدّم به نفسي، ماذا
أقول لسجاني، أعشيقه لا تفهم الأيام بدون ضحك الصباحي
ولامبالاته؟ حين هجم المنطق عليّ ولمحت خلفه زوجته ذائبا
كبريائي تحت قدميها تأكدت أنني امرأة عابرة فقط. لا تعريف أشد
رفعة من هذا.

هل أبث ثانية، وغيايا يومياتي القصيرة إليك؟ ماذا أكتب وأنا أعرف
أن شوارع السجون ليست كشوارع المدن. لا تستعين بساعي بريد،
ولا تصنّف رسائل، وأنها تأخذ كل المغلفات عادية ومستعجلة إلى
عنوان واحد هو مكتب مدير السجون؟ وأن حميمة الكلمات تبرد
بين الدهاليز المعتمة والممرات الطويلة. وأنها أن وصلت فبعد أن
يُنزع رحيقها ويحنّط دمعها.

لن أنشغل بيوميات مسافاتها كيلومترات تُعدّ على أصابع اليد
الواحدة. بماذا ستشعر وأنت تقرأني مهزومة أمام فقدي ومقهورة
بعده شوارع فرعية عمرها عشر عمر الاحتلال، لكن بكاف ملتفة

حول ذاتها. معقوفة على شكل حلزونة تضحك للسماء.
أمشي بخطوات مترددة إلى رزنامة السنة الجديدة، بين المطبخ وغرفة
العمل وأمحو بقلم الرصاص يوم الغد كأنني متأكدة أنه سيجيء
وأنا ممتلئة بالحياة.

الفصل الثالث

1

السنة الثالثة كانت أقسى السنوات. فكرتُ بك أكثر مما اعتقدت. لم يؤد البعاد إلى النسيان الذي انتظرته، إنما كنت أستعيدك على مهل، وأعدّ الساعات عن الزمن. ولا أستوعب فكرة أنك أصبحت وحيدا تماما. شبه أرمل بعد قرار زوجتك الانفصال، انفصال لم أطلع على شروطه. خلال أيام تركتُ مع الولدين مطار بن غوريون وشعبه. كان واضحا أنها كرهت الحياة في مدن تتغذى من القتل، ويوثق العنف علاقات أناسها. بدأت تخاف أيضا من وحدتها. ربما كنت أنت من يستبقوها، وخلال السنوات السابقة لم يجلس في عينيها رجل غيرك. من الصعب أن يصدق من تعرّف إلى حياتكما معا أنها تذهب بدونك ولا تعود. لكنك كنت مستسلما لكل شيء ولا زالت لامبالتك أداة حوارك الوحيدة مع زوّارك، وزوجتك واحدة منهم.

بعد سفرها بأيام قليلة رأيته للمرة الأولى على الشاشة منذ تاريخ سجنك. كنت الرجل الأشهر في تاريخ الدولة. وعلى عادة الإعلام الإسرائيلي في صناعة الضجيج تقدّمت إطلالتك السينائية مقتطفات قصيرة من زاوية عينك الحادة، وأقدامك التي مشّت

عن سبق إصرار إلى الجريمة. أفلتت إلى الشاشة مثل قطع كلاب
جائعة مرّة بعد مرّة. جائز ما يزيد على خمس عشرة مرّة في اليوم
طوال أسبوع كامل، ومصحوبة بمقتطفات مأخوذة على لسانك،
لامعة داخل مستطيلات سوداء متلاحقة، كانوا يكتشفون بك
زوايا مغفلة في دراما القرن الجديد. لم يشر أحد إلى مواهبك. كأنك
لم تكن صاحب حلم سحر مهرجانات الدولة في الفترة الأخيرة.
لكنّ موهبة مستحدثة واحدة لم يغفلها أحد، وتناقلتها صحافة
الأسبوع، تعاونك مع المنتحرين في الحافلات الإسرائيلية. ذهلت
حين كشفوا النقاب عن ملف حافل بالأوراق والدلائل. من
أين أتوا بهذا الكلام الدسم. كيف انتفخت أوراقهم بكل غريب
وجديد. من يكرهك يا سيّدي الجميل إلى هذا الحد. لو يأخذوا
عيوني كي يروك بها لسجنوا الملفات مكانك، وأحدثوا انقلابا
لمفاهيم القانون عن الإرهاب.

الورق هو من خان وليس أنت. هو من تأمر وقتل. وهذه الأوراق
اللئيمة هي من سيمسرح الجريمة من أولها ويعترف بخططه
ودواهيته. هل يسمعون أقوالي هل يقنعهم شططي؟ لا أعرف
إذا كان الفلسطيني هنا محسوبا على دولتهم كإنسان. بقلب يبكي
ويضحك وحس يتألم ويفرح. لم أشعر لحظة واحدة أنني داخل
تعريف المواطنة التي منحوها لنا منذ رفعنا الأعلام البيضاء، ولا
أنت. وبطاقتي الزرقاء لم يقرّوها على الحدود دون أن يصنفوني
ضمن خلية الإرهاب التي يدرسون أوصافها وفق معايير مفترضة
عن أشياء ثلاثة: القومية، الدين، واللون. يسجلون المعطيات ثم
يقررون وسيلة الاستنزاف، وأنت، ألم تقل أنّهم ذبحوك على حدود

المغادرة بسكاكين عصرية وضحكت؟ ثم أضفت: «هتكوها بهالمطار، كأن دولتهم وحدها من تملك مطارا».

في المطار يفعلون كل شيء ولا يعترفون بشيء. وعلى جسر وادي عربية، جسر السلام الحداثي مع العرب يفعلون ويتفاعلون معا، وبكل شيء.

قلتُ لك، بعد عودتي من ألاسكا قبل سنوات أن قيامه الدولة قامت. سمعتهم يتساءلون خلف فنجان القهوة الذي قدّموه لي كعربون أولي عن الساعات التي سأقضيها، وعن طيب خاطر، مع جهاز استخباراتهم. ماذا تفعل عربية في ألاسكا؟ لم يقولوا فلسطينية، ولم يقتنعوا أن العربي يحتاج أن يشم هواء أشد نقاء من فضاءات علب السجائر التي يكبس فيها عقد نقصه واكتماله، وأنه مثل الجراء والقطط يحب أن يضيع في مدن لا تشبه مدنه. وربما ياسيدي كالذئب يحب أن يعوي في حقول غيره ويرعى كالأغنام كلاً من مروجها.

على الحدود كنت دائماً الفأر الأجرب الذي يخوض جميع التجارب الوجودية كي يحظى برقم المرور الأخضر. لم تزعجني الاستثمارات التي عبّوها ألف مرة في كل مرة عدت أو ذهبت، كما فعلت تلك السلال الغريبة التي أفرغوا فيها كل شيء. الجرابات في سلة، الكنادر في سلة، الملابس التحتية في سلة أخرى. الملابس الفوقية في سلة إضافية. حمالات النهدة، الشلحات. البلايز، الشورتات في سلال أكبر. البليزرات في سلة أخرى بحجم خابية. كل قطعة مفصل على مقاسها سلة. من أين يأتون بهذا الكم الهائل من السلال ويقسمونها على عرب الدولة الوافدين والمسافرين؟ نظرتُ بحقد

إلى السلال الحمراء تحديدا لأنها طغت على ماعداها، وتساءلت. لقد كانت هاجسي الوحيد. أزعجني هذا العزل المقصود للملابس الداخلية عن بعضها شأن بدلات الجسد الأخرى. حين ضقت ذرعا من إصرارهم على فصل الأدوات الكهربائية الكبيرة عن الصغرى اتهمتهم بالعنصرية والفصل العرقي. هل خافوا أن تتآمر قطع الملابس على ذبذبات النايلون الذي يمشي في بطانتها، وتعلن عصيانا مدنيا واسع النطاق؟ أمام أعرض الأكتاف التي أميّزها من الأكتاف المنتشرة بين الأمتعة أخوض في كل سفرة غمار تظاهرة فردية بشعة. هكذا أخلّص عروبتى وفروة الفأر التي أكسو بها ظهري من التنف.

سألت، حين رأيتني حائلة اللون ذلك اليوم القائظ، فيما إذا كنت أخاف المعابر لحد الألم. لم أفهم سبب السؤال، لكنني أجبته بطريقة فاجأتني ليس أقل مما فاجأتك، أنه ليس الألم تماما بقدر ما هو التهديد بالألم. ثم حاولت أن أتأكد من فهمك للأزمة التي تتصلب في كل عضو من أعضائي. تهيؤا الموقف من قبيل ملاكمة في حلبة فركتُ أقدامى ببعضها مسافة ليل بطول كوايسه.

قلت لك حين أعياني إحساسي بانقطاعي عنك إلى معبر باتساع ضياع أني، ذات يوم تمنيت أن أصبح ذبابة كي أجتاز الحواجز دون تفتيش بعد أن ألقي بصاقي السام في عيونهم. ضحكت ثانية حتى اعتقدتُ أن مقاهي موسكو لم تعج بالشتائم بعد كل مغادرة لك من مطار بن غوريون الدولي.

— 2 —

يوم احتفال الشاشة الصغيرة بانكشافك الدراماتيكي كان يوم خميس، آخر يوم قبل عطلة آخر الأسبوع. لا أعرف لماذا استولاني هذا الإحساس، لكنني كنت شبه متأكدة أن حركة الدولة ستتوقف عند صوتك وصورتك. وسائل النقل بما فيها قطار تل أبيب والحافلة رقم ٣٦١ الآتية من مفرق الكابري باتجاه عكا، وتقطع شارعك المحرر تحديداً.

اقتادوا صوتك المرتعش، من شدة السخرية ربما، ثم ألقوا الضوء فجأة على شعرك اللامع، وأطلقوه مباشرة في عينيك. كنت لا تزال تبسم غير آبه بما يدور حولك، بالمصورين المنحنين تحت قامتك العالية، بمكبرات الصوت التي تزامم منافذ الهواء الذي يستنجد بك، بالخشود المتظاهرة خارج القاعة المنادية دون خجل: «الموت للعرب». من شكل انقباض أسنانك على سيجارة البارلمنت فهمت أنك تحتقر من يحيطك، وأن تلك السيجارة إشارة ارتباطك الوحيدة بالحياة التي يقدمونها إليك على شاشة تحتضن العالم.

هل فكرت مثلاً باليوم الذي سيأتي بعد لحظات الكاريزما المعلنة على من أخذوا دورك وراء الكاميرات؟ لا أعرف. كان يشغلني اليوم الذي ستستيقظ ولا تجد الكاميرا إلى جانب السرير، والأضواء قد تسربت من قلبك وحذائك. فارغا حتى من لحظة المجد الكاذب.

غرتُ من العروض التي استدرجوك بها كي تعترف بما لم تنفذه. لم يتغير فيك شيء، الابتسامة اللامبالية ذاتها تبيست على شفتيك وتقدمتك إلى القاعة. كانت إطلائتك الدراماتيكية عيداً للدولة. عيد لم يزدك غير لا مبالاة واستخفاف بأجهزتهم، بمكبرات صوته. بدولتهم، كأنها لم تكن دولتك. كانت أصوات تظاهرة المتطرفين في الخارج تؤمك أكثر من السلاسل الملتفة حول قدميك. تنادوا من كل صوب، واستنجدت بتلك السيجارة، انطفأت واشتعلت أكثر من سبعين مرة. تنظر إلى الضجيج تسمعه ولا تسمعه. حين يعيد المحاور سؤاله تتجاهله. لم تجب عن الأسئلة، هم سألوا وأجابوا.

بماذا تجب وأنت لا تعرف؟ لكنك أذهلتهم حين أسقطت ابتسامتك اللامبالية وانتعلت اتهامهم، ألم تعثروا على رجل تتهموه أشد حنكة مني؟ بعد ذلك، كانت تعابير وجهك وأصوات السلاسل في قدميك تهدئ من روع الهرولة خلفك كلما استدرت أو مشيت. لم تبال بالصحافة التي ملأت الزوايا.

كنتُ كلما رأيت كبرياءك يطلُّ خلف قامتك العالية، وهو يزدري الكاميرات الموجهة إليك بألف فم أحبيتك بمليون قلب. ركعت أصوات المحاورين بعد ذلك، لم ينجحوا بانتزاعك من الأضواء التي تخبئ جزءاً منها في قلبك. هي من يستبقيك برغم مشاهد الذل التي تحترق في روحك. هل كنت تغار من العدسات التي كنت تصوبها على كل شيء يتحرك، وهم يطلقونها عليك؟

ماذا تريد، يصنعون منك نجماً دون مقابل. كأنهم لا يفهمون أن الابتسامة اللامبالية تحتقرهم جداً وتشمئز من تعريفاتهم المتناقضة

لكل من يحمل كلاشنكوف أو يفجر قبلة. واعتقدت، ربما لو كنت تملك قبلة في حدائك مثلا لانفجرت بها. كنت إرهابيا من نوع لم تحتفل به الصحافة على هذا النحو اللافت من قبل، وربما لم يعرفوا أنهم يشعلونك حول مآذبة إعلامية واسعة. يطفئون سجائر حقدهم في وجهك، ويسلطون الأضواء على مقاطع وجهك بزوايا فنية نادرة. أصبح أنني لم أكتشفك كرازماتيكيا لهذا الحد قبلهم، لقد سحرت نساء القاعة وقفزت أضرار نهودهن، حتى سمعت إحدى الفاتنات تهمس، لو أمكن أن تستولي عليك لليلة واحدة.

فجأة قفزت من مكاني فوق الأريكة، ومسحت خطوط الدمع الذي محاقسمات وجهي وصرخت، وأنا؟ أجل كنت أغار بدون حدود ممن يقترب منك. لا شعوريا تذكرت الصبية الجميلة التي ساعدتك في توزيع الغار على الغرف المعتمدة، كيف قبلتها أمامي وكيف تشنجت بعد قبلتك شفاهي ولم تعرف أن تستعيد ابتسامة الوجد الأولى بك. هل فهمت أنني لم أنجح في استعادة وجهي لأني بدأت أحبك؟ هل كانت النظرات التي اغرورقت في محجريك أمام ما جرى إشارة اعتراف خفية إلى أنك تفهم ما أحسه، أم أنك كنت تضللني بدور تؤديه عن أحد الرجال الذين طاردوني كي تختبر أثره علي؟. كان واضحا لي تماما أنني لم أفهم الحب كما يجب على طريقتك.

لأكثر من نصف ساعة وسؤال أخير يتعلق بفم الكاميرا ولا مبالاة. «اعترف، لماذا لا تفعل؟ حدد الفريسة الجديدة التي كانت معك» همستُ بسخرية: ماذا يفعلون في الغد إذا اختفت وجوه مثل وجهك. يا سيدي، هذه دولة تحب أن يقال فعلوا بشعبها ولم تفعل.

— 3 —

بدأت أستحثك: «قل أي اسم يخطر ببالك ، ولا تحزن سيتولون من بعدك كل شيء». لكنك لم تتهم أحدا، كانت أمامك الجدران تدفعك إلى رميها بأي سهم. فقدوا الأمل من أقوالك، لم يعجب كلامك الصامت جهاز مخبرات ثرثار يملئ على الصحافة شكل تحرير أخبارها.

بقيتُ أصدق بكَ كأنني أراك لأول مرة على هيئة إله. كنت مفتونة بالآلهة التي تتقاسم الأجساد مع البشر، وأقرأ بنهم ولادة فينوس وزيوس. وأصدق كل ما يقال عن هرقل وأخيل. هل كنت حين تحصنت في كبريائك أحد أولئك الغامضين؟ لم يفهم أحد معنى تملكك خلال الخمس دقائق الأخيرة غير البعوضة التي لاحقتها كاميرا إحدى الفضائيات كي تقبض عليها. دخلتُ من حيث لم يلق أحد بالآ إليها، ولا ضابط الأمن كي تفرج عن وضعيتك المثيرة للجدل.

عند هذه اللحظة الدرامية، التي تقاطلت فيها الدلالة مع العلامة عتَموا على وجهك بمشهد «كلوز» احتل شاشات اليمين واليسار من أقصاها إلى أقصاها. كيف يمكن أن تتهم دولة تعكس أزمة المتحرين والمتواطئين معهم حدّ منحهم ظهورا علنيا على شاشة عالم وتركهم يمجون سجاثرهم بتلك الوقاحة أو الشجاعة، دولة مكّمة للأفواه؟ ترى لماذا أطلقوا تشريعات حقوق الإنسان على غاربها في ذلك اليوم؟ لماذا غنيت مساء طويلا دون صوت

وسمعوا أغانيك بترو وصبر؟ هل توقعوا أنك ستفز آخر الأمر
شأن شخصياتك المأزومة كي تشن حرباً قصيرة على اليهود ثم تدع
سجائرك تبتلعك؟

لو أنهم عرفوا أنك غنيت بعض أناشيد عيد الاستقلال لحظات
تمزقك الصامت، كما كنت تفعل أمام الجوقة المدرسية، ربما كانوا
غفروا لك. أنا الآن من يسألك: هل حقاً أنشدت «بعيد استقلال
بلادي سمعت الدنيا بتنادي؟»، النشيد الذي سخرت به من
وطنتنا العالية كلما عدت إلى صباك، أم أنه فقط خيل إلي؟

4

صباح اليوم التالي رأتك دولة كبيرة. أطلت على منامات شعب
ملاحق بأخبارك. تنازلت عنها قراؤها هرباً من شبح ابتسامتك.
كنت مشغولة بأخبارك. نهاية الأسبوع صنعت كومة من الجرائد
وفتشت عن ردود القراء. لم يحب ظني، جنت الشعب أيها
الوحش! أخذت منه انسحاره بإطلالة زعمائه ومغنيه. غنيت عنهم
جميعاً أغان لم تطرب مواطنا عاقلاً واحداً. المجانين فقط لبسوا
العقال العربي وحشدوا الشوارع بتظاهرات دعت بإصرار إلى
رمي العرب في البحر. المكان الذي سيخيفهم مدى الحياة لسبب لم
أجتهد في تفسيره. هل تفهم من أقصد حين أذكر القبائل المجنونة
التي تعيش في كل مكان وتنجب في كل مكان. وتأخذ من كل
وطن سماء؟

تعذبت بصمت. تقدمت من الشاشة الخالية وتحسستك المساحة

التي أطرت وجهك، احتلتها وجوه المحللين السياسيين. هؤلاء لا أحبهم، فلكل منهم ملف ذريع الفشل في شرطة الأحوال الشخصية. وقد اعتقدت دائماً أنهم يسقطون أزمات عالمهم الصغير في عاصفة السياسة كي يضيّعوا الفروقات بين العقدة الشخصية والأزمة القومية ويُنجّوا أنفسهم من تكبّيت الضمير. تلاشيتُ ككل المرات التي حاولتُ أن أمسك بك ولم أملك ما يكفي من جرأة. الحقيقة كنت من حق غيري، تمنيت أن أدوس على ضميري على خطأ كي أرهن شفتي لفمك صدفة، تشوّقت لحد الألم وكنت تعرف. تعرف وتنتظر أن أمزّق أشرعتي وأمهدها سريراً لارتظام مجنون بموج لا يفهم حداً للإيلام. كان يجب أن أتحمل عاقبة اندفاعي دون تدمر، هكذا أصير امرأة النساء.

أَكُنْتُ سَرّاً أسعى إلى ذلك اللقب كي أتجاوزك، أم أنها تصوراتك اللاواعية لما تنتظره مني؟ هل تذكر، أم أنّي سأذكرك بأحد الصباحات البعيدة حين هانفتني، وقلت دون مقدمات:

- رأيتك في الحلم.. جسدتِ دوراً أيروتياً يسوّح الجنون.
- غريب، هل من عادتك أن تحلم بالشخصية قبل أن تسند إليها الدور؟

- من أخبرك أن في نيتي إسناد دور لك؟
- استنتجت وحدي، ستندم يا سيدي، إذا لم تفعل. علّقتُ بدعابة.
- فليكن، سأندم، هل جنت حتى أفعل؟ وجودك يا سيدي، (قالها مقلداً أسلوب تهجّتي للكلمة) سيدمر كل شيء.
- أنت حر.

- طبعاً، هل في ذلك شك؟

-لكن قلّي، (همست بغباء مقصود) مع أيّ الرجال أديت ذلك الدور الصعب؟
 -أمتنع عن الإجابة، (وضحكت ضحكة طويلة واضحة المقاطع).
 -ليس جديداً عليّ أنّك جبان.
 لم تجب، لكنني فهمت خشيتك من عواقب الاعتراف. كنت رجلاً محنكاً. وهل تعرف، تأكدت ربما، من أجل ذلك أصبحت مسيساً أضعاء.

_ 5 _

دائماً بحثتُ عن وسيلة لضبطك متلبساً بنواياك، ودائماً يا سيدي، خيبتُ ثقتي بذكائي. حين أعود إلى قناعاتي أزداد انخلاً بشكل الرجلولة التي أتيت بها أو أتت بك. لا تسلّم نفسها لغير محققين هاوئين. ربما كنتَ على يقين أنني أشبهك في مناورة القضايا العالقة لتظل نقياً من الشبهة. كرهتُ نحويات العائد من والى. كرهتُ البذل والحال وأخافتك المؤولات، كأنك تحاشيت أن تؤوّل إلى مصدر لا تؤمن به. هل صدفة أن يكون رفضك لهذه المسميات غير الواضحة متجانساً لحد بعيد مع المتشبهات التي تلقيها على أشيائك وشخصياتك في تلك الغرف الصامتة؟ لن تحيب على عاداتك حين تقتحمك الأسئلة، لكنها الحقيقة، فنّك لم يعرف إجابات تأخذه دون جدل لحبل مشنقة.

— 6 —

سنتان غير الأيام الباقية من هذه السنة الكئيبة. ماذا أفعل كي نبقي أنا وهي على قيد الحياة؟ يا صاحب الحياة والممات، كيف أخذت مني فرح تلك السنوات؟ لم أراجع اندفاعي اللاواعي خلف أنفاس القطيعة. كان يُحِيل إليّ فقط أنّ اختفاءك بؤرة لارتداد الضوء والعتمة، وسببا في دمار لحظات لن تعاش. ترى لماذا تصبح الحياة بك لهذا الحدّ دافئة؟ منذ الآن، همست لنفسي وأنا أتعباً بطيفك كما يتعباً مخلوق بخالقه، سأسجل يوميّات أو مكاتيب تذكرك حين أذهب وتبقى أنني أحببتك حبّ عبادة.

نسيْتُ وأنا أعلن هذا القسم الاستنكاري أنّ جينا الشقراء تقف بيني وبينك. ولا أعرف لماذا تجاهلتها للمرّة الأولى دون إحساس معرّف بالذنب. لم تكن لديّ رغبة في النفي وحسب بل وإصرار على الإلغاء.

حب

__1__

يقراءون الحب على وجه المرأة العاشقة مكان مستحضرات الزينة.
يوجد ألق غامض اللون يتماهى في وجوه الناس، وأكمام قمصانهم.
هل أشكرك على فتنة القلب التي ألقيتها علي أم أعاتبك على أنك
تحرّضني بحميمية لا تقاوم على اقتسامك مع امرأة أخرى؟ لم
أعرف هذا النوع المتوحش من التوحد قبل أن أعرفك. ألك
أساءل دون توقف عن الشيطان الذي دفعني إليك؟ ودون توقف
ألوم قلبي؛ لأنه يخفق بشوقه لانحناءة السيجارة في فمك، وتمسح
رمادها بشفتيك؟

— 2 —

هذا الصباح ، السابع عشر من سبتمبر للسنة الثالثة على إرهابك .
الهاتف عاطل عن الرقص . والقهوة لم تعد مكانها على الرف .
أهملتها بعدك . في طريقي إلى القهوة القريبة أحسستك تتقمص
روحي . قرأك الرجال والنساء ، كل الرجال والنساء على قطع
جسدي . فتشوا عن ملاحك في تقاسيم وجهي ، من أعلى الجبين
وحتى أسفل العنق . كان اسمك يكتب حروفه بحرارة تحرق
الأعصاب دون مشقة . ترى هل عرفوا أنني متورطة برجل يحتال
على دولة بحقائق تتفجر بمجرد أن يتنفس بها عابر؟ أنني أعشق
سجينا أمنيًا اختصروا فلسفة سارتر وأشبهنوا في وجوده برقم من
مقطعين يشبهان الكلمات التي يقطعون بزواياها وجهي؟ شربي
للقهوة لم يمنع من يلمحني من مواصلة التحديق فيّ . خفتُ من
العين أن تضرب مقبض القهوة وتسكبها على ملابسي .

«أحبك جدًا» ، هذا ما أردت أن أهمس للعالم الذي حولي ، ولك ،
يا سيدي لو أمكن أن يصل همسي إليك في زنزانتك البعيدة . لا ،
أسفة ، التي تفصلها عني بضعة شوارع فرعية وشارع رئيس واحد .
لا أجرؤ على تجاوزها بحمار ولا بدراجة هوائية ، ولا بأي وسيلة
نقل حديثة . المجيء إليك يحتاج إلى طقوس أخرى لم يضعوها في
سجلات الدولة الرسمية ، لكنها لدهشتك وعجبي مسجلة في

تعويضات العشق.

جب أن أترين أولاً بعقدي الخرزى، وخواتم الفضة التي أهديت لأصابعي. أن أمسح عيوني بالانهار، وجهي بهاء الورد وشفاهي بزيت القندول. يقال أنه غير الزيوت المستنبته من ورق الزهر، تطري الشفاء تماماً وما حولها. وطقوس النساء في تحويل نظام العشق تؤذي ذوق السجانين، وتقلب نظام الأيام المقفلة، لأنها تضربهم في المقتل. هل تصدق؟ لا إناث للسجون، يوجد نساء مسترجلات لا يلجمن نار الشهوة. لذلك حين يستقبلون فنساء عاطلة عن الزينة، بلا أنوثة. لا يمتلكن موروثات قديمة، ولا افتراضات حديثة في مقبلات الإغراء.

كيف تعيش إذن في سجن لا تسكنه أضواء؟ هل أفهم مثلاً أنك تستضيء بي. تعلّق صورتي على الجدار الوحيد وأنا أحلّق فوق الغيم، أم صورة زوجتك وهي تغرق تحت الماء؟ «جينيا تحب السباحة، تحب كل ما هو مشوّش وشفاف»، قلت، ثم أضفت: «لا تخطئي، ليس الموج الذي يعيش في دماغك، بل العالم الذي يجلس خلف المرئيات» ضحكت على عادتك.

غلى الدّم في وجنتيّ قبل أن أفاجئك، «لكن السمك هناك يجب لحم النساء، ألا تخاف عليها منه». استطعت أن تلخمني حين همست: «إذا أكلها السمك فسوف أحب جينيا أخرى». ترى أحيان تنازلت عنها بتلك السهولة، تملّكني ذلك القدر الجارح من الأنانية، وقررت أن أقذفها بنفسى لسمكة قرش مفترسة، وأستولي مباشرة عليك؟. يا لدهاء النساء! ترى من استولى على الآخر، أنا أم أنت؟ لو أمكن أن أعثر على إجابة بائسة لفكرت ربما بمنطق آخر. لكن

زوجتك الشقراء لم تكفّ لحظة واحدة عن إمطاري بالأسئلة. كانت تغار مني، أو لعلّي كنت أنا من يغار منها عليك. فهل قررت أنت، وأنت تلاحظ الحرب السريّة بيننا من فينا تحب؟ ربما لم تحب أياً منا، يقال، حين تتعدد الخيارات يضيع القرار، هذا ما اعتاده منطلق الحب والكراهية سواء بسواء.

كنت سعيداً، وأنت تراقب تنافسنا مثل مجنونتين، أنا وهي عليك. هي لأنك أب لولديها، وأنا لأنّي امرأة لم تعثر فيمن عرفتهم من رجال على انبهار الذاكرة التي لعالمك! ماذا أفعل، ليس في عيونهم، يا سيدي الطموح الذي لعينيك.

— 3 —

كان الحب يهاجمني كما تهاجم مواسم الهجرة السماء. الطيور في هذه الأيام لا تترك مكاناً للغيم كي يتنفس. ويخيّل لمن يرى السماء تعج بنقاط سود على مدّ النظر أنّها تتزيّن للقمر. لكنها في حقيقة الأمر تعلن العصيان، تهاجر من الأماكن ولا تستبقي على جلدها سوى لونها. هكذا كنتُ أنا بدونك، مواسم هجرة طويلة الأمد، أعج بالسواد. هل كفت عن اشتهاؤه لأعترف لك أنني بحثت عن ألوان أخرى لحالة ارتحالي؟ لا أملك هذا القدر من الجرأة كي أفعل؛ لأنك غير الرجل الذي أقرره وحيداً ومنعزلاً ويفكر بامرأة مثل نورس تطلق سحرها على عينيه الحالمتين. لا أنسى أن صور جينيا والولدين تعبّان حافظاً نقودك، ولا تترك مكاناً حتّى للأوراق النقدية لتسكر بثمرتها حين تنقض عليك فكرة جنونية،

من النوع التي لا يُعثر عليها بسهولة.

—4—

أحببتك بعينين مفتوحتين دائماً، بقلب يعقل ورأس تدق باليقظة. ألم أجنّ على حق العاشقة في احتكار من تحب؟ كان من الممكن أن يكون عمراً أجمل لو اعتبرتك فنانا متسولاً مثلاً بأضواء تتشكل من الشمس والعتمة. ربما كنت ستبدو أشدّ ألقاً ورجولة في عينيّ. بدون صورة امرأة أسقط جمالها في سلّة المهملات كلما فشلتُ في رسمه، وبدون ولدين أشقرين. أكنت تعرف أنني لا أحب الأطفال أقل منك؟ لم تكن تعرف أنني لن أكف عن مقاصصة نفسي لو أنّي سحبتك من ضحكهما السريري.

فكرت بأهمية أن تلقي عصافير صوتك صباحاً عليّ، وفكرت بأصابعك تداعب شقرة رأسيهما فأوشكت على الانهيار. أحببتك كأنني لم أحب قبلك أحداً، ولم يكن سهلاً أن أذهب. انتظرت أن تقولها حين أراك ثانية. أراك ثانية؟ هل حقاً ستبحث عنيّ حين ستغادر بوابة الزنزانة، أم أنك ستجري على عادة الرجال خلف امرأة لم تحتمل سريرها خالياً من ضحكتك الواضحة وانذاباح شهوتك على مخدّة النوم؟ لا أعرف، لم أنم صدفة بينكما، كان فقط يخيل إلي أنني أعرف كيف تمتلكها وكيف تصدّك حتّى تحترق. ترى، أهذا ما أحببته فيها؟ ربما كانت تنقصك التجربة لتعرف أنها تكتيكية النساء في صناعة الحب. أنه يحتاج إلى قليل من المومسة، لا تصدّق شعر جميل وعنترة. الوغى لا يحتدم بدون غيّ، وغيّ النساء

يا سيدي لن يصبح علما سهلا في تناول الرجال.

__5__

بألف حيلة استدرجني الحب إليك . كنتُ المَح جينيا بملابسها الفاضحة على ساعة الحائط ومنفضة السجائر، والورق الذي أدفع إليه شخصيات عملك المفترض فأهمس تحت ثوبي القطني، هي امرأته الأولى، أنت مجرد امرأة هامشية يغير بمذاق ضحكها المبحوح غيم السماء، ويجب على هذه المرأة أن تهرب منه الآن. من أيّ الأشياء لم تقفز عليّ، شقراء ناعمة مثل حوريّات الأساطير، لكن شرط ألا تغضب، كانت خالية من وميض الكاريزما التي لك.

ترى ماذا يمكن لامرأة عاشقة أن تؤلف في حق امرأة معشوقة غير القبح والقمح؟ لا يوجد مفردات أخرى تقال. غزل التنكيل صناعة مقصورة على أوردة القلوب الحمراء في صدور النساء. أتمهياً لنفض قلبي منك فتأتي. كأنك تسمع إخطاري، وكأنه يهدد حياتك بالتمزق حين أدعك لنهد امرأة واحدة. من الحلم تعود، حتىّ يخيل إلي أن الأماكن كلّها تصبح بيتا واحدا متسلسلا عن رقم شارعك ورقم ولادتي. بمقطعين اثنين ناتتين ومحددين. ترى هل كانت تلك الأماكن بحاجة لنوايا هجري كي تتعلق بك على ذلك النحو وتسمي نفسها باسمك بإضافات التاء والهاء المربوطة تارة، والفالطة تارة أخرى؟

راوحتُ مكاني وقراراتي البائسة. ببساطة كان انجذابي أقوى من إرادتي، والضوء الذي تلفّع ثنية فستاني في إحدى تلك الغرف

انتشر كالجذري في جسدي. أصبح آفة. لا يمكن أن يفسر هذا الشعور القاتل بالعجز تفسيراً آخر. كيف لم تشعر جينياً كل هذا الزمن أن امرأة أخرى تمسح عطرها بمفرق صدرك وأسفل عنقك حيث تنتشر هي بشعر قصير وأنين طويل. كان غريباً ألا تشعر أنك بدأت تحرق أكثر مما تحترق، وتبهّر جسدها بانسعارك اللامحدود. وفقط حينها سخرتُ من علاقات الأجنييات بالرجال العرب. أهى شقرتهن الزائدة تدفعهن للثقة برجالهن، أم حنكتهن الناقصة؟ من أين يأتين بحكمة التصامم عن الهواتف الهامسة، والكلام الضائع أثناء النوم؟ من أين يأتين بهذا القدر المذهل من الحمق؟ ألا يفهمن أن الخاتم الذي يلتف حول أصابعهن يكتسب بمجرد وصولهن حضارة مختلفة، ويستحيل من سلك فضي مسالم إلى أفعى مأكرة. ذيلها الأملس يلاعب، ورأسها الأرقط يقاتل بسرية تامة فكرة أسره حول أصبع واحدة.

لسبب لا أعرفه اعتقدت أن النساء الأجنييات يعتقدن أن رجالهن داخل أصغر جيبة خلفية لسراويلهن. ولسبب لا أعرفه أيضاً اعتقدت أن جيوبهن لا تحتل ما يلقي إليها لأن خيوطها تتخلى بسرعة مذهلة عن أماناتها. منطقي إذن همست لنفسي، أن تظل تلك المربعات الخلفية غامقة ومنكشفة، ولا تستحي من عرائها. أكنت أنفذ سيناريو حقدي التقليدي على امرأة تنازعني محبتك أم أنني كنت أعرفه بتلك الأجنبية الدخيلة على حضارة الرجولة العربية. أصررت في كل مرة تصورتك معها فوق سرير مورد النسيج أنك لا تحبّها تماماً، وإنما تتسلى بملابس نومها الشفافة. تدوّخك حين تلقي حوزها الكحلية على ركبتيك. أنت من أفشى

هذه الحقيقة لحظة سكر للملكة، لكن كيف تمحو حمالات النهدي بسرعة ضوء عقلا معقد الخانات كعقلك. وتساءلت حين أرهقني شكل تلك الملابس من استورد الآخر أملا بسها أم جوعك؟ وهل كف الرجل الشرقي يوما عن ثقافة الاستيراد لأسميك شادا وخارجا عن السرب؟

أقول هذا الكلام لأنني لا أتغلب على نزعاتي المتقاتلة ربما. أريدك بعد أن تأكدت من ولائك لكلساتها، أم أتزين بهجرها لك كي أستولي على أيامك الآتية؟ أصبحت مملّة لكثرة ما أعدت إخراجك داخل أفلامي القصيرة. تخصصتُ بك دون علمك، وكنت سأمتهن الإخراج السينمائي ربما لأصبح خليفة رجل أخرجته الدولة الحرّة من بنود المواطنة وأدخلته سجلات المؤامرة.

كنت سأوفق في كتابة السيناريو الذي حلمت بأدائه على الورق، وأنا ألاحظ الأبعاد بيننا تتسع والنفس ينقطع. لا بد لامرأة دفتك بعمق تلك العاطفة أن تخرج بشيء عظيم مثلها وليس مثلك. المباني والطرق، الأغاني وعناوين الواجهات. الطيور التي تأتي والسنونو التي تهجر والوقواق الذي يملأ الأفق بالخرمشة بدأت تترتب في جهات الورق لولا أنك غامرت ذات صباح بصوت المرأة التي لا تكف عن المشي حافية والغناء داخل الحقائق. دخلت مثل أول مرة وحرقت قطيع غنم أسود أطلق كي يرمي من قطع السماء.

بريد مسجل

__1__

هذه المرة ساعي البريد هو من أتى إليّ. ألقى حقيبته في ساحة البيت وأخرج مطروفا منتفخا بالورق. كنت إذّاك أجرب اقتناص صوتك من شبّاك النافذة حين لمحته ينادي كي أوقع على رسالتي المسجلة. فوجئت وتلعثمت قليلا، لا تصلني رسائل مسجلة ولا عادية منذ سافر وائل إلى الخليج. قبل سنتين على الأقل وصلتني آخر رسالة منه. انقطع فجأة بعد أربع سنوات من الحب الأعمى، ما الذي يحفظونه غيبا في دروس المحفوظات؟ لم يقبلني قبلة واحدة ولم يضمّني، ولو ضمة صغيرة. كان يكتب إليّ فقط، أحبك، في الهواء. كأن الهواء أكثر فصاحة من سواد عينيه الواسعتين. يلتصق بي كثيرا، وحين يطير شعري على كتفه ترتجف يده، ويسألني إذا كنت أحب العودة إلى الفندق. أوافقه ساخرة من قدرته العجيبة على الجبن

أين وائل اليوم؟ لم تسمع عنه غير إشاعة تتحدث عن زواجه من إحدى بنات رئيس مجلس الشركة التي تعاقدت معه. لو تركض الآن إلى دفتر مذكراتها الصغير فستعثر على تاريخ شيوع النبأ. ربّما كان ذلك في منتصف سبتمبر، غير متأكدة تماما. ضحكت

وهي تعدّ الدرجات المؤدية إلى ساحة البيت، كيف لم تنتبه لهذه الحقيقة، جميع رجالها حالات زواج. بعضهم تزوّج قبل أن يلتقيها وبعضهم دفعتهم غرائبها بأسرع مما توقّعوا إلى الزواج. هي بقيت فالتة، مثل ماذا؟ مثل ماذا؟ تساءلت وفركت أرنبه أنفها، مثل حياة الرجل بعد أن تضج مراهه بصورة امرأة واحدة. أجل لم تقل كلاما جادا مثل هذا قبل الآن.

تملّل الساعي وكان على وشك أن يغادر، لكنها اعتذرت بأدب جم على أن قدميها تضيّعان كلما بحثت عنها. دُهِش الرجل ولم يجد ما يقوله. قدّم ورقة الاستلام: «هنا وقّعي من فضلك». وقّعت بسرعة كي تحرره من مزاجها الحالم. لم تتأمل المظروف الأبيض، بل قبضت عليه وتحسّست انتفاخه. من يرسل إليها هذا الكمّ من الكلام؟ ارتبكت أصابعها وهي تسترجع طريقة فتحه. تذكرت حبيبها السجين والوضعية اللافتة لأسلوب تعاطيه مع الرسائل. هكذا كان أو هكذا خيّل إليها، وأضافت في عقلها، علاقاته النسائية الكثيرة يبدو أنها مرّنته على اللمس الأنيق للورق. حين فشلت في تقليده شلخت الحزّ الجانبي للمغلف بنفاذ صبر. عند أول سطر جحظت عيناها. كان من غير الممكن أن تفهم أنّه يكتب إليها.

لم ينسها غسان، يهجس بلقائهما الأخير، ومثلها تماما يقلقه الورق الذي لا يهرب بسهولة من فتحات السجون.

- 2 -

« لم أسأل عاشقا كيف يفكر بامرأته، لكنني تركت قلبي يفكر بك وبنابوليون الذي أعدته إلى عكا أثناء لقائنا الأخير. هكذا أجيبُ عن السؤال. تركته يكتب تحت التعذيب سيناريو امرأة فتحت عكا بنبض أناملها بين تلال الموج. هذا النوع من الكتابة يا سيدي، لم يفعله عمالقة الفاتحين. ترى من علمك سرقة ما يحبّه الرجال تحت أكمام قلوبهم؟ أمن أجل حريق صغير يشبّ خلف عيونك المتسائلة؟ تركتُ جينيا تذهب إلى بلدها وسجائري تذهب على وجه السرعة إلى بلدي؟ وهل صدفة أن تكوني أنت تلك البلد؟ لم أفكر بغير السجائر أرسلها إليك لعلّ اشتعالها الدائم يطفئ حرائق، يخيّل إلي أنها تأكل رأسك. »

غسان

كلمات قليلة ومختصرة على الفانيلا البيضاء لورقة سجائر مذهّبة. هي كل ما انتفخ به المغلف الكبير. نظرت إلى المظروف في يدها واكتأبت قليلا قبل أن تتساقط ثلاث علب بارلمنت مذهّبة قرب قدميها. شهقت فزعة. غير هويته. كانت قلقة على العلب الحمراء، وهي بحوزة رجل آخر غيره. لقد اختبرت علاقته بشكلها وعددها على مدى شهور، وتعودت عليها تأكل أصابعه وهو يختبر فكرة توحده مع ذاته. ستستبدل الخطوط الحمراء الفاقعة بخط وهمي واحد شفاف جدا، لن تلاحظ انسياييته. لن تلاحظ عُقده مرسومة

على العلبة، حين تتقاتل أظافره الطويلة على من يفتحها أولاً. هكذا بدأت تفهمه، من طريقته النزقة في تعرية السجائر. سيجارته الملفوفة على ذلك النحو الداعي كانت المرأة التي لم يخنها أبداً. بل وخيل إليها أنه لم يعرف علاقة نسائية أشدّ نقاء من علاقته بها. ربّما، فكّرت أنّ الجلايب البيض تستدرج الرجال إلى ألوان أشدّ زهاء بعد حرقها. كنت لا أعرف فك لغز هذا التغير المفاجئ، خفت أن أعجز عن قراءة تك مجدداً وأنت تعارك علبتك. لكنني فهمت أن هذه المرأة الجديدة تفسر جانباً من رسالتك المختصرة والمدهشة.

- 3 -

عجّ رأسي بصورتك وأنت مقيد بالسلاسل. عجّت رأسي بحنين عنيف لابتسامتك المعلقة مثل نجمة شاردة على طرف شفتك. لماذا فكّرت بي الآن؟ جئت مثل نابليون في أحد الأيام المحصنة ضد كل أشكال الغزو. كانت عكا يومها مستعدة للقهر فقط، وكان القائد المغوار مستعداً للنزال فقط. شكل اللقاء كان خطة مواجهة لا يمكن أن يخرج الطرفين منها متعادلين. كانت النهاية تفرض شكلاً من أشكال الهزيمة. فمن يقبل أن يكون مهزوماً في ساحة نزال لم يقدّر لها أقل من الانتصار؟

لماذا كتب إليها هذه الموشحة؟ ألكي يقهرها بعشقه؟ ليست مدينة لتقاوم ولم تعد عاشقة لتستسلم. هي منزلة بين منزلتين أشجعهما اللامبالاة. هل تضربه بتجاهلها وهي ترى رهاها يتحقق. لكنها تعرف، تحت قلبها إسفنجة لم تكف لحظة

عن امتصاص أوّل صباح خير والانتفاخ. أجل، لم يبلغ انسحابها المفترض منه رغبتها في استعادته. غرام القائد الحقيقي بالمدينة التي يريدّها لا يسقط بمجرد تحصنها أمامه، هكذا فسّرت نتيجة انقطاعها عن زيارته. وسطوره جاءت إلى البوح حين أعلنت أنّها مدينته المرشحة لاقتحام قد تغار منه كلّ المدن.

لم تغل الدماء في قدميها وحسب بل ضرب البرق وجنتيها بنشوة الامتلاك. هل سحب الكلام من عتمة غرفه أم أنه دقّ ظهر علبة سجائره وهكذا، دون تكلف خرجت واستلقت على الوجه الأبيض للورقة المذهبة؟ أراد أن يقول، أنّ الكلام إليها لا يكتب على ورق عادي. وربّما فكّر بعد أن تقرّأ سطوره الفوضوية أنّها ستقل ما كتب على ماكينة تصوير وتصنع من ورقته تاجاً تعلّق به شعرها، لم تؤرّجحه منذ زمن بعيد. أراد أن يقول لها، على عادته في اختصار الحالات: «أنت حالي الآن. سيّدة كلام ينام على ذهب».

4

للمرّة الألف بعد الألف قرأت وجهها بين السطور. كان يضيء بعد كل إحساس تعثر عليه للكلمة. تحبّه، لا تزال، ولا يمكنها أن تتنكر لرعشات جسدها وهي تمسك به بأطراف أناملها. لورقته المذهبة ذلك السحر الذي يعيدها لمسميات عالم كادت أن تنساه. الحب بعنفوانه وفحشه، ذلك الكائن الموجه في كلّ حالاته تحسّ صخبه تحت ملابسها وهي تتأمل وجهه يتوهج من عمق التماعة اللون. أهي رومانسية أكثر مما تحتل المفردة أم أنها فكرة الرجوع تطلّ مصدر توق لعلاّات سقطت من وجوه المحبين بعد ذهابهم؟ ووجهها هي، ماذا سقط منه ترى؟ لا تعرف، ربّما حارات القمر حين يصير بدرا، حين تركض بلا نهاية في عمق عينيها وتتنهد طويلا. تتخيّل أنّه يرى فزة الحياة المتأخرة ويسمعها. الحب اعتاد أن يكون رومانسيا كي يحفظ الروح من الانكماش. هذا ما تعرفه على الأقل حين يتعلق الأمر به.

أعادها التساؤل إلى المغلف الملقى أمامها فارغا ومختارا. أوصلت عتبة قلبي، وأغلقت على بيتي أيضا، لتقتلني؟ سألت وأجابت وحدها، كما اعتادت أن تفعل بدونه. بدأ الشوق يسحبها الآن من أعضائها عضوا عضوا. وكانت تحتاج إلى كلامه، كل ما ملأ به الورق كي يدفئها من قتل أسنانها لفكّها الأسفل على هذا النحو القاسي. تقدّمت من العلب الميّتة من حولها وقبضت عليها من ذهبها كأنها استدركت في تلك اللحظة بالذات، أنّها مثلها وحيدة

وباردة.

حاولت أن تعيد إليها الحياة، لمعتها ببطانة قميصها، كان النايلون الشفاف يغلف الحروف الطويلة لماركة السجائر وكانت هي تحاول أن تغلف وجهها باللمعان المفاجئ الذي انتشر على العلب وأشاع فرحا صامتا في بدنها. بدأت تتسلى بتقطيع الحروف، وتخيلت أنها تهجئ مقاطع اسمه. كان اسمه حلا تلقائيا للحيرة التي تلقي بعتمتها وألقها عليها. متى أحبت أشياء رجل مثلما تفعل مع أشياء هذا الرجل؟ حبها لوائل كان قصة أخرى، ولا.. لا تذكر أنها كتبت حكاية على أنقاض أيامها الذاهبة.

خرج الوقت من فسحات أصابعها وهي تتحسس المستطيلات كأنها تتحسس كتفه أو قلبه، ثم تتساقط ببطء واحدة واحدة قرب قدميها. نظرت إليها من فوق وخيل إليها أنه يجلس قرب قدميها مكان علبه وذهبه. نظرت إليها وتكلمت، توهمت أنه حقا هناك. لكن العلب ركضت إلى زاوية مضاءة بستارة حريرية صفراء بفعل رياح الانفعال الذي هب على كل شيء وسحبه في كل اتجاه.

تقدمت بخطوات فاحصة هي أيضا إلى نفس الزاوية، كان زحفها الراكض يملأ الفوانيس الوسنانه خرفشة. انقضت على العلب المتلاصقة وتركت الضوء وهميا وحالما. جذبتها إلى ما تحت أنفها، وميزت بسرعة مسحة الأوزارو، الكولونيا التي أجبرته عليها قبل لقاءاتها القصيرة. كان شرطها أن يترك دالي مؤقتا. انسحقت وهي تندمج بصراخ الرائحة التي خرجت من ياقة قميصه البني أول مرة رآته بعيدا عن غرف الشعوذة تلك. حيث تحركت أصابعه تحرك ظل من الشوق، أزرق كحلمة أذن، وهي تحاول جاهدة الإصغاء

لما قاله. ارتجفت قليلا حين فتح العلبة ومدها نحوها بثقة من يختبر شبق امرأة. كأنّ العطر تناثر مثل فتات زجاج حين اعتذرت. وكأنّهُ استبعد ذلك الخاطر، كأنّها تأدّى من رفض سجائره. قالت له بمكر: «سجائري طويلة وأنيقة ولا تلتصق لهذه الدرجة بين فسحات الكلام»، وكانت تعني ما يدور بين السبابة والإيهام. أجل، كل ذلك يبدو الآن حقيقة. لكنها لا تعرف كيف تمسكها وهي مثل جمره تلسع بقوة في كلّ مكان. ترى هل كانت تعرف أنّ الحبّ كان دائما يؤدي إلى مواقع ساخنة لا يطفئها دخان؟

حيفا، عطر ذاكرة

الرابع والعشرون من نوفمبر. اغتسلت حيفا بزخة المطر الأولى. كان نوفمبر الثالث الذي يدخل ملابسي الشتوية بدونك. كنت بردانة أكثر من أيّ شتاء آخر، وأبكي أكثر من أيّ مطر نزل على قلبي وغسله بالدم مكان البرد. أكلّ ذلك تسببت به عُلبك؟ لا أعرف، أو ربّما لا أريد أن أعترف.

__1__

في تلك الليلة فكّرت طويلا برسالتني الأولى إليك. الرّسالة التي بعدها لم أكتب لأحد وتملّكني الإحساس الخبيث الذي أصاب كليوبترا حين زينت تاجها برأس الحيّة. هل كنت حينذاك رأس الحيّة الذي أريد أن أتزيّن به أمام نفسي أم أمام الحاشية المتخيلة؟ ضحكْتُ قليلا من نفسي ومن حيّة الكوبرا التي أعجبت ملكة الملكات، لكنني سريعا نفضت ضحكتي عن وجهي ونزلت إلى الليل. كانت حيفا تبدو من ممشي سانت لوي نظيفة جدا ومتألّقة جدا كأنّها غسلتها كرات الماء التي نزلت من غبار سنة طويلة ومتسخة. كلّما تقدّمتُ من البحر خطوة وجدتها امرأة أشدّ نضارة وأنوثة. هل تمنح زخات المطر هذا القدر من الدفء والسحر للمدن وللنساء؟ وأحسست أنني بتلك المنامة العتيقة أجمل الإناث. لماذا؟ لا أعلم تماما. تأملت الشارع الجميل الموازي لحدائق عبّاس المعلّقة

فاعتقدت أنه أجمل شارع لمدينة فاتنة. كان يتموج بأصوات أناس جاء بهم الشتاء على غفلة ورماهم إلى الأرصفة شأن شواهد أثرية. قست الجسر ذهابا وإيابا. وقفت ونظرت إلى كل شيء. أخيرا علّقت بصري في مركز القوس المنفرجة أعلاه، عند مفرقه تماما. منه يطلّ الكرمل عاشقا لامرأة تجلس كلّ ليلة تراقبه على الضفة الأخرى من البحر. كأن البحر يصير حالة حب غرائبية الطقوس لكرمل أبعته الذكورة، وعكا تربكها ليلة عرس لا تأتي به أو بدونه. ماذا يفعل الناس بالأعراس الساكتة؟ لا أسألك، لعلني أكذب. وقفت هناك كي أحقن مدينتك دون رحمة بمصل مدينتي. أو ربّما بمصل أنوثتي، يا سيّدي الذي لا يأتي، لم تتحول عيوني لدقائق طويلة عن التحديق والحنين. كانت عكا كل ما أعرفه عن الحب تلك الليلة. بماذا لم أفكر وأنا أرسم شوارعك المحررة واحدا واحدا على الرمل. لقد دفنت، تلك الشوارع، قلبي بالبرودة وبسطور فوضوية يكتبها الشتاء حين يهوي على الناس ويختطف شيئا ما فجأة. كنت أنت من يختطفني ويبكيني دون توقف. بكيت أطول من عمر البكاء، أو لعل البكاء وجد محطّته الأخيرة في حنجرتي المجرّحة. كم أحببتك، كم. لا أعرف غير هذه الكلمات الخائبة التي يقولها السدّج حين يهجّئون أنفاسهم لعشيقاتهم الصدفة. هل كنت آخر الصدف بأبهى تجلياتها، أم أوّل الجمال بأوجع بشاعته؟ هل ألقتك صدفة خائنة على وجهي كي أتحيل الحياة باحة واسعة ومكيّفة؟ بكل ما لا يكونه الحب حين يعضّ الأصابع ويقترف مذبحة على نوافذ القلوب؟

بين احتفالي الحذر بمجيئك وخوفي مما تعدّه لفرحي صرخت

دمعة صغيرة فوق إحدى العلب الغريبة، أقصد علبتك المذهبة، وأكلت قطعة صغيرة من الورقة. أخلقت بعدها رسماً يشبه قلباً، أو ربّما خريطة فوضوية لرسم لم يحدد ملامحه بعد. لا أعرف، كلّها سيناريوهات محتملة لرجل يلعب بالنار كما يلعب بالورق وبالكلام.

- 2 -

كان الانتظار برنامج السنة والنصف اللتين جاءتا بعد مظروفك الدسم. وكلّ يوم صنعتُ أجنحة جديدة أطيّر بها نحو الرقم الدائري الملفّ حول نفسه التفاف كعكة. أطيّر وأرتطم كأنّما كنتُ غير واثقة من قدرة الأجنحة على حملي إليك. والصحيح أنّي لم أعد أثق بشيء. حين تخطر أمامي بتوتة أوّل الصيف فوق حاجبك، يكاد يغمى على شوقي. سطت عليّ الأشواق، لا أخجل من القول. لكنّها في لحظة ما أخذت نفسها وتركنتني أعتقد وأشكّ. ألغي وأؤكد. هل تستطيع الأجنحة أن تطير مع نفسها دون أن يتناثر ريشها وتهوي من شدّة الانفعال؟

الفصل الرابع

ذلك الصباح، رجع بزغلة هاتف مفاجئة. لم تعد الأيام عادية تماما وأنا ألاحظ سبائك تنفذ سبيا مبرجا لرعشات قلبي. هل أنكر أنني فقدت صوتي تقريبا وأنا أركض خلفك كل هذا الزمن؟ لقد استيقظ شبيهك من جوارير بدني كأنه لم يغب لحظة واحدة. بتأخير خمس سنوات أو أكثر عن مكان جلسنا خلف نوافذه نشرب قهوة بالنيذ.

السنة والنصف الأخيرة كانتا فصل الجنون الأخير في دفتر عاشقة قتلها عشق لا تستوعبه السطور، كانت أنا. صدفة أو خطة مرسومة، لا يهم. كانت تهمني حقيقة واحدة أنك تعيدني بسطو مسلح بالرغبة إليك. اغترابنا الطويل لم يمح من دفاتر عشقنا القديمة غير الهوامش.

أكذب حين أنكر أنني انتظرت الأيام كما ينتظر الأطفال هدايا الأعياد. لقد كنت هديتي وعيدي معا. كم تقدر وأنت تقرأ كلماتي أن تفهم قدرتي المرعبة على الحب؟. بقيت جاهلا لشكل الأحاسيس التي أعرفها، حتى رسمتك على وجهي وعنقي وكتفي وزندي، واندفنت مثل طفل عاد إلى لعبه بين ثوبي ونهدي وبكيت. هل عرفت حرقه اللحظات التي مرّت على سحابة صمتك قبل أن يتل بك ثوبي هكذا؟

لم أكن أعرف كيف ينشج الرجال ويتساقط شوقهم دمعا على نهود حبيباتهم. بكيت معك حين التصقت بجلدي وفركت أنفك

الصغيرة بأرنبه نهدي. لا لم أبك وائل ولم ييكني، بل بقي كلانا متشبثا برقاص الساعة كي يعزف عن قلوبنا فالس الفراق. ابتلت فقط بذكرياتي الصغيرة مع برجه الناري ورقة همسه الحلبي. كان دائما أبيض كالزبدة والجبن وقشرة البيض. كلانا كان خائفا، هو من امتلائه ببلد جديد لست فيه وأنا من خوائي في بلد لا يقيم فيه رجل مع ذكريات تخصني، لكنني لم أستبقه كما أحاول مع أشياء صغيرة تمحت وانكبت معك عشرين ألف مرة.

كان وائل يبحث عن خبز ينعهه لأناس وحمام المخيم بسعر زهيد وكنت تبحث عن شمع وكلام تلمه في غرف نظيفة ومرتبّة يدخلها رواد المقاهي الفاخرة وأصحاب البابينونات، إلى أين تذهب؟ ارتفع صوتي هذه المرة. جينيا ذهبت، أنا المرأة التي بقيت تدفع أيامها لقجة التبن بعد أن نام داخلها الزمن. لا تذهب، جرّوت على القول، حين غبت عن خزانة المناشف والأوراق المبعثرة، كما لو أنّك ذاهب للحظة. بقيت يدك تحتل طاولة المطبخ وكراسيها الخشبية. أهدكما غفا داخل الآخر، أنت أو المطبخ. شئت ألا أحدد كي يكون لديّ مبرر كاف لكذبي الأبيض، وحقائقي المزاجية التي أختلقها لأنقذ نفسي بك. كنت شيئا لا يمكن نفضه من الرأس أو القدمين بمجرد هزة عنيفة.

- 1 -

لعلها رائحتك، أيقظت جسدي وأفعمت قلبي بدفق شتاء رجع.
كنتُ سعيدة لأن ورق السجائر المذهب لا يبلى، وأنني بسبب
قسوته أعود إلى أنوثتي. هل تلد قسوة أنوثته؟ يجوز أنه منطق
التقاطع الخاطئ الذي حاك حيثيات العلاقة. علاقة؟ سألتك بعد
تأمل طويل للشعيرات الصغيرة التي تكبر دون حياء مكان وجهك
وتربكني. كنت أستحي من فكرة أنني، أنا وأنت، رجل وامرأة لا
يمشيان إلا معا. يشربان قهوة معا، يأكلان مثل السناجب بصمت
وحذر لأنهما حبيبان. هو يدخن وهي تعدّ السجائر بعد كلّ موة
سريعة لإحداها. يتحدثان في السياسة وفنّ السينما، كأن دالي
ومونيه وفان جوخ تخصصات تحت مستوى الأحاديث المهمة.
كأن رمسكي كورساكوف عابث هاو لتقطيع أوصال النغم. كان
شارون وتنياهو، وبراك أسماء رنانة لثقافة عالية لا يفهمها غير
المتبحرين في فهم الحياة. ودائما كنتُ أتعجب كيف تتخلل هذه
الفلسفة الرديئة مواضيع أفلامك برغم هاجس الحبّ الذي يختارك
كي ترصفه بها. أجل، لا أبالغ، كنتَ ترصف مشاهدك بالحبّ كما
ترصف هوامش الطرقات بالحجارة.

خجلي من تزواج وجودي بك حيرني. أردت ألا يختلط حبي
بحيائي، لكنني لم أملك وأنا أفتن بك كل يوم أكثر من اليوم الذي
سبقه غير احتواء شكل هذه التركيبة المهددة لكل ما أعرفه عني.
بدأتُ أختبر مشيتي بدونك، وخيل إليّ حين عثرت عليها ضائعة

أنّ ساقِيّ فقدتَا استقامتهما.

خفت أن أكون قد أضعت أشياء أخرى من عادات جسدي. وفكرت للحظة، ماذا لو فقدتك مرّة أخرى. ماذا أفعل بزميني؟ نظرت إليك من نوافذ المقهى الذي جلست خلف نوافذه ترتّب أوراقك وتأمّلت نفسي من خلالك. كان الشتاء يكتسح أضواء الشوارع المغتمة، وأضواء السيّارات المتعبة من كثرة الدوران. كلّ شيء بدا برغم برودة الجو والناس الصقّعة على الرصيف البلوري جميلاً وحالماً، ويضجّ طفولة أرسمها بأصابعي المنكمشة على فرحي الصامت. تكاثف الأنفاس جعلت مقاهي بن غوريون طوابين مشتعلة بأنفاس البشر وأحاديثهم المتضاربة في السياسة والحب والحياة. لم أُميّز وجهها خلف النوافذ. الدخان الأبيض ابتلع الناس، قلت لنفسي، وأنا أجتهد في العثور على ظلك كلّما تسوّلت حوله ضبابية. ميّزت فقط ضبابات بيضاء ساخنة قاتلت عيوني دون توقف. تُرى، هل سأعود إلى هذه الشوارع لو جئت بدون يديك، وبدون جرائدك خلف النوافذ؟ هل سأحتار في العثور على مخبأ لخطوطها من فضول الضباب والذباب الأبيض الذي يطاردني كلّما فكرت بك؟

__2__

لم أدخل المقهى ذلك المساء، بل حشرت أصابعي داخل جيوب الجينز الأخضر، وعدت أدراجي. بحثتُ عن مقهى أجمل من المقهى الذي أخذك، بعتمة أشد ودفع أقل. بعد وقتي المتسولة فهمت خطورة أن أستيقظ وأجد مكانك علبة بارلمنت فارغة تغرق سريري. كان ما يعلق بها من تبغ الليالي المعتمة يجوّع فمك ويجعله يقبل كل شيء. درتُ ساعتين كاملتين وجدتُ نفسي بعدهما أقف أمام نفس المقهى الذي لم أرك خلف نوافذه. الباك دور، سموه من أجل تسويقه. لم أستظرف المكان ولا التسمية. غضبتُ من عمالتك المفاجئة، تتهم أمريكا بتشويه هويتنا ثم تجلس في مقهى يسوّق منتجاتها. كأنني اكتشفت التسمية للمرة الأولى، وقفت أتابعك من النوافذ البيضاء لعلك صدفة تذكر القمر فترفع رأسك إلى النافذة وتراني. لا أذكر كيف تعصبت فجأة لهويتي وعروبتي، وشعرت أنني المضطهدة الوحيدة في العالم، ولو لم ينقذني قمرك الجميل الذي وقف مكتملا فوق رأسي وناداك لنشجت مثل متشرّدة حقيقية. لمحتني، بعد وقوف مضمّن فلوّحت لك بيدي. أجبتي بتلوحة مماثلة ودعوتني بإشارة مستغربة للدخول.

رفعتُ سبّابتي بمواجهة القمر وحررت شعري من بكلة الخرز. ابتسمت، وأنت تلاحظ حدة مزاجي تحت الاستدارة الفاتنة. كنتُ أهيكك بحركتي تلك لكزدرية طويلة أمام البحر. خرجتُ حيث الخطى متعثرا بابتسامة حبلى بهواجس الناس والجريدة التي

ودّعتها على الطاولة. قطعت الخطوات القليلة التي تفصلني عنك، ومددتُ أصابعي مباشرة إلى مزرعة الشوك الصغيرة التي تكبر على خديك، ثمّ همستُ باحتجاج، لماذا تنسى أحيانا ضوء القمر؟ ابتسمت، لم أنس بل انتظرت ضوء قمر آخر.

3

كيف أتذكر أيّاما جاءت بعدك؟ شاغال لم يتوقف لحظة عن كتابة توراته بألوانه الحمقاء، هل يمكن أن أكتب توراتي دون تسجيل خطايي معك؟ لقد تبيّس اللون تماما على أصابعي، وكانت كلّ خاطرة تسبقني إلى صحراء البياض تدفعني إلى الضجر. فرّغت من الكلمات ومن الحياة، ربّما حين حبت أيّامي بدونك على موكيت المطبخ. شاغال لم يعرف هذه المترادفات الأرضية، دوما أخذته السماء إلى أحلام العودة، أقلام البنفسج ونساء الإسفنج.

لا مكان أذهب إليه غير الرجوع. هل يسع لهفتي عليك؟ من سيأخذه من الآخر؟ لم أفكر مليّا بالأمر، لكن يجوز أنني كنت أستبق الأحداث بمثل ما استبقت السنوات التي عادت معك. بخيانة جديدة أم بحب جديد؟ لا أعرف تماما، لكن مفاهيم الحب بدأت تعيش معك على الخيانة. كيف؟ أخاف الاعتراف باللحظات التي حملتك مثل فقاعة صابون وجرت بك إلى غيوم يحوّف فيها اثنان: أنت وشاغال. كنت سعيدا لأنك تذوب فجأة، وكنتُ حزينة لأنّي أعثر عليك فوق كلّ شفة إلا شفّتي.

بهذا الحمق أو الذكاء تتسرب المومسة إلى العشق. أسميها كذلك لأنني لا أفهم معنى آخر لامتلائه بنهود نساء وأسماء عاهرات. لم تذهب جينيا، ثمّة نساء آخر يلبسن تنورتها وقميص نومها، ويكشفن عن أقدامهن الخافية. كنتُ دائماً قادرة على قتل من أحبّ بشكّي المرعب، معك حاولت أن أكون امرأة عاقلة تمنح فرصة للعاطفة كي تنفذ قلبها من الاحتراق. وحين تسوّل الشكّ حول غضبي، حاولت أن أنزّهك عن زلّاتٍ قد يقترفها الرجال ساعة محنة.

بقيتُ أعقل حتّى عثرت على شعيرات شقراء تائهة على قميصك الأسود. أهو اللون خالك أم شكّي الذي لم يتخلّ عن عادته؟ لا أعلم تماماً، لكنني أذكر دفاع قلبي عنك. كان يهمني أن تبقى في تلك اللحظة بعاهرة وبدون عاهرة. يحيطني نفْسك، وخياناتك أيضاً. لم يجرب الرجال أحاسيس امرأة مهانة، لمّت أكتاف رجل من زنزانة، وبعد أن اتسعت علّق عليها خصل سواها وذهب.

أعبثاً انتظرت؟ أعبثاً بكيت وفرحت؟ وبأوراقك تجلّيت مثل عروس تزوّج نفسها سرا للسرّاب وللقبر؟ بين حقدّي الدفين ورغبتني بتمزيقك نافستني مشاعر نبيلة لا أعرف من أين تأتي النساء حين تُحنّ.. فجأة تشّف أرواحهن ويصبحن قديسات، شيء من قبيل الأم تيريزا أو مريم العذراء، ويدافعن عن الخيانة دفاعهنّ عن وسام شرف يمنحه الرجل لامرأة يعشقها عشقٍ إليه. لا أعرف من أتى بوسائل التعذيب هذه وملأ بها خيالها، لكنّها يبدو أنها كانت وسيلتي كي أبقى امرأة. عثرتُ على مبررات كثيرة كي لا تهزأ مني امرأة المبادئ التي لا تكفّ عن محاورتي في المرأة. فلديها

سبب جاهز للذبح. ستقول منحتة ما لا يحلم به المتسولون، فرشة دافئة وجسد بيوسات خال كثيرة وختم نبوة. تفضض بك على عجل وبخك على قفا الحياة.

سأألم وأصمت، لماذا أتألم؟ قررت أن أحبك أكثر وأملك من بارات آخر الليل. أنزعك انتزاعاً من تلك الدبة العابثة. أغير بطعم فخذها نكهة التجاسد، أم كنت، أنت أيضاً، تستدرج الغموض الذي يهب في عروق النساء، حين يعثرن على الرجل الذي يحبهن يلحس فخذاً ليس لهن؟ الروسيات في تلك الأيام أطلقن إلى الشوارع، كما تطلق إلى المزابل شلعة جراء ضالة كي تنبش فيها شيئاً تأكله، وهنّ أكلن من لحم ذكورتك. تقوّت عليك زانيات الليل، وهل تعرف، بسبيكما، بدأت أكره الليل.

أكان يجب أن أكرهك كي أتركز؟. أهذا هو منطق الحب حين يهبط من القلب إلى الأقدام؟ لم أكن ككل من أحبوا، بل لم أحبك مثلهم. كنت علة سجاجير مشتعلة لا ترى النساء منها غير احتراقها وكنت أرى أضواءها فقط. أهذا التحارق بمفاهيم الحياة والموت هو ما يقودني لهذه النهاية؟ لا أملك إجابات واضحة. أصبحت مثلك دائمة التشوش ودائمة الانكفاء على كل شيء. مشاعري الجميلة استحالت إلى حزمة ريش خفيفة بلا وزن وبلا لون. تطير كل يوم إلى بلد وتعود متسخة بتعليقات الفضاء. تعود حزمة ريش كما ذهبت لكن بلا ماض يعيدها إليك. ماضيها أصبح حاضر الحزمة الحرة، هكذا أحببت أن تسمي نفسها.

— 4 —

بدأ يقتلني المكان الذي أعثر عليه ملقى فيك كل ليل . أرّقني التساؤل أيضا، هل أصبح الليل ملجأ لكتاباتك السكرانة؟ أين الورق الذي رتبّه القمر ذات يوم شعرا دافئا في عينيك؟ وأين ما سطرّته تحت قبة قميص نومي ومزّقه على شفّتي؟ أصبح أن صمتك المتواصل داخل العتمة يتحدث الآن من قوّهة بركان؟ أصبح أنك صمتت لتؤجّل، وليس كي تلغي الكلام؟

سيظلّ صمت الفنانين مناورة غير مجدية لفصل الروح عن الجسد. كان يجب أن أعلم أن خروجك المعافى بضاعة مغشوشة، وأنك لا بدّ ستتحسس أزمّتك بعيون كبريائك وفنك وتثوّر الدنيا من حولها وحولك. هل توقع أحد أن يتحدّى مونيّه الضوء لإحساسه المفاجئ بالعظمة فيندفع إلى رسم كاتدرائية روان كل يومّ عشرين مرّة، من فوق، تحت ، خلف، أمام. من الواجهة الخلفية القبة، الجرس. قبل طلوع الشمس بدقيقة، بخمس دقائق، ربع ساعة، عشرين دقيقة.

رسم خربشات قلبه حين يمتلئ بلحظات انتصاره على المجرّدات، ليس فقط، والألف رجل الذين خرجوا من جسده وتحصّنوا فيه كي يدقّوا مسامير قلبه بقبة السماء. دون قصد أعاد الألف رجل كبرياء فنان علّة عقله أخافت منه الحياة. زهد بها وبها حولها، وانكفأ على فرشاته ولونه والألف وجه لكاتدرائية روان. لم ير غير الأقواس العالية لأبواب لا تنفتح، مغلقة دائما. أضواء اليوم

لم تنجح في إسقاط ضلف نافذة. ولا بدّ أنّك فهمت أن لامبالاة قاسية، لن يفهمها سوى فنان مثلك، قد حرّرتك كما تحرّرك الآن منّي ومن الوجود ومنك.

وحدهنّ عاهرات الليل تمكّن منك. كسّرن أبواب سجون كثيرة خرجت معك دون أن تدري. ويبدو نسيْتُ أنا في غمرة سعادتي بعودتك أنّك تأتي من تربة لم تر خلفها أو أمامها سوى عتمة صفراء. غاب عن ذاكرتي المشتعلة بحرارة صوتك أنّ لديك ما للفنانين من كآبات وللرجال من نزوات. لو كنت أعرف ما سجّله موثّقو التاريخ عن غرف مونيّه السريّة لربّما تذكرت أنّ بيننا نصف حقيقة وذاكرة مشوّهة. لن أفسّرها كما تفهمها، وقد أرفضها وفق تفسيرك، لكن ما كان يهم حينذاك سطر واحد كتّبه في دفتر الإنشاء أنّك شيء جديد. ترى هل جرّبت قبلي أن تكون شيء امرأة بهذه الجديّة خارج مؤسسة الزواج؟

هذا يعني لامرأة وحيدة مثلي ترفض التعاقد مع قلوب الرجال أن تمحو إسقاطاتها الجاهزة عليهم، وتتغلب على عقيدتها بمثل ما يتغلب النجم على السواد. ألك ذلك سحقت كبريائي؟ أنا لا أعرف، تماما كيف يفكر رجل بامرأة بعد أن تصبح مقالاته أو جرّته.

— 5 —

صدقا أحببتك، حبا لن تفهمه. هذا ما أحاول أن أقوله في جملة واضحة منذ كتبتك، أنني أحببتك. سطر قصير من فعلين. الأول متشبه والآخر متحقق، وكلاهما بدون خبر واضح وبدون اسم مقروء. أكنت سأستتج غير شعيرات ضالة أفردها على وسادة قبل النوم، لو أنني مثلا سبقتُ يوما واحدا في إعلان السطرين! الأول ينكمش على همس اعترافه، والثاني يحتضن سابقه بقوة، ويختصر برده. لهذه الدرجة أحببت أن أوضح قلبي، لدرجة الاعتراف بضعفي وحاجتي. لكن هل بقي من يؤمن بأهمية تلميع القلوب على ضوء حالة فقد؟ في لحظة خلوّ بذاتي قلت لنفسي معاتبة: «ربّما أجهزت عليه بدفئك اللامبرر. أو ربّما ببرودك القاهر».

— 6 —

لا أميز على ضوء شموعي الكابية أيهما أرسلك إلى حياة الليل: الدفء أم البرد. لكنّ ثقلها سريعا لأزماتك جعلني أستتج حاجتك لحبّ زانية تفهمك لليلة واحدة وحسب؟. تتركك لحالك وللحظات انذاباك الصامت بين أقدام سجّانيك. كانوا عقدتك الجديدة التي لم أكتشف عمق تورّطك بها قبل تلك الليلة. حين قررت أن أذيب على فمك شفاه كلّ النساء ووجدت أنني أول الشفاه الذائبة.

ما أصعب أن تكتشف امرأة مثلي عابدة أتمها ككل الأبجديات الأخرى! لا تعاني الشذوذ المتوخى لتمييزها عن سلالة العناصر. لم أكن مركبا ولا عنصرا لقيطا، إذا قل لي أنت ماذا كنت لك؟ لكن تذكر، وأنت تراجع دفاتر نسائك أن رسالة أولى هي بدايتي معك. رسالة أولى وليست شهقة في فراش؟ امرأة ظل لأغنية عاشقة مرهفة. تلبس فستانا أبيض وتمشي على بساط الليل، تتخيل البلاط رخام صوتك، والجدران عاج يديك. حافية دائما وتشتعل وراء خطوها شموع الذكريات. بعد كل خطوة يفز لهب، حتى أنه يخيل لمن يراها ترعف ضوءا وضوعا، أتمها من عجينة شمع. ترتعش تحت فستانها الأبيض، كل شمعة بستين قدم. وكتلك المرأة، بشعر مبلل ومسترسل لكآبته حتى الأبد.

تري كم أغنية ستغني كي تذهب ولا تعود. من رأسي وشعري وقلبي وذراعي، عنقي وشفاهي، حنجرتي وأذناي. من بدني كله، متى ستخرج خروج الشياطين أو الملائكة. كل الأغاني تنتهي يا سيد وجعي، وترتيلة روحي تبتدى. لا أسمع غير همس شعرات ثلاث تعتم نهاري، وتضيء حين تشد العتمة احتقان الليل. هي ما أذكر من أغاني معك. كأن الأغاني كلها افترستها أغنية واحدة، أو ربما لم يولد قبلها اللحن. الخيانة ولو بدوافع كالتي لديك أغنية أعلى صوت. لكن بكلام أخرس ونوتة ضائعة.

تعلق بك بلا عقل، هكذا تفعل النساء حين يعشقن، ولأني مثلهن خيل إلي أن بائعات الحب أعقل النساء. يعلقن قلوبهن في الهواء ويهبطن متجردات من العقل والعاطفة. يهبط مع أجسادهن الشبق. هل ألوم دبك الشقراء إذن، أم أهنتها على فروة جسدها

السميكة؟ قررت في سرِّي ألا أحقد عليها لأنك من ذهب إليها. بائعات الهوى لا يذهبن إلى أحد، بل يتعقب آثارهن الرجال، كالقطط والكلاب يتشممون روائحهن. تشيبت لها، امرأة مثلي وعانت بلا شك مما تشكّني به الآن. لم تصبح صدقة بنت ليل. لم تطلّق النهار لأنها لا تحبّه، بل لأن ثمة من أطلقها عنه، لا بدّ رجل مثلك يذوب كالسكر في كؤوس الشاي والماء. صحيح، لن أصبح بائعة ليل، ولكن قد أستحيل إلى بائعة وعد. الأمر متعلّق بالجزء الذي يسقط من منطق المرأة حين تخان. «ليست خيانة، بل سيجارة دخّنتها دون تفكير وقذفتها لأقرب حاوية قمامة»، قلت: «وكلّ يوم يعنّ لك أن تدخن مثلها وتفتّش عن حاوية جديدة»، علّقت: «ليس تماما، ولكن بالتقريب»، أجبت.

__7__

كانت المدينة على بعد أيام من حرب الخليج. والناس مبتلّون بأقمشة الكربون ورائحة الجلد والفلتر. يخرجون على مهل من أكياس النايلون وسورة ياسين. ينشقون رائحة الحياة بفرحة المرة الأولى. لقد بدت الحياة حينذاك غريبة وغير مألوّفة، كأنّ الناس توقّعوا الموت خنقا أو حرقا وأذهلتهم فكرة البقاء على قيد الحياة. أكانوا بحاجة لذريعة الموت كي ينتزعوا أنفسهم من القلق؟ لم يكن سهلا على أحد قبول فكرة الحياة المفاجئة التي هبطت لا يعرف كيف على رزنامة الشهور التالفة. ولعل صدام حسين الباقي، لا يزال على

قيد الفرات، والحرب المضحكة في سذاجتها ولؤمها كانا المبررين
 الوحيدين للسعار الذي أصاب الرجال، وأنت منهم.
 سألت نفسي قبل أن أدير نهدي وأصدّ قلبي عنك أن تحاول
 الغفران. وأن ألبس دور امرأة بلهاء لمرة إضافية واحدة، لكنني لم
 أستطع. لقد استنفذت خيانات وائل المتلاحقة طاقتي وحملتني على
 القسوة. وربّما، أفترض الآن، حين دفعتُ لهفتي إليك كنت ألغي
 زمنا قتلتَه رجولات خائبة. آه لماذا أتذكر كلّ ذلك، أتعس قلبي
 الكذب. تفور برائحة امرأة وتدّعي أنّه صديق غائب صادفته على
 باب فندق الرشيد وحضنك.

قلت وأنا أتأملك في حالة سكر، أنت لا تجيد اختراع مبررات،
 وزعلت. ترى كيف نسيت أنّ هذا الفندق الرشيد بالذات مزارا
 للعاهرات؟ أفلت من نفسك فجأة، وفضحت جرابك وعطرك.
 لم أناقش الكائن الكاذب الذي بدأ ينام بيننا كي يشرّع انتماؤه. لقد
 أصبحت فكرة السطو عليك قاتلة جدا. ترى، لماذا كان من حقّك
 أن تفعل لي وممنوع أن أفعل لك؟ لأنني امرأة؟ ماذا يعني ذلك
 في شرع الحبّ مادام يقصف قلوب المحبّين ويجفف أرواحهم
 بالوحدة رجالا ونساء؟

- أ -

«ما يؤلمني فعلا أنني لا أعرف كيف أدافع عن حقّي فيك»، قلتُ وأنتَ لا تشبهك تحت ضوء الولاة الذابل، فضحكت. كأني ألقيت عليك نكتة ظريفة وليس مرثية كثيبة لن تراني بعدها. سكرت فيك الحياة بجماها وقبحها، ولم يبق منك غير ظل كأس فاحشة. كأن لا أمس بيننا. كيف استطعت أن تسحب سجنك وحرّيتك، منفاك ووطنك من بدن قلبي؟ لفتّ عليك الأسوار خيبتها، ومع هذه الخيبة استيقظت رغبة التدمير. قلتُ، وأنا أكتشف فيك رجلا لا أعرفه: «أثمّ يأتون ضاحكين، عيونهم تحرّضني دون توقف على الهدم». «هل أستطيع إنقاذك منهم؟»، سألتك برجاء. «لا، جيران الجدران البيضاء لن يخلّصني منهم أحد، سيأخذونك لو فعلت» جرّبت إقناعك أثمّ يعيشون في خرائب دماغك الخلفية فقط. لكنّك عنيد، وكما كنت تفعل دائما صرخت: «ماذا تخرفين؟ كلّ ليلة يخرج أحدهم ويدقّ سياج قميصي» - «إذن كيف أنقذك؟»، سألتك بألم، فسخرت منّي على نحو لم أتوقعه. قلتُ: «أنقذي نفسك يا سيّدي أوّلا». حينها قرفت منك، حقا قرفت، من سجنك وسجّانيك. أصدقاء زنراتك ونسائك وأسيجة قمصانك. وأردت أن أحرق ذاكرتي بعود الثقاب نفسه الذي أشعل سيجارتك الثملة. شعرت أنني المرأة التي ستحيل نار الحبّ إلى رماد. وكرهتك بصدق، أجل يا سيّد ورقي، كما أحببتك بكثير من الصدق وقليل

من الندم.

- ب -

جمعت حوائجي بهستيرية لم أعهد لها في. حرصت على اصطحاب دبّوس الدبّ الفضي الذي أحضرته لي مساء تتويج عام على لقائنا الأول. نبشت خزانة واسعة للعثور على الفستان العنابي ذي الياقة المنشأة، كان القماشة التي حرثت فترينات المدينة وواجهاتها، طولاً وعرضاً، كي يفتنها ذلك الدبّ الفضي، هدية سنة متألفة من العشق. لمعان الشهوة في عينيه الخرزيتين كاد يودي بعقلك حين جئتك على غير موعد مساء اليوم التالي إلى مقهى الباك دور. هتفت حين وجدته يغريك باحتضانه:

— لم أعتقد أنّ هذا الدب الوغد ساحر لهذا الحد. شحنتي كبرياء المرأة المدهشة بكاريزما مضاعفة لفتت أنظار الطاولة المجاورة إلي. هممت بالجلوس فانتزعت جريدتك وعلبة سجائر، وقلت:

— سوف نبحت عن مكان آخر، ثم أضفت: «هيا سيّدة ليلتي». لم أكن بحاجة لأكثر من كلمة صغيرة إضافية كي تستحيل أطراف فستاني العنابي إلى أجنحة تجوب حواري الليل وكواكبه.

أين اختبأ كل هذا الكلام؟ تلك الرقة؟ سيل أصابعك جنونا ورغبة؟ كنت مستعدة لطواف أطراف العالم في سبيل استرجاعها. لكن هل أستطيع إكراهك على أخذي دون أن أفجع؟ لم أملك إجابة. كلّ شيء بدأ يتحرّك حولي مخموراً بالشك. تجاوزت مرحلة الحنين، وضيّعني الشوق. ألقيت بعض اللوازم الخفيفة والضرورية

في حقيبة يد واسعة، أضفت إليها علبة أقراطي وخواتمي وسحبت أطراف أصابعي من غرفة ظلّت نائمة.
لم ألق نظرة المرّة الأخيرة على سرير حلمت بفرشه أيّاماً طويلة.
خفت أن أتعثّر بخطوي وأرجع ركضاً إليه، تعمّدت ألا ألمح وجهك أيضاً. نزلت حافية على الدرج. في غرفة الجلوس قبضتُ على عنق الهاتف وحجزت أوّل مكان شاغر في الطائرة القريبة إلى لندن، مدينة لون فاقد للذاكرة. سريعاً، ودون تردد، قررت أن لندن أفضل مكان للضياع، فضباها أجمل مكان للذوبان، ثم همست لنفسي: «هذه المرّة أنا هي من تصرّ على الذوبان، آخ يا رجل! قلبي لو لم تجعلني في أوّل قائمة العناصر لما جرّوت على التحلل بهذه السرعة».

غللت عنق الهاتف، واستدعيت سيّارة أجرة. وصلت الباب بحوائجي حين دقّت ساعة الحائط وأعلن رقاصها تمام السادسة والنصف صباحاً. كانت نصف قدم أمام الباب ونصف أخرى خلفه، حين انقسمت شهقتي بين الدقّة والدقّة. أهّي ساعة الوداع؟. الوداع كلمة لا أحبّها منذ رأيت أناساً يقولونها ولا يرجعون. ترى من أخذ واحدنا من الآخر؟ قمر المساء سيأتي منذ الغد إلى نوافذ خالية من وقفتك المتأملّة. عدت إلى الورقة البيضاء، أمسكت قلمي وقررت أن أكتب شيئاً يعلن استقالتي من مطبخك وفراشك، وعهرك ربّما.

لا زلت أذكر الجملتين المتعرّجتين تحت ارتجاف يدي واصطكاك أسناني. يومها كتبت شفاهي على سنّ القلم قبلات نسيت أن توقّعها. أين، أين؟ على شوك ذقنك القاسية. همست كما همس

رجاء بكرية

الآن.....

الباب الثاني

الفصل الأول

« يا سيّدي وحبيبي، كان يجب أن أمضي. المكان لم يعد قادرا على حمل كليتنا. هكذا أردت أن أعلن حبّي. بهذه الطريقة المتوحشة يجب أن أغادرك. فحين نحبّ أحدا يجب ألا نؤلمه كثيرا، ونحن نلغم مواقع عشقنا. العشق مثل الحرب، قضية ربح أو خسارة، ويبدو أنّي خسرت معك آخر موقعي. دون أن أنظر طويلا إلى الخلف سأغمض عينيّ وأمضي. لست جبانة تماما، ولكنني قويّة حدّ الجبن. ذكرياتي كلّها لك، ووداعي أيضا»

امرأة الرسالة
٢٠ مارس

__1__

تخضبت كنيّتي الجديدة بخارطة مفصّلة عن المحطّات التي جمعتك منها، والشوارع التي دفعت مقاهيها إلى مفكرتك الصغيرة. تدفقت أصوات نقاشاتنا كثيفة من حنجرتي وجبهتي. كنت عاجزة عن التخلّص من ضحكتك الممزقة على محاور الانتظار. ضحكتك المتدفقة تدفق نهر يخاف الركض حتّى النهاية. أحسست فجأة أنّ مدينتي تصبح أنت. لا مكان يخلو من تشويجات يديك. في كل مكان نحرّت عشقي كي أستبقي شيئاً من روحي لأيّام ستكون قاحلة. خيّل إليّ أنّي أقوى النساء. وتساءلت، ربّما لأقنع نفسي بطرافة الاعتقاد، هل استطاعت كليوبترا أن تعيش بدون يوليوس قيصر، وتحتمل سريرها ذنباً عاجزاً دون أن تطلق سمّ تلك الأفعى على وحدتها وتذهب؟

كنت أغادر لحظة سموّ يأتي بعد سقوطها الموت. أردت أن أظلّ على قيد الحياة. لم أفرّر في أسوأ سيناريو لأوقات اكتئابي أن أموت هكذا بسهولة، كنت أحبّ الحياة حبّ انسحار وليس حبّ انحسار. وهذا هو الفرق بيني وبينك. أعرف، لا تفكّر مثلي النساء. هنّ يتشبّثن عادة بأجماد عشقهنّ. ويعتقدن أنّ ملحمة التراسق بين جسدين مصعوقين حالة يجب اعتقالها. لا يفهمن أنّ القبض على جمرّة في طيّات محرمة يشعل تحت الماء محرقة.

2

قناعاتي كانت متطرفة، ولا يفهمها الرجال تماما. من كان يهمني منهم لحظة خيانتني لعشقي؟ أردت أن أبكي وأنا ألمّ تكتكات العقارب، وأدفعها إلى جيب سترتي. نظرت إلى السقف الذي يبكي عليه الشتاء ودفنت في قلبي وداعي المؤقت. كنت سأعود، لكن إلى مكان لا يقيم فيه رجل يدفعني للاكتئاب كلما فزّت أسيرة قميصه وعبقت بالضباب. لا أحبّ الضباب الذي يعمي الشفاه والأشواق، قلت لك.

كان يجب أن تنظر إلى عينيّ حينذاك كي ترى امرأة بدون أصفار. تكوي قمصانها وفساتينها، وتختال ثائرة الأعصاب. امرأة لا تشبه النساء، وهي تعدّ نفسها وحقائبها لخيانة. ماذا يهمّ أن تحسّ الآن، وتحبّ؟

نزلت رغبتني إلى ساقّي ونسيّت ضوعي برائحتك، وضياعي بقبلك. وذلك النهذ الذي لاحقه مثل طريدة بدا ساكتا، هامدا، ولا يريد أن يهرب إلى أيّ مكان ولو قصفته أساطيل العالم بالأشواق. أفهمت يا سيّدي لماذا لا أقبل تعثرك بذاكرة عادت إليك على نحو مضحك؟

__3__

في مطار تلّ الربيع حرّرتني حرس الأمن القومي خلال دقائق مفزعة في لطفها. لم أفهم لماذا لم أحتجز ككلّ مرّة، ولا كيف افتعلت العذوبة، وأنا أتخلّص من أسئلتهم. لقد اعتدت أن أسجّل تظاهرات احتجاج عارمة أمام كابيناتهم كتذكارات غير قابلة للتقليد. كأني خيّبت لهفتهم حين لمحو إشراقتي. في مطارهم كنت مواطنة في دائرة الإتهام، ودون حاجة لمكيعة وجه انتماي لدولتي العادلة، دائماً بقبّعة سائحة.

قلت حين رأيت الشرطيّة الشقراء تقترب بصحبة رجل وامرأة آخرين: «أرفع الراية البيضاء، هذه أوراقتي ومشاريعي، غيّرُوا بدلّوا، أنا غير مهيّة لاستجواب من أيّ نوع». ثمّ بشيء من السخرية همست لنفسي، كأنّها جديدة هذه الراية البيضاء، كأننا رفعنا لهم غير تلك الشراشيح أبا عن أب. لكنني فاجأتهم، بل لخمتهم كلماتي. لقد اعتادوا أن أحذّره، لا تنبشوا حقائبي نبش كلاب مدرّبة.

__4__

خلف الزجاج الذي يفصل المكان إلى عالمين، لمحتك فجأة، تحاول اجتياز حاجز العبور إليّ. لكنّ حارس الأمن محاً الأشرطة التي عبرتها عيونك الفزعة وسيجّك بممنوعات قانونه. للأسف ليست أسيجة قمصانهم، أولئك الذين أغلقوا السبل إليك، هي التي

وقفت بيني وبينك. جحظت عيناى بلامبالاة مدهشة. نظرت إليك محاولة استحضر وجهك منكمش التقاطيع لهذا الحد قبل الآن، فلم أنجح تماما.

هل أذهلتك حقا؟ هل أحسست فداحة خساراتك القادمة حين وجدت القدر يأخذني منك؟ من بعيد لوح لي شعرك، فلوح لك صمتي بدمعة كبيرة واحدة تدرجت كدموع أطفال الكرتون فوق خدي وذابت سريعا. استرقت نظرة أخيرة وأنا أضمم كتفا إلى كتف كي أستشف، ولو على خطأ، سببا معقولا لعشقي المتهور لك كل ذلك الزمن.

شوارع البلدة القديمة كانت تعج بالرجال والغزل، لكن قلبي كان ممتلئا دائما بمواعيد وهمية لم يتحقق ثلثها معك. وفهمت أنني عبت سحب الجنون التي أراها تحتشد الآن كقطع من الخراف الجائعة في عينيك. بينهما كانت صفارات إنذار همجية تبخ أصواتا مختنقة بكلام يتييم. كل ذلك كنت أمسحه بكعب جزمتي الطويلة، وأمضي إلى مكان أبعد منك.

— 5 —

امرأة بدون أحزمة هي أجمل النساء وأشدّهن دهاء وألقا. هكذا انفلق فمي بالكبرياء، وأنا أكشّ تعاستي معك. كأن شعرك لوح لامرأة غيري، واندهاشك من واحدة كان ينتظرها عشيقها على باب طائرة. هذه هي القسوة التي انتظرتها منك يا امرأة، هنأت نفسي بكآباتي القادمة.

اجتزت الواجهات الزجاجية الكثيرة وأنا أنظر إلى الخلف. حاولت أن أتذكر رقم الباب الذي احتجرك وقامة الشرطي الذي تغلب على جنونك. بدأت فمك المفتوحة تنتقل معي من شبّاك إلى شبّاك. من باب لباب. من كشك لحانوت. من كرسي لطاولة، وأنا أنظر إلى الخلف. كانت حالة الفقد تفرغني في كل مكان من قطعة قلب، وشيء آخر غير الروح كان ينبض وهو يطير. دون توقف ينظر إلى خلف لم تعد فيه. طيران الكلى والأمعاء هذا عرفته وأنا أخلع أبدان الرجال. هل كان وائل أفضل منك؟

__6__

كيف كشفت خطّتي؟ ومن أين استرجعت الإرادة كي تقطع شوارع طويلة ومعقدة؟ كيف عادت إليك الذاكرة؟.. هل فتن عليّ جمال؟ نبهته مرارا ألا يفعل. لكن يبدو لم يحتمل تسترا غير مأمون العواقب. فهم أنني أكرهك وأحبّك، واستنتج المسكين أن سكوته مغامرة من النوع الذي تحبّه ديمة. وجمال كل ما يزعجه في ديمة ولعها بمغامرات تافهة، وخُلقت أساسا للمتفرّغين والعاطلين عن الحياة.

يا امرأة، افرحي. ذهبتُ أفراحيك كلّها. انطلقي يا امرأة، ضباب بارد جدا ينتظرك ولن تجدي وقتا هناك كي تشاقي للشتاء.. أيامك ستبذل بالأعاصير، وستدفنك وحدة لا تملأها شتاءات عالم كبير مهما غنت أو رقصت. افرحي، تركتِ وسادة تنام بدون رأسك وشهوة تتخبط بدون جسدك، من سيلبسها بعدك، هل ستنجح

ميتروهات لندن هذه بدفع وطاويط الجسور القديمة إلى جسدك
 كي تحميه من حزن الليل؟
 ألن تلتوي عنقك وأنتِ تنظرين إلى الخلف؟ ألن تبحتي عن صوته
 وصراخ شعره خلف واجهات زجاجية تمشي حيث تكونين، شفاقة
 كالشوارع بيضاء كرؤوس الناس؟ افرحي يا امرأة، ودشني قلبك
 مدفنا للشتاء وللرجال العابرين. يكفيك وحل قلبك كي يحتضنك
 مثلما تحبين.

لست بحاجة إلى رجل يقول أحبك. يدورك بين يديه. يختم لهفته
 على شفتيك، يضيئك بين عينيه. لقد عفت المحبة كلها. ملأئك
 ندوبا. فتكت بك تماما، فافرحي، ليست فرحة كل يوم. هنا
 ستدفين حنينك كما دفنته على قبور الرجال. هذه أنت يا امرأة، لا
 تنزعي حاجبيك من شجر الأسئلة.

—7—

بشوق صغير والتواءات كثيرة إلى الخلف ابتلعها الضباب. ارتجفت
 قليلا، وهمست في سرها: «يبدو أنها مدينة تختطف الناس بكاتم
 صوت». كان رجال الضباب يمرون سريعا عنها دون أن تراهم.
 لم تستطع أن تنزع رأسها من خصلات شعر غسان الفالته. أكنت
 أحبك جدا؟ هامست خصلات شعرها الهاربة إلى خصلات شعره
 الغائبة. وخطر لها فجأة أن تختطف لندن كلها وتعود بها إلى حيفا.
 تعلّقها بأبراجها وضبابها على جسر لوي الساحر. تورجحها على
 جانبيه لتظل ترى شعره يلاعب دوائر ضبابها الأبح.

__ 8 __

يبدو أنها مدينة تحرص على تفخيخ الموجودات بالصمت. ولعلّه سرّ المدينة أخذها بهذا الاندفاع لمكان لا تعرف عنه غير الوهم. أكانت امرأة تعاشر أوهام الحياة دائماً، تحبّ وتعشق من خلالها، تكره وتعبد وتحسّ؟ لكنّها شيء آخر لم يجربّه غسان. شيء لا يعرف مواعده ولا تاريخه. من السراب يقفز مثل فقّع الشتاء الأوّل، ومن أبر الصنوبر.

بدأت تردّد كلّما لمحت شعره فالتا إلى الهواء: «الاستقالة المفجعة أفضل الطرق لحفظ ماء العشق». تقول وعنقها لا ترتد عن الخلف. وعدتْ نفسي بعدم الانصياع للمجد. الحبّ من ثقافة الأثرياء، وأنا امرأة يحبّها الفقر. تقنع جوعها لصوته وسجائره. ترى من جاء قبل الآخر، أفمه أم علب السجائر؟ كان لا يدخّن تماماً بقدر ما يقبل سيقان سجائره. ولقد قبلها أكثر مما رأت الرجال يفعلون، أغارت منها؟ كيف فعلت وهي تعرف أنّها المقبرة العصرية للحبّ؟ أتغار امرأة من مقبرة؟

تعد نفسها بعبادة مدينة مات فيها الرجال، واحتلّها شوقها. لمن ستشره مثل قطن الحقول على سترة الساعات؟ ولمن لمن تقول أحبك؟ ولمن هذا «الاشتياق»؟ لمن تشّاق وتبكي؟ أصبحت مثل طفل أضاع ألعابه وجلس ينتظر عاماً يأتي كي يجلب معه عيداً ولعبة. فهل الأعياد هي مرسوم الهدايا الوحيد الذي سيولّع قلبها بالزمن؟ لم تكفّ طوال حياتها عن البكاء، فمتى إذن تصبح امرأة

كبيرة ككل النساء؟

من أين يأتي ذكر برجولة فارعة كتلك، وعيون عميقة وسيجارة لا تنطفئ؟ تظلّ تحاور سؤالاته وتستفزّ أعماقه، لا تملّ وهي تنظر إلى الخلف، ولا تكفّ عن تجليد الأرصفة بضحكته. «بينك وبين هذه السيجارة حالة عشقية قاتلة لا أقدر عليها»، قالت، ودفنت ابتسامتها بصمته المتأمل خلف الثقوب الصغيرة لهاتف كف فضي. وأضافت: «تقبلها بنهم لم يلمع على شفاه رجل». صمت أكثر وهي تستحثّه: «إذن، لا تحتاج يا سيّدي إلى امرأة، اجعل من هذه السيجارة العاهرة زوجة وعشيقة». حينها لم يملك السيطرة على الثقوب التي غادرت فمه وثقبت جسدها بالقبل.

تسلّحت بأعماقه أمام ذلك الهاتف الفضي الغريب. لا تتذكّر متى اكتشفت على وجه التحديد حقيقة تسلّحه بناقل لصدى الفحولة. وأمام اكتشافها كانت ضحكته تتراجع مثل أصوات قاطرة تلقي بنفسها في أحضان واد عميق. كأنّه يتمرّن على فكرة انتحار غير مكتشفة. خافت عليه من الوادي ومن القاطرة التي لم يقلدها حتّى النهاية مرّة واحدة. يحدث شيء غريب آخر الضحكة. يفيق العصفور الذي يرى نهايته من إغماءته اللذيذة ويصفق منقاره بالهواء.

__9__

هي اليوم بدونه. تختبر انتحال ذاكرتها للأمكنة. تمر الأيام أمام عينيها مرور ذبابة. وهنا لا يوجد مخابئ للذباب، ولا لأيّ وكر تستعيد به شكل زنزانة على مقاس جسد. لم تعثر على خلاف أوكار صغيرة بناها الأطفال بين تلال الثلوج المترامية وألقوا بها إلى زوايا الطرقات. لكنّها لم تستسلم لنظافة المدينة، تماما، من أدوات القهر. أصبحت تحتلّ الأنفاق الأرضيّة ساعات المساء وتبحث عن بيوت لا يتحدّث عنها الناس. كان يجب أن تراه مصادفة ليس في مكان آخر، فالأنفاق بيوت أمثاله من الأغراب. وذات يوم كانت تعتقد سيأتي رجل مثله تماما، من مكان كتبت عنه الأساطير وغنّته المواويل. يقف أمامها مثلما فعل وتتقدّمه أقدام بنيّة أكثر من التراب.

10

كاظم خبير في يوم لندني بارد هو كل ما عرفته عن الحب الذي يذوب في تقاسيم الجسد، يتحلل في مفردات الشهقة ويرتوي من أبعاد الألم.

سُتْقِسِمَ لنفسها أنَّه الرجل الذي دعاها إلى الأنوثة بفن لم يسجله رفائيل ولا رفاقه في روائعهم. معه انسلبت، وتآكلت من شدة النشوة. فهمت أنَّ جسدها أجمل ما كتبه جميل عن بئينة وكثير عن محبوبته عزّة.

هل ظهر كاظم كي يغلق على نضالها المرهق في حقل الحب المشوّه؟ معه فهمت أنَّ الحب يأتي عن وجوه غير جميلة ولها رائحة كريهة كرائحة وجهه. اقتنصها تراب أقدامه أولاً. كان أشبه بحشرة أليفة دبقة. اعتقدت أنَّ مزارعة طبيبة ألقتها على ملابسها آخر يوم حصاد منهك. أرادت أن تتخلّص من دبقها المؤذي بسيقان سنابلها الصفراء. ويبدو أنها خافت على محاصيل السنوات اللاحقة، وكان يجب أن تجد حلاً للبصاق الذي يرطب الأوراق. ارتعت حين وجدته رجلاً طويلاً بأقدام حمراء صلبة.

تضيف كلما أغوتها لحظة لقائه بالكلام، كأنّ اللون يهيم كاظم في شيء. لم تكتشف أهميته بالسهولة التي خيلت إليها. لن تنكر، كان حشرة ذكية، وعلى قدر كبير من القبح الجذاب.

امرأة مثلها نموذجية في انتقاءاتها، حتى لبشاعات الحياة لن تستطيع النظر في رجل على شكل حشرة. رغم أنّها بشاعة غير مفهومة،

متأرجحة كخيوط عنكبوت، هشة وصلبة كأقدامه تماماً، حمراء وبنية كشاربيه الأشقرين. جميلة ودميمة كأنفه المقوسة ولثته الدامية. كان كاظم كل ذلك وأكثر! حشرة غريبة كلما دفعته عنها قربتها منها أكثر. في مرحلة متأخرة اكتشفت أن إصرارها على عزله كان حيلة الشوارع التي تمشي في رأسها وحيدة من أجل استبقائه

__ 1 1 __

هكذا إذن غافل حالات انكماشها على سكك الأنفاق الأرضية واستلها من وجه المدينة والشتاء. به أصبحت لندن أجمل، والضباب خظة خارقة لانجذاب من نوع جديد.

نعم، لا يمكن أن تكون قد أحبته، بل انجذبت إليه، كأنه انجذاب لا شعوري إلى خيطان حشرة. هذا ما اعترفت به في سرها، لكنها ظلت حريصة، ولم تصرّح له في أجمل خلوة عن هذا التداعي الغريب. لم تقل أنها لا تستطيع أن تتحرّر من تلك الحشرة الدبقة التي تتركه وتهاجمها كلما اقتربت منه، فأجفلتها. وكان هو يلح ويريد أن يفهم سرّ تلك الجفلة. يسألها وهما فوق أعلى ضبابة لماذا لا يروقاها الانكسار العجيب للبنّي داخل الأحمر فتهرب. لن تخبره أنها لا ترى لونا بل حشرة عجيبة تتجمل تحت اللونين، لئلا تؤلمه. هل بدأت تحبّ قبحه الجذاب إذن؟

لم تحب هواجسها المتلازمة معها. ثمة أمور تزعجه كما تزعجها لا تجيب هي ولا هو عليها. انشده حين قرأ ماضيها على رقائق الخبز

أثناء الغداء، وسألها كيف تلقى امرأة مثلها إلى عتمة الأنفاق. لم يصدق ما قالته حول رحلة الاكتشاف الوهمية في معابر مدينة لا تعرفها.

اغتاظ: «لكنّ الغرباء يكتشفونها فوق الجسور وليس تحتها». قالت: يجوز أنّها ليست غريبة، وربّما كانت هنا في عمر سابق. أصغى إليها، وانزعج وهي تغسل ذهنه بالضيق والبلبلّة.

كلامها الغامض يغبّر أفكاره. يشعر فجأة أنّ أفكاره رثّة ولا تحمل غير الغبار. تنتشر على أكمّاه وسترته الكاكيّة، حنجرته وتفاحتها المستديرة. بعيد أساييع قليلة سألته عن السبب الذي أتى به من بغداد عنقايدها جسور، وتراها حنّاء. سكت طويلا، ولم يقل شيئا. ابتسم ابتسامة بنيّة، بلون قدميه، ضائعة تقريبا بين الرغبة في البوح والامتناع، ثمّ نفّض كمّ سترته بأصابع كفّه وحلّم بليلة لا تظهر فيها نجمة.

كاظم خيبر

كي ينام جيّداً، وتبقى إلى جانبه قطّة السكك التحتيّة. النجوم الواضحة تعيده إلى ليل بلاده البعيدة. كم تبعد بغداد عن لندن؟ كم سيحبّ من القطط والنساء كي ينسى أو يتذكّر؟ وبغداد لا تستقبل غير نجوم مثقلة بالنجوم الثاقبة، كسجّانيتها وحكّامها. قلوبها عمياء ويابسة، ولا تشبه أبداً قلب هذه المرأة الناعسة في حضنه مثل قطّة التقطت من أحد المزاريب الجانيّة لمقهى يعجّ بالأثرياء والمأزة الفاخرة.

ذكّرتّه ببلاده، أجل، هي السبب الحقيقي في التصاقه بها على نحو قرّزها وأرعبها. بغداده. لم يعرف، وهو يديم النظر فيها، في أيّ عضو منها حضرت مدينة نسائه المؤجّلة. تساءلت في قلبها، وهو يجذبها إلى تفّاحة عنقه، أكّل ما يعيد الرجال إلى المدن درّاق النساء؟ لم يجب شأنه في مرّات سابقة عادت بغداد إليه تحت رسومات منامته، وأيقظت فلسطينيّة الصغيرة بلكرة من شعرها الأملس.

لقد أحبّ في صمتها أبواب أماكن لم يطرقها وطرقات تسير في شعر صدره وساعديه سير عربة لبيع المؤن الخفيفة، بحذر وأنفة. ونساء لم يتزوّجها. ترى هل ستقبل بأمثاله نساء لا ترى شجرا أقصر من نخيل دجلة؟

كان كلّما التمعت مدينته نجوماً في عينيها تذكّر نجوم بلده واستشعر أكثر برودة لندن الرقيقة. هو لم يألّف هذه المدينة برغم إقامته

الطويلة. ثلاث عشرة سنة لم تعود على أعمدة الكهرباء الوحيدة دائياً والشاحبة. «في بغداد يا فلسطينيتي الصغيرة، لا ينام الناس، يسلمون العتمة حتى مجيء الصباح، يخافون على السماء من الضياع في طريقها إلى أرجوان النهار» يقول لها: «يردّون الخرافة التي تصير كلّ يوم حقيقة، ويؤكدون أنّ أهل المدينة في عهد الرشيد تركوا السماء وناموا، فاختطف ثعالب الحقول التي وضعت لحراستها قرص الشمس الأرجواني واستبدلته بآخر أصفر». يضحك عند آخر الحكاية: «يعني ظحكت عليهم»، يقول بعراقية قحيحة. «تصوّرين إن الثعالب ماكرة لهذا الحد؟» يقهقه، ثم يقترب منها أكثر. لا تعلق، بل تتأمل ليل لندن الحالك من النافذة المقابلة وتفكر بشكل الثعالب التي تقدر على اختطاف شمس كبيرة. يضيف بعد قليل: «ويجولون الرشيد سيّب جيشه للجبال الوعرة كُرّمال يُعْثرون على الثعالب فاحترقوا وماتوا». يضحك هذه المرّة ضحكة أعلى.

تسأله لأوّل مرّة منذ بدأ يلوّن الشمس بما يحبّه: «وهل تصدّق ما يتداولونه، ولو على سبيل خرافة؟». فأجابها بسؤال آخر: «وهل سمعت خبراً تداوله الناس دون أن يحلّوه بالأكاذيب؟» سكّنت. ظلّ من تحت اللحاف والمنامة يحنّ، ويهمس من قاع حنينه: «من يعرف بغداد لا يتوقّف عن الحنين» كأنّها اعترضت قائلة: «ولو كانت مملوكة لدكتاتور توجّها أنثى وحيدة على رهط نساء؟ قبض زرّ منامته بضيق، وقال: «ولو ملكها ثانية جنس المغول والترّ، نشوة أنت ما تعرّفين كيف يصيبك حين تذكرين بلد كلها فيكي وما تقدّرين تشوفينها»

— 1 —

تذكرت وائل وأيام الحصار. تذكرت شهورا بدونها. أحتت يومها فقط؟ كان الوقت يترك بدننا ويعتزل الحياة. وتشعر، حين تضيق بها ملابسها أن الحياة لم تعد تليق بها. بلاه تتمزق من جلدها كل الانتسابات. بلاه لا وطن ولا رصيف، لا عدو بلاه ولا حبيب. تجوع على فمها الضحكة، وتعرس الدمعة، ولا تتوقف عن مد أصابعها النحيفة ليد وهمية تؤرجحها في الهواء، وتأخذها معها حتى أطراف رام الله، وتعود بها كما معها.

فهل وحده الحب يعرف كيف يوقع هويات الأيام التي تتعرف بأسماء وتواريخ ومحطات وباصات وعربات وخيول؟ إذن ماذا ستفعل السنة بباقي الأيام؟ هل تُجعلك مثل أوراق فائضة عن حاجة الخبر وتقذفها إلى حاوية النفايات، ثم تعلن فجأة أنها كي تبقى بدون كابة ستتخلّى عنها؟

تفاجئ الناس بما يخرج قهوتهم عن ألوانها وعاداتهم الصغيرة عن صباحاتها. أليس ما ينقصنا بالتحديد إضافة بروتين إلى الروتين ليكتسب مذاقا؟ إذن، لماذا تستغرب كلما استحدثت كاظم قصصا غريبة عن قطط ضائعة، وأطلقها إلى زقاقات مدينة بدأت تحلم بنخيلها؟ اسمها الأول بغداد، والثاني بغداد، والثالث أشواق، قررت أن تسميها.

أعاد وصف القصور، يجوز ألف مرة. كل ليلة ومساءة، لكنه بعد أن ينتهي يطلق عليها العلوج والذئاب. يأتي بهم من صحراء بمواهب

افتراسية عالية. القلط يدفعها دون توقف للطرق الفرعية حيث لا ترى أو يراها أحد.

مرة سحبته من نوم عميق كي تسأله عن علاقته بالقطط . شئو؟ سألها بانذهال. لماذا تستثني القطط من خطط الحياة؟ لماذا تنقذها دائما من الموت؟ حين استفاق من خضها العنيف لكتفيه ازداد ذهولا. لم يقل شيئا إنما أرسل عينيه إلى غلاف الظلام الذي أطل شاحبا من النافذة. دمد يومها شيئا لا تنساه، هزها، دون أن يدري، في الصميم. أعادها بريد رسالتها العجلى، التي كتبها أول مرة إليه، إلى غسان قلبها. كمغلف تاه طويلا في المكان وعثر عليه، غنى بصوت خفيض، وعيون مطبقة على نوتة انتشرت تحت جفنيه كقطن الجبال الأبيض.

كأن أحدا حرّضه على ذكرياتها، وأمره أن يقسو كي يضرم فيها الرماد. همس:

«دون أن تكون بجانبى، ما الذي أستطيع أن أفعله.. بدونك، يا حبيبي، ما الذي أستطيع أن أفعله؟ ليس هناك غير الزمن يتكفل بمسألة النسيان».

مرضت ذاكرتها فجأة. احترقت أسلاكها بكلمات أغنية فرنسية قديمة، هي كلّ ما فرشت به الورقة التوتية حين عثرت عليها، خالية من خرايش قلم الرصاص. وحدثت نفسها باستغراب: كيف يمكن لدفتر ملاحظات صغير حمل كلّ تلك الذاكرة الثقيلة؟ ولا بأس من الاعتراف بأسماء أذاعت صيتها على الهوامش الغاضبة. ما بعد المنتصف بقليل عثرت على لونها القمحي، وخطوطها الباهتة. وفي عتمة شديدة انحنى عليها وسجّلت ما يغنيه كاظم الآن. نقلت على سطور لا تراها ما ترجمه غسان من فم المغنية الشقراء.

__2__

كان اللقاء الثاني أو الثالث على الأغلب لهما في المسرح. وكانا كلاهما مدعويين لمشاهدة مسرحية فرنسية ضيفة على مهرجان المسرح التجريبي. هي كباحثة وهو كحالم. صدفة جلسا على مقعدين متجاورين. ليس صدفة، بل عيناها هيأتا ظروفها، كعب حذاءها البراق جذب بوته الرياضي الأسود. بعد قليل وجد الحذاء ان ظليهما الواحد في مواجهة الآخر. ابتسمت بحياء، أما هو فجذب أناملها باتجاه سيجارته ونفخ عليها.

ارتبكت وهي تنظر إلى الخلف كي تتفقد العيون التي تراقب استعراض أحدهما لجرأة الآخر. بسرعة تحسست مقعدها وأسقطت تنورتها القصيرة وصمتها الطويل. لم تلق شعرها على كتفه قبل أن تسحرها الممثلة الشقراء بلحنها. دعت بهمس إلى تفسير ما توزّعه حنجرة تلك الفرنسية على الفضاء.

إذًاك نظر إليها من قلب العتمة كأنها يراها للمرة الأولى وأشعل سيجارة ممنوعة على مرأى من الحارس، وضابط النظام. نفث طاباته الصغيرة على دبايس النساء، ولحن لها بلولبات الضباب المتراقص أمام شفثيه ما قيل، وربما أشرك سبّابته في خلط اللحن. خيل إليها، وهو يفعل، أن ألف رأس تنحسر داخل المثلث الصغير الذي يفصل رأسيهما. يومها فهمت، وهي تلاحظ مرور اللحظات بين أصابعه مرور دخان، أن الأغنية بشفافية بالون. يتوهج في جسده، كلّما ناورته فكرة .

على باب القاعة تأكد من تسجيلها لكلمات الأغنية. قال لها بأنها كلمات فاتنة وتصلح خلفية لرقصة تؤديها امرأة تلبس تنورة قصيرة بجوارب طويلة وضحكة غامضة مثلها. تلعثت وهي تمدّ دفتر ملاحظاتها مكان يدها. فضحك ضحكة تشلخ الفتنة من قاع السحر. ياه! كم أربعها صوته، هذه الخشونة الحارقة، من أين أتى بها ودسّها في قلبها. لغمها على غير دراية من فكرها المشغول بكلمات المغنية الشقراء.

__3__

هل اعتقدت قبل دندنة كاظم العابرة، أنها لا تزال تطلق مخالب حنينها في عين بطينها الأيسر مثل فوهة مسدس؟ وأنه سيظلّ يشهر رصاصه في شوقها كلّما حكّ الحاضر الغائب. إلى متى ستبقى مسلّطة تحت أضوائه كبلوزة بدون أكمام. ترى كيف سيتكفل الزمن بمسألة نسيان لا ينسى؟

كانت المرّة الأولى منذ سنة ويزيد التي تستلّه من خاصرتها علانية وتتأمل وجهه على غلاف أغنية. لا، لا تقصد، على غلاف صمت. لغة كاظم صامتة، دندناته، مواويله، أغنياته الضئيلة. أحزانه الكثيرة، أفراحه القليلة، أحاديثه على مائدة العشاء. حين يتحدّث يخيل إليها أنّ صوته يصدر عن شخص يجلس خلفه. حتّى شكله ظلّ بالنسبة إليها مشروع صمت. ربّما لأجل ذلك ازدادت قناعة

أنّه كتلك الحشرة المدبّبة التي يعلو أزيزها كلّما تضاعل حجمها.
تظلّ مغلفة بوجود غير معلن.

بقي كاظم صامتا رغم أنّه لاحظ شرود عينيها باتجاه النافذة.
كانت تحتكر مثلها مشاهد نادرة للشتاء. رآته يتساقط قطنا ضائعا،
وتحتضنه العتمة. طوال اللحظات التي أعقبت لحن الأغنية تابعت
قطن العتمة. وفي كلّ احتضان سريع للمعانه الخاطف تمت أن
تستبدل النافذة ذلك القطن بغسان وصهيل الأغنية. هذا الصهيل
العائد سيقصّها من سرير كاظم إلى مكان بعيد، إليه. اطمأنت إلى
انهياله الطويل وأسلمت أفكارها لحماقات ربّا ستعيدها مغولة
الشوق. إليه؟ وإلى شقّة تصغي دون شبع لتكات ساعة ورثتها
جدّته عن زمن الأنجليز.

هنا، قالت، لم تصادف ساعات يمشي فيها الزمن دون أن يتمنى
العدم. نظرت إلى كاظم مليّا محاولة الإمساك به. لكنّه لا يمسك،
كتلك الحشرة تماما التي تدبّق بخطوط اليد. حدّقت فيه بليلة
القلب، رأت دمعة جارحة تفرّ من جفنها. أرادت أن يسألها شيئا
عنها، أن يحاصرها قليلا حصار غسان لأنوثتها. لكنّه لم يفعل. لا
يعنيه الرجل الملتصع في دمعته ما دامت وحيدة في شقّته. تستيقظ
وتنام وفق كشكول رجولته الغريبة.

4

شهر، بعده شهر، بعدهما سنة. لم تنس غسان، توقظها دربكات شعره على كل زجاج قرّبه أو يمرّ بها. لندن هذه لعينة، لا تتقن غير الحفر، في الرأس ذاكرة، وفي القدم مكان. لا يزال غسان خلف نظرتها الجانبية فاغر الفم. ستترك كاظم إذا اقتضى الأمر. لم يلّمها مرّة واحدة كما فعل غسان. لم يقتل قلبها ويغفو فيه كي يلبسها. كل يوم يعرفها على صديق جديد، بدأ انزواؤها يقلقه. قال لها حين جمعها بعائلة جديدة أمس: «راح تفرحين بمرته، تعرف كيف تعملوا العوامة بفلسطين».

تبتسم، وتتخيل فلسطين حبة عوامة كبيرة، يأكلها جائع وينهي قضيتها إلى الأبد. ابتسمت ساخرة، هؤلاء الأغراب لا يعرفون عن فلسطين غير فطائرها وعوامتها. قالت، وهي تحدّق بتكويرة شفّته الغريبتين، كأنّها تتذكّر قضية غائبة: «فعلا، يجب أن نضع فلسطين داخل عجينة عوامة ونأكلها نحن واليهود كي ننهي خلافاتها ونريح العرب والأجانب منها»، ابتلعت ريقها من شدة انفعالها. حاولت أن تصوغ جملتها بكلمات أقلّ حدة لكنّ صوتها اندفن في قلبها وهي تتذكر سخرية غسان من كلام الأجانب عن بلاده وبلادها. سألها: «شو تقولين أتي، فلسطين هذي أول القبلتين وثالث الحرمين، ما يجوز تحكين عنها هيك كأني شي». قالت مداعبة: «بعض شي!»، همست وضحكت ضحكة عالية. فابتسم لها، وغمز بطرف عينه مبسمها.

لكنّ ابتساماته لم تعد تضيف رونقا لأيامها. قلبها يذهب إلى غسان كلما حملت ذكرياتها إلى حاوية النفايات. لم تنتظر طويلا، وهي تلاحظ استغراق كاظم بجسدها. بدا كأنّه يراها كلّ يوم برشاقة أوّل يوم. ذلك اليوم مدّ أصابع متوهّجة إليها، وهمس: «اقتربي، أريد أشمّك»، لكنّها فرّت، لا، لا أريد أن تشمّني بعد اليوم، ولا أريد أن أشمّ رائحة فمك المدّمة. كلّ يوم تغمض عينيها وتمنحه شفيتها كي لا ترى آثار الدّم الذي يتركه عليها.

لكن خلال اليومين الأخيرين خيلَ إليها أنّ عينيها بدأتا تشمّان رائحة قُبَلته أيضا. وهي لا تحب رائحة القبل، تحبّ نكهتها. هي لا تعرف كيف فرّت نكهة البريّة نديّة من فم غسان. أكثر من مرّة حاولت أن تستفسر وهو يدفع رائحة الغابات إلى فمها كما يدفع الهواء أسراب البجع إلى الغيم وهو يهاجر. ما هذا التشبيه الغريب؟ تساءلت بعجب، وأجابت وحدها- نعم، لأصوات البجع نكهة ذهاب كعشب البريّة.

بعد يوم فرارها قرّرت أن تنفرد بغرفة تخصّ ذكرياتها، في غرفة مقابلة لغرفته. الشّقة واسعة، همست لنفسها، وتحتمل ذكريات مدينتين. منذ الآن، أضمرت وهي تحدّق في عينيّه المستعطفتين، بغداد بين جدران الرّصاص، وحيفا بين جدران الأجاص. قرّرت وهي تسحب قلبها خلفها وتسرع إلى جدران غرفتها الأجاصية. كلّ من يرى جدران الغرفة تضجّ بحبّاته الممتلئة على ذلك النحو يخيلُ إليه أنّها على وشك أن تضرب رأسه. كم مرّة سحبت مدينتها إلى مدن؟ هي لم تنجح، فشلت في قمع عشقها لذلك الرجل الحالم.

5

هل يركض الحبّ في حيفا كما يركض في لندن؟ أكان سيطاردها غسان بين مقاهي أبو النّوّاس كما فعل في مقاهي شارع التوت في باريس؟ وشارع فكتوريا في لندن؟ وبييتزا الأكاديميا في فلورنسه؟ هي لم تعد تفهم إذا كان أحبّها بمثل ما طاردها. شيء واحد تفهمه الآن أنّها ستنكمش على نفسها مثل وردة وتعلن الموت إذا لم تهرب إليه. إذن ماذا تفعل برنين الهاتف الذي لم يتوقف ثلاث سنين طويلة عن النحيب في رأسها، كلّما دقّت ساعة كاظم كي توقظه إلى العمل؟ ورغم أن السّاعة التي تنام إلى جانب سرير كاظم ملحاحة ومزعجة إلا أنّها أحبّت يقظتها، ففي كلّ صباح كانت توقظ الرّنين الحالم لهاتف غسان الهامس. وكانت تستغرب، كيف يستيقظ همسا؟ غفوه السريع بمثل يقظته السريعة.

أحيانا كانت تستيقظ قبل غسان وتركع أمام سريره، تقرب شفيتها من وجهه، وتنفخ عليه. تراهن أن نفختها الخفيفة ستوقظه، وتفعل. كان يقبض على شفيتها بأسنانه الأمامية، ويسحبها إلى فراشه، ويهمس: «هكذا إذن، تنعفين روحك أيتها الجنّة المجنحة». تضحك: «هل تلاحظ في رأسي أجنحة؟» - لا، لا، يقول، وهو يقبض على مرفقها بيد، ويشعل باليد الأخرى سيجارة، كلّك أجنحة، حتّى شفتيك لا تهدآن، تحوّمان دائما كطائرات الشبح. كأنّهما ذاهبتان أبدا إلى مهمّة سرّية. يحتضن خصرها ويدفع كلامه مباشرة إلى فمها، أريد أن أتذوق عشب البريّة حقيقيا لمرة واحدة،

قبلاتك كلها فبركات سينمائية، تفنين للحلم داخل الواقع، «ولك من شأنو الله، بدّي أبوسك جد، تعرفين معنى البوسة؟»
يغمر وجهها بسياج ضبابه الأبيض ويلفّها بشوك ذقنه الأشقر.
لم يقبلها، بل كان يسطو على فمها، بدون ذلك لا تذكر أنّه نجح
مرة واحدة في الاستيلاء على شفيتها. كانت تحبّ مداوراتها، تعبد
ملاحقاته. يفهمها كما تريد، كان، أول انعشاقها. أين ذهب كل
ذلك حتّى اللحظة التي طار شعره الأشقر خلفها؟ حتّى تجاهلته،
حتّى بنت حول قلبها حجارة؟ حتّى عيّدت في عينيها القسوة؟
حتّى أحسّت هزيمة كبريائها؟ حتّى أصبحت دورقا لا يمتلئ في
الثلاجة؟ حتّى أصبحت إعلانا لحكاية موج زهقانة؟ حتّى رأت
جسدا بلون القشدة يملأ الفرشة؟ حتّى سرقت منها بنت ليل
أسرار البوسة؟ حتّى وجدت نعلها يدقان فضاءات عتمة واسعة
في عمقها، ولا تصغي غير أذنيها لانزلاقهما الاضطرابي أول نزول
النّدى؟ لم تترك الأرصفة قبل مجيء النّدى، حتّى أنّ أحد سكّيري
شارع أبو النّوّاس المعروفين أطلق عليها ذات فجر، وهو ثملٌ تماما
تسمية «أميرة النّدى».

أكانت تنتظر أجل من ذلك اللقب؟ في شارع أبو النّوّاس يحبّون
تتويج الأميرات، وربّما أحبت هي أن تكون إحدى أميرات
الشارع، أين المرأة التي لم تركض خلف لقب؟ هي ركضت خلف
رجل، يجب أن تعترف كي لا تختلط الأمور على قارئها.

6

أغلقت عليها غرفة أجاصها، وتحصّنت بين حبّه الممتلئ. ثلاث سنين طويلة، وهي تحت رائحة فمه الزنخة، ألف مرّة ذكرته: «يجب أن تذهب إلى طيبب الأسنان»، وألف أخرى مثلها قال سيذهب. لم يذهب، ترك الدم يسيل من لثته ليلاً ويغرق المخدّة، وهي تنظر إلى انحناء رأسه بتقرّز. لا تستطيع أن ترى كلّ ذلك ولا تحتج. ستعصم غرفتها الجديدة ومعها مدينتها البعيدة، وبين الأجاص الأخضر ستستذكر الواحدة ما غاب عن بال الأخرى من رهانات وخسارات.

ترى هل جلبت إلى لندن غير خساراتها؟ وكاظم هذا، سيكون إحدى خساراتها الأخيرة. هي متأكّدة أنّها ستدخره إلى أوّل رصيف تصادفه حين يلبسها عشق غسان ويفقدها صوابها. ثمّة لحظات بالغة الارتطام بالقلب، بعدها لا يفهم غير لغة الفقد والخسارة دون أن يحسّ بالندم.

هل نسيتك غسان كي أبحث عن سبب يعيدني إليك؟ همست، وهي تعاین الأشكال الغريبة لحبّ الأجاص الذي يتزاحم خلف رأسها. زحفت مع الفرشة التي استلقت عليها حتّى منتصف الغرفة. ماذا لو سقط الأجاص من الجدران، وضربها أثناء النّوم في منتصف رأسها. مدّت أصابعها أمامها، وتلقائياً تحسّست شعرها، ثمّ التفتت إلى الجدار خلفها، وسرحت في البعيد. تساءلت بقليل من الحمق:

ماذا لو قررت تلك الأجاصة أن تصبح حقيقية تماما، وتهدى نفسها إليها؟ أغمضت عينيها وتخيلت أنها تقضمها وتتلذذ بطعمها حين دق كاظم بابها، ودعاها لشرب الشاي. انتفضت كلها، ومعها الأجاصة التي لم تنجح في أكلها. كانت جائعة، ولا يملأها غير تلك الأجاصة الملعونة. ظلت كذلك وهي تصغي لنداءاته خلف سكرة الباب، وتستعرض شكل الناس الممتلئين بأكف بعضهم، قلوبهم وشفاههم. هي بقيت تمسك بيد وهمية تتخيل أنها تلاحقها وهي تجاور قامة كاظم الفارحة. لم تشعر يوما واحدا أنها لها. ظلت قطعة سكك منسية، يد غسان تتحسس فروتها، وشعره الهارب إلى الخلف يركض خلفها. من كل بناية ونافذة تشوّح لابتسامتها الغامضة. تظل كممسوسة تتلفت يمينا وشمالا، وسط عجب كاظم واستهجانه، كأنها تتوقع أن تعثر عليه دون قصد خلف إحدى البنايات التي تمرّ بها.

ناداها ثانية، قال إن الشاي سيبرد. منذ متى أحبت شايه المز؟ كانت متأكدة بأنها أيام قليلة تأتي، وتذوب بعدها مثل ثلج لندن، وعشاقه. لم تصغ إليه في المرة الثالثة، اندفنت تحت اللحاف الساخن، وحلمت مع إجاباتها بتذكرة السفر. لن تجد صعوبة بتوفير ثمنها، فكاظم كان حريصا على تزويدها بالجنيحات من حين لآخر. وكانت هي تدّخر بصمت ما يتركه على طاولة الزينة.

لم يسألها يوما أين تذهب بالنقود، ولم تسأله كيف يمكن لكندرجي أن يعتاش من مهنته في مدينة صعبة المراس كلندن. لكن الحقيقة أنّ أرباحه كانت في ازدياد حتّى أنّه اضطر للاستعانة بعامل إضافي كي يلبي طلبات الزبائن المتكاثرين عليه. في مرحلة متأخرة أخبرها

أنّه ابتكر قصّة جديدة لحذاء شتوي رآه في إحدى فترينات بغداد. أضاف ضاحكا: لم أعتقد أنّ أحديثنا ستلقى هذه الشعبية في مدينة لا تحفل بالأدمغة. كان مشدوها بالقفزة التي حققها ذلك الحذاء، ظلّ يتساءل أمام إبريق الشاي عن السحر الكامن في بساطة شكله. كان الحذاء إحدى القصّات المنسيّة في سوق البصرة، ولحظة قرّر استنساخها لم يخطر بباله أنّ الأقدام ستخطفها على ذلك النحو اللافت. فكّر أنّ يستذكر بلاده وحسب، شأن الأشياء الكثيرة التي ينجزها. قالت له وهي تتأمل الحذاء المعروض إلى جانب إبريق الشاي: إنّ الحنين الحقيقي يجب أن يبدع بأيّ حال. استدارت نحوه، وتأمّلت وجهه هذه المرّة، ثمّ ابتسمت له بعذوبة، كأنّها ترى فان كوخ يصبغ العالم بأصفره، ماذا لو صبغ كاظم العالم بأحذية العراق؟ تساءلت بانبهار. وكان هو يحدّق بخطوط وجهها الفاتن وينتظر أن يحدث شيء. تقترب منه مثلاً، تحضن رأسه، تداعب شعره، شيء ما يُخرج الأيام عن مألوفها. تأملها، وتحيل أنّه يعصر قلبها في قبضة يده، ويكتشف سبب انكماشه. أمّا هي فظلت تتأمّله ولا ترى غير فان كوخ يتابع صبغ الأقدام بلون حنيه.

7

لم يقرأ أفكارها، ولكنه أحسّ، وهي تتأمّله بهذا القدر من الودّ أنّها ترى أحدا غيره يجلس مكانه. لم يكن بحاجة لكثير من الذكاء كي يفهم أنّها ترتّب مفاجأة لشتاء لندن القادم، وقال، كأنها يهدئ من روع نفسه: الشّاء الخامس سيأتي بدونك إذن! لم يعد يرى وجوه

النساء حين اشرأبت أعناقها من ذاكرته، لقد عبأت هذه المرأة عينيه تماماً، كما لم يعتقد.

غيّمت لندن، وأمطرت الحياة التي رآها آتية بدونها، هكذا اعتقد: «نشوة لا تفاجئ إلا من يعرفها»، هكذا همس لنفسه، وهو يتعرق برحيلها الصّعب، لكن ربّما ستعود ذات يوم. «بعد أن يذهب إلى طبيب الأسنان»، همس لنفسه وضحك بوجع. لو كان طبيب الأسنان السبب لزار أطباء المدينة، لكنّه كان يعرف أنّ الفران تقرض رأسها ليل نهار دون أن ينجح مرّة واحدة بالقبض عليها.

الفصل الثاني

صباح ذلك اليوم الخريفي أيقظها طرق الريح للنافذة. رأتها تلاعب مزاجها على نحو مثير، بل وخيل إليها أن الأجاص الذي يفرق الجدران على وشك أن يتدحرج فوق البلاط. عاصفة ذكية هذه، همست، وهي تقيس عنفها بقوة اندفاع الدم إلى صدغيها. دفعت غطاء السرير الدافئ، لا يزال، ومدّت أصابعها إلى الكومودينة تبحث عن سيجارة وعود ثقاب حين احتجت ساعة كاظم. صخب جرسها يذكرها بصراخ طفل لحظة عناد، كأنها تحتج على تجاهله لها.

1

ابتسمت بشيء من الدعابة وهي تتخيل الساعة مصرة على يقظته. أصغت لخطوات شحاتته، ثم ماء الدوش وهو يفتح عن آخره. يدندن بإحدى أغنيات فيروز القديمة. تسمعه وهو يخرج بالأغنية مغتسلة ببخار البانيو. حين يدخل المطبخ تتضح كلمات الأغنية. تبتسم لكلماتها وتغني في قلبها معه: «في قهوة عالمفرق، في موقدة وفي نار، نبقى أنا وحببي نغمرها بالأسرار. جيت لقيت فيها عشاق اتينزغار، قعدوا في مقاعد.. نا، وسرقوا منّا المشوار» عند المقاعد

يتوقف، تسمعه يحرك السكر بالملقعة، ويدقها برفق بالزجاج.
ترحف على ركبتيها، وتقرب من الباب، تبحث عن الأغنية.
لحن خفيض جدا ينبعث تحت قطرات المطر الأولى، حزين مثل
حكاية الحذاء وبغداد والوحدة. تستعذب صوته هكذا، صباحا
تجبه كأنها تصادفه للمرة الأولى. كل صباح تفكر فيه بطريقة
مختلفة حتى يحنقها حنانها. بعيد لحظات تسمع رشفه المزعج لكأس
الشاي. تعود ثانية إلى الفراش وتتكور تحت الغطاء الساخن.
ستبحث الآن عن طريقة لمعرفة الوقت دون أن تنظر إلى ساعة غير
موجودة، تعتقد أنها السابعة. بعد قليل سيغادر إلى عمله الصغير
ويتركها تتأكد من رغبتها في المغادرة. هي فقط تنتظر اللحظة التي
سيغمر عليها من شدة الفقد.

— 2 —

سوف تذهب إلى غسان. وإذا وجدته متخما بامرأة سواها؟ هل
ستعود للبحث عن معمل كاظم؟ يجب أن تكون امرأة سريعة
البديهة، وتجب على تساؤلات قلبها وفق معطيات الحاضر التي
زودتها بها صديقتها ديمة. ستعود إلى يافا. في مدينة بارترفاع
كبريائها وشوقها، وسوف تؤجل شوارع حيفا ومقاهيها إلى حين.
وعدها ديمة بترتيب مسألة إقامتها، فوالدها مقاول عقارات مهم
في يافا، وسوف يهتم بالعثور على بيت يطل على المينا حسب طلبها.
ولقد لفتت ديمة نظرها إلى خبر تنافسته الأوساط الثقافية في يافا

حول حاجة مؤسسة القطّان للدراسات الفلسطينية عن باحث ذي كفاءة لإنجاز بعض الدراسات في المسرح الفلسطيني. لقد اتخذت المؤسسة قرارا بفتح فرع لها في يافا بهدف توطيد العلاقة بين الداخل الفلسطيني وخارجه. هل تحتاج بابا أشدّ اتّساعا من مؤسسة القطّان؟

ذكاء ديمة لحمها، لم تعتقد أنّها ستتجاهل أخبار غسان لدرجة استبعاد كل ما يقود إلى شارعها، وبيتها. كأنّها لا تعرف أنّ صديقتها تعود لأنّها عاجزة عن نسيانه. ولأنّها لا تكف عن عشقه. كيف يبدو شكل المدينة بعد هذه السنوات؟

كانت تشر على الضباب الذي تراه من مكان انكماشها تحت الغطاء موقع القلعة، وهي تطلق سيجارتها المحترقة إلى زجاج النافذة العرقان، ثمّ تعود للانغمار بذاتها. ربّما كان الزجاج يفكر معها، ويمسح انفعاله مثلها بحرارة أنفاس ذكرياته.

تنفعل فجأة حين تلمح شعره راكضا بين ردهات تختفي خلفها، كأنّه لم يغب كلّ هذا الزمن، وكأنّها لم ترمه تحت قلبها خمس سنوات طويلة. تلقائيا تمدّ أصابع يدها أمامها، وتبدأ العدّ إصبعاً إصبعاً. كل إصبع بدونه عمر بلا وزن وبلا كثافة، مثل الهيليوم.

— 3 —

من أين فَرَّ هذا الهيليوم؟ مثل كاظم! حقا مثله تماما، همست وهي تتخيل مشيته المتأنيّة تحت الشتاء. يبدو كأنّه يتأرجح. لم تره في موسم آخر، ربّما لأن فصول لندن كلّها شتاء، أكان سيقها فيها غير الرحيل الحلمى إلى السماء؟ تسمعه يقترب من غرفتها في طريقه إلى الباب. كأنّها لحظة يغادر تحنّ إليه. كأنّها تعترف بحاجتها لأن يبقى، ولا يذهب إلى الأحذية. كأنّها نثرت صوتها على معطفه بعد مجّة سريعة، ونادته. كأنّها قبضت سكرة الغرفة الموصدة، وهو يتخفف من قهوة المفرق، يضرب بها وجهها دون أن ينظر إلى الخلف. يدبّس الباب ببطء كي لا يوقظها ويذهب. تحدث الأشياء تباعا، بسرعة وانضباط. كأنّها تركت مكانها، كأنّها لم تبق نائمة، هي تحت الغطاء، وسيجارتها فوقه.. باردة تحترق، حقول من الهواجس تفصل بينها وبين المرأة التي تعصر عنقها.

توقف المطر قبل أن تنتهي من سيجارة الصباح الثانية، وبدون قهوة. لن تكره شيئا كرهها لسيجارة بدون بن وهال. أزاحت عنها الغطاء، وركضت إلى المطبخ. أشعلت عين الغاز الصغرى، وأخرجت آخر ما تبقى من بُن ديمة. هنا لا يمكن العثور على رائحة الأماكن في قهوة الصّباح، لولا ديمة لرجعت بذبحة مزاجيّة منذ الأسبوع الأوّل. حرّكت الملعقة عدّة مرّات داخل الماء الساخن، ثمّ أضافت ثلاث ملاعق بُن صغيرة، تئاءبت تحت بصرها أربع مرّات متتالية.

كانت على وشك أن تقفل العين حين تذكرت ملاحظة غسان،
 أوّل مرّة رافقها إلى مطبخها الصّغير لإعداد القهوة. استوقفها
 قائلاً: «انتظري، وستشربين أذوق قهوة في العالم». سخرت من
 عالمه: «في العالم!». تقدّم من العين المشتعلة، وأضاف ملعقة ورّبع
 صغيرة من سكر الشمندر. تتأبّت مرّة واحدة، ثمّ سحبها، وهو
 يعدها بشيء لا تصنعه سوى قبائل الغساسنة. ضحكت يومها
 وهي تكتشف فكاهته. تتوقف لحظة وهي تعيد الغلاية إلى مكانها
 فوق عين الغاز الشحيحة. تركها تتأبّب على مهل ثمّ تسحبها كما
 فعل، بحركة مسرحية أنيقة. كأنّه يراقبها وهي تفعل. تنفّذ حركاتها
 بحرص ودقّة.

تجلس في الصالة، وتطلق صوت فيروز على لندن كلّها. ترسل
 نظراتها إلى الستائر الحاملة حلمها. شعر غسان لا يزال مرتداً إلى
 الخلف، يغتسل بقطن أبيض. تشعل سيجارتها الثالثة، وتحقن
 فنجانها ببنّ الصباح. نفشي شوقها لمدينة ما عادت تطيقها بلاه، في
 قهوة عالمفرق، في موقدة وفي... نار... لن تسكت، لن لن..

بعيد لحظات سقطت رعود قويّة في منتصف دمعته وتألّقت بكل
 لون على خديها الساخنتين من شدّة الانفعال. مشّت إلى درج طاولة
 الزينة، ومدّت يدها إلى الدرج السفلي. سحبت بسورها وألقته
 تحت لامبة مساحيق التجميل. مسحت بمشط يدها عنه الغبار.
 حدّقت طويلاً في المرأة، وتحسست قنوات الدمع التي انحفرت
 على محيّاها الجميل. تحولت إلى النافذة فرأت غسان يغتسل بالمطر
 والقطن. لم تذكر حينها أنّها بدون بنّ وبلا سيجارة.

4

« كتبت كلماتها على ضوء القمر » ، قال وهو يحرك قطعة السكر في كأس الشاي . كان منغمرا بأنفاسها ، ينظر مرة إلى القطعة التي لا تذوب ، ومرة إلى الرسالة . وجدها مستلقية على طرف الطاولة قريبا من زهر الدفلى الأبيض ، كأنها تزقه ، أو كأنها تكفنه ، أو كأنها أي شيء من هذا القبيل . لن يقترب من هذه الورود الشقية ، حدث نفسه . وتساءل بعجب لأكثر من مرة : من أين أحضرتها ، ودفنتها كما يدفن كفن في قلب الزهرية ؟

رائحتها مثلها تدوخه . بقي من بعيد يحرق بقطعة السكر التي لا تذوب ، وبالجزء المنحسر تحت شرشف الطاولة الممزق . ماذا قالت للورقة ؟ وماذا فهم الدفلى من كلامها حتى يظل مفرفحا ومنتشرا بالرائحة .

كأنه كان خائفا أن يكسر ضرب قلبه العالي ضلوعه . توقع أن تغادر ، لكن ليس بهذه السرعة . « منذ سحبت نفسها إلى غرفة الأجاص تلك » ، ابتسم بمرارة ، وهو يصغي إلى صوتها يردد عنه . اعتقد أن رأسها وقلبها قد أبرما اتفاقا ما ، وسيهربان بها كما يفعل تجار البضاعة المشبوهة بصناديقهم ، هل استحالت نشوة بلمع الضوء إلى حفنة أشواق مشبوهة ؟

حين تحللت قطعة السكر إلى جزئيات رفع كأس الشاي بين إصبعيه ، واقترب من الوريقة البيضاء . مدّ عنقه باتجاهها فعبقت رائحة عطرها فيه ، ومعها عثر على شيء غريب . سطر قصير ، أقل

من جملة، وأكثر من عبارة. التمتع في عمق الورقة كنجمة ضالّة، «حين سيهبط الليل..» هذا كلّ شيء، ومن بعد الفعل الحائر نقاط ثلاث. أتلاعه؟ يجب أن يعترف الآن أنّها بقيت مثل سطرها، لغزا محيّرا.

مرّت في خاطره السّطور الكثيرة التي ملأت بها صمته بمجرد أن حرّكت غرضا على الطّاوله، أو وشوشت أناملها ستائر النّافذة. ذوّ بها لحن، أو أضاءتها شمعة. سوف يطلق عليها تسمية من بنات قلبه، امرأة الشّموع. داخل الشّمع الدّائب تتحصّن نشوة راقصة. نعم، لم تجرّب أن تكون نشوة صامته. وكلّ مكان ذهب مع إليه رقصته، هل تغريه هذه الذّكريات الخائبة بالغفران لها؟ ثمّ تراجع بسهولة. هو ليس غاضبا تماما عليها، لكنّه حزين على انذاب قلبه. «لقد أحبّها طوال السّنوات الفائتة بتكتم شديد»، كان يصارح قلبه، ربّما أخطأ حين استسلم للصّمت.

— 5 —

قلب الورقة على وجهيها مرّة ومرّتين وثلاثاً. ثمّ أعادها إلى مكانها تحت الدّفلى، وأرسل نظراته إلى النّافذة. منها كانت تحلم بالدّنيا، وتكتب العالم. لندن، وكلّ المدن التي سحبتها من الذاكرة. وكان هو يعجب من اتّساع مداركها. ذات مرّة سألته عن الدّهاليز السريّة التي يستنزف بها النّظام في بغداد المعتقلين الأئمّين. لم يعرف بماذا يجيبها، حين ألحّت على سؤاله اتّسعت أمامها صورة غسان داخل الزّنزانة، بل وحاولت أن تتصوّر تخطيطا معقولا

لغرف التعذيب التي يدفع إليها السجناء الأمنيون في السجون الإسرائيلية. فيها تحدث أمور كثيرة، لم تستطع أن تهرب تفاصيلها في كفة بنطالها الضيق. لكنه حين سألها عن القنابل البشرية ضمت حاجبيها باستنكار وضيق. كأنه قبض إذاك على عنق قلبها، وأفشى سره. أحس وهو يزداد قربا من عينيها المتراجعتين إلى الدكنة أنها لم تفهمه. اقترب منها، وهمس أنه يقصد العمليات الاستشهادية. انفعلت من سؤاله أكثر. أرادت أن تقول شيئا، لكنها امتنعت في اللحظة الأخيرة.

لاحظ ارتباكها، لم يرها من قبل هكذا. استدرجها، فتركت كأس شاها نصف ممتلئة، وأسرعت إلى المطبخ. «كل النساء يتسربن تحت الأواني حين تعصف بهن أزمة». بعد قليل تحدثت إليه من المطبخ. صرخت، وهي تخبره أنها ستستغل النصف ساعة القادمة لتحضير بانكيك لذيذ، لم يتذوقه طوال حياته، «أحلى بانكيك بالعالم»، همست بصوت خفيض، كأنها قررت أن تتذرع بالحلم من أجل الهرب. ضحكت من قلبها، وهي تسرع ثانية إلى الصالة الصغيرة، تتوقف أمام المطر الذي انهمر بشدة، وبلل الستارة. شددت مريول المطبخ إلى خصرها، وثبتته حول عنقها، وهي تدندن: «رجعت في المساء..» كأنها إذ تنزّر بتلك القماش الغريبة تنزّر أفكارها وهواجسها.

«امرأة حريصة» همس في قلبه، وهو يراها تتأمل انهار السماء، كأنها تقرأ سجل حياتها. التفتت إليه حين أحست به إلى جانبها، وابتسمت. ثم دندنت لحنا آخر: «سيد الهوى قمري..»، وإذاك علّق: «لماذا لا تشتري مجموعة فيروز كلها؟». - «لكننا نملكها؟»

سارعت بالقول. واستغرب، أين هي إذن؟ أتحفظين بها داخل
 المخدّة؟ ضحكت من قلبها ضحكا عميقا فاتنا، وهي تقترب من
 أذنه وتهمس: «هذا سر لن يكشف عنه إلا في حينه». حين مدّ أنامله
 يريد تحسّس سفح وجهها الرقيق هربت إلى مدوّر الأسطوانات،
 ودسّت قرص المساء في العلبة الدائرية ببطء وحذر. ثم غادرت
 بعدو راقص إلى المطبخ، وهي تدندن، لكنّها توقفت عند آخر الممر
 فجأة كي تذكره، أو تتذكر: «ستأكل أذوق بانكيك بالعالم!»

تأمل

أتذكرت غسان حينذاك، وهو يمسك بغلاية القهوة، ويعلن أنها ستشرب أذوق قهوة بالعالم؟

على مقعد الطائرة عادت إليها الذاكرة. والبانكيك الذي قدمته المضيفة كتحلالية بعد وجبة الغداء ذكرها ببانكيك شارع التوت. رجلان اثنان تبادلوا الدهول وهما يتغرمان بشكل البانكيك الذي تدنيه من فمها. كانا يعرفان تماما أنها تفكر بأحدهما، وهي تلتهم تلك العجينة الصفراء بجوع حقيقي. هي ساورها الشك للحظة، وهي تستعيد شكل الشيء الذي تمضغه، مستمتعة برائحة نضوجه. أكان يشبه ولو من بعيد أذوق بانكيك بالعالم! هل أعجب كاظم، حين قدمته على الطبق الفضي، أم أنه داهنها كي تقتنع بأن لها مستقبلاً في فن الطهي؟

تتواطأ الآن مع نفسها، وتعترف بأنها تمنّت أن تصبح، ذات يوم، امرأة ماهرة في صناعة الحلوى، أمهر طاهية. لكن غسان لم يداهنها حين عرضت عليه فنّها المتميز في صناعة الباستا الإيطالية، بل أعلن بشيء من اللامبالاة أنها صناعة سيّئة، وأنها ربّما تحتاج إلى قيلولة خارج أوراق البحث كي تمرّن ذوقها على هذا الفنّ المستورد.

ذهلت من تلقائيّة ردّه، لكنّها تجاوزت أثر هذا الاستخفاف الصريح على غمازتي خديها. ظلّت تداوره وتتودّد إليه حتّى ابتزت

اعترافاً بأنّ الباستا عالميّة. عندها فقط تركته يحتضنها كما يحبّ،
 من خاصرتيها، يعصّ حلمة نهدها الأيمن، وينثرها فوق السرير
 كحفنة ورد يظلّ يغمس أصابعه العشرة في سكر رحيقها ولا يمل.
 لقد فهمت أنّه يمرّ بحالة انكسار خطيرة يجب أن تمدّ لها جسراً
 من رغبة وحنين. وكان يجب أن تستبقه بحنكة، لذلك خصّصت
 إحدى غرف بيتها لنزوات أضوائه، كما أسمتها. أرادت أن تنقذه
 من احتراب الزّمن حول فنّه. ترى هل توقّعت فشلاً ذريعاً كالذي
 آلت إليه؟

__1__

__ مدام، هل تشربين قهوة؟ (قطع نرف هواجسها صوت المضيفة السّماء).

رفعت بصرها، وتأمّلت ملاحظها قبل أن تهمس: «إذا سمحت»، وأضافت للعبارة ابتسامة ضيّقة.

سكبت المضيفة القهوة داخل الفنجان البلاستيكي، ومدّت يدها إليها بالقرص المدوّر كي تتناوله، لكنّها وهي تفعل ارتجفت أناملها، وأفلت منها. انسكب بلون العتمة الّتي قبضت قلبها على البليزر الأسود. لحسن الحظ لم يؤذ جسدها، بل مرّ صفحا عن البليزر إلى أرضيّة الطّائرة. احمرّ وجهها بمثل ما اسودّ قلبها. غمرها فألا سيّئا من فكرة السّقوط المفاجئ لفنجان المضيفة. لقد قبضت على الفنجان البلاستيكي بحرص، فلماذا وجدته مباشرة أمام قهوتها وأناملها يأخذ الفنجان عنها. يقبضه من أذنه كطفل صغير كأنّه يخاف أن يضيّعه. تعرف أنّ الكأس بدون أذن، فلماذا خيّل إليها إذن أنّها فنجان وليست كأسا، وبحثّ لها بحمق لهفتها المعتاد عن أذن كالّتي لفنجان قهوته؟ انتزعت نفسها من كرسيّها للحظة رغم دعوة الكابتن ركّاب الطّائرة لشدّ الأحزمة.

أمام تأقّف المسنّ الّذي جاورها نفضت تنوّرتها وبليزرها، واعتذرت له وللمضيفة الّتي عادت تحمل فوطة مبلّلة، وبعض الأوراق المعطّرة، مدّتها إليها، ورجتها أن تعود إلى مكانها وتشدّ

الحزام حتى يتم تجاوز مرحلة الخطر. فعلت دون أن تنجح بالتخلص من ارتباكها. شدّت الحزام، ونظرت إلى أناملها المرتعشة كأنها تعاتبه لأنه لا يتركها لنفسها قليلا، ولأنّ فنجان قهوته فَبْرَكَ لكأس قهوتها أذنا وهميّة، دفعها إليها بمنتهى الجديّة.

بعيد لحظات عادت المضيفة تحمل كأس قهوة جديد فوق القرص الكحلي المدوّر هذه المرّة. قدّمته إليها، وهي تبتسم. رفعت نظرات ساهمة إلى المرأة السّمراء التي لا تعرف عنها غير قهوتها، وتردّدت. خافت أن تعرّف هذه المرّة وجه المسنّ الذي يراقب المشهد بشكّ وتحوّف. التفتت إلى وجه المرأة فوجدته منفرج الأسارير يشجّعها بهزّة خفيفة من غمزة ذقنه. حين مدّت يدها، هذه المرّة، كانت تتجاهله عن قصد، وهو يضلّلها ثانية، ويحرّضها على أذن أكبر نبتت خلال الدّقائِق الفائتة للكأس الجديدة. لهذه الدّرجة حاولت أن تكون واقعيّة، حتّى أنّها لم تلاحظ خلاف القرص الكحلي، وهو يدعوها لانتزاع ما يثقل عليه.

لا يمكن لغسّان إلا أن يستدرجها، ولو بقطعة سكر وهمية تقفز من الهواء إلى فنجان قهوتها. ستلاحقها كما لاحقت أذن الكأس، خياراتها قليلة حين يتعلّق الأمر به.

فاجأت نفسها حين تبدّل المشهد أمام عينيها وعثرت على كاظم يجلس أمام الطاولة، ويحدّق بأزهار الدّفلّي التي لا يحبّها، ويفكرّ بها ربّما. إنّه ينتظر ما ستكتبه إذا هبط الليل.. ترى ماذا ستكتب إليه، وهي ترحل من النّافذة إلى البحر؟

__2__

ستقول.. لا مطر عندنا، بل بحر يرويه الغيم. لقد هربتُ كي أعثر على أيامي الضائعة، لا أحب الضياع دائماً. والسّنوات الخمس التي قضيتها في بيت التّوت أرهقتني جداً يا كاظم. كتبتُ، وهي تتأمل وجهها في زجاج البحر: « لماذا أُسِمِيتُم ذلك الشّارع الغريب شارع التّوت رغم أنّي لم أر توتة واحدة تعترض طريقي طوال فترة إقامتي. أرّقني التّساؤل، كم مرّة أوشكت أن أسأل، وتراجعت؟ لا أذكر تماماً.

» أكتبُ لأنّني مشتاقة، والموج الذي يفصل بيننا يدفعني الآن بقوة إليك. ليس حبا ما أشعر به نحوك، ولكنّه هذا الودّ الجميل الذي نبحت عنه كلّما ضاقت بنا الوجوه والمدن ويبحثنا عن أحد يمتصّ أفراحنا وحياتنا معا. أنا هنا أحسّ بخيبة كاملة، وكلّما هبط الليل تبتلعني وحدة بدون مطر، وبدون فنجان شاي».

ألقت رصاص قلمها فوق البطاقة البيضاء، كانت موقّعة بغرفة فان جوخ الصّفراء. ليست تعرف تماماً إذا كانت حرارة تلك الغرفة سببا في العرق الذي رآته يذوّب أطراف المغلف، ويلغي قدرته على التّهاusk.

تري كيف يحدث أن نختار نقيضنا لحظات انكسارنا؟، لأنني باردة أهرب إلى أصفره، اتّهمت نفسها دون سبب واضح. أكان يتوقّع أنّ امرأة ستأتي ذات يوم إلى ألبوماته كي تفصّل حياتها على مقاسها؟

ما تكتبه يشبه ما يرسمه، لكنّ للوحاته مشاريع انتحار، ولانتحاراتها مشاريع حياة. هذا ما أصرت عليه كلما تنازعها البؤس. غسان لم يترك لأوراق روحها غير سطور جاهزة لدفن الشوق، فكيف لا يحيل أصفر فان جوخ الجائع انتحاراتها إلى نبوءات بعث؟

سترسل بطاقتها إليه غدا إلى شارع التوت. لن تؤجل وصولها ساعة واحدة، بريد مباشر إذا أمكن. هذه المرة لم تتخيل الشوارع التي سيقطعها ساعي البريد كي يصل إلى البيت الذي سكنها. لم تخرج أشواقها، وتمشي مكان قلبها كي تعدّ خطواته خطوة خطوة. سيجتاز بريدها بدن التايمز دون أن يتبلل، ولن يلقي بنفسه من الجسر، لأنّها ستحرص على أن يبقى مسلما، لا يثير غيرة أحد، ولا يصاب بنوبات فقد. ومرّ في رأسها شارع الملكة فكتوريا مرور قاطرة كهربائية من التي تقطع جسر التايمز عدّة مرّات في اليوم. كان شارعها يتفرّع منه بحذر وروية، ورأسها تتذكّر بعقلانية شديدة، حتّى لا تبكيه دقات قلبها المنتظمة.

—3—

رفعت المغلف تحت الضوء، ومن خلال القليل الذي انعكس على وجهه رأت فان جوخ مشوشاً كما لم تشته، كأنها حينذاك قرّرت أن تغسل البطاقة بالماء كي تتأكد من لمعان زيتها ووضوح تفاصيله. ليست المرّة الأولى التي تتأملها هكذا على ضوء مغلف، لكنها الأولى التي تقرّر إرسالها ومضا. تذكّرها بغرف غسان حين يسطو عليها الصخب الحالم. السبب بسيط لا يزال منغرساً في روحها انغراس الجذر في عمق تربة؟ حين يمزقه التناع فكرة تنطلق الأضواء الصفراء في غُرفه انطلاق أفاع مقطوعة الرأس. تظلّ ترحف وتتلوّى حتّى تتموضع في مشهد. بعد ذلك يطفئها، ويباشر تفريقها على الحلم.

أحلامها معه صارت كوايس. لم تخبر كاظم بما تراه ليلاً، ولم تجبه عن سؤال واحد من الأسئلة التي أمطرها بها حين أيقظه جريها تحت حلمه. كانت تردّد: «أطفئها إنَّها تحرقني»، يزيد على عشرين مرّة، وكاظم مقرفص فوق رأسها. يصغي إلى صوت المطر، ويتحسّس جبينها المعروق مثل كلب حراسة أمين حتّى تستفيق. لم تعترف بأنّها أضواء الرّجل الذي هربت منه إلى بلد لا تعرفه، ورجل لن تحبّه. لم ترفع شهادة تخصّصها، ولا كشفت النّقاب عن هويّة الغرف التي تمشي إليها أثناء نومها. في الظّلام تخاف أن تعترف لرجل أنّها تتوسّد شعّر رجل سواه كلّ ليلة وتنام. لم تصرّح بأنّها ذهبت إلى غرفة الأجاص كي تحلم على هواها، وكي

لا تخونه. اعتقدت أنّ الصورة التي رسمها لها لا تختلف كثيرا عما أرادت قوله، فازدادت صمتا. حتى أنّها فكرت أنّ التكتّم أفضل منجى لها من البلبلة والتشوّش.

الحدس الذي تجلّى في نظراته العميقة يكفي كي يتأكّد من ثقافتها العالية. الرّجال ليسوا كذلك، لكنّها فور اصطدمت بحذائه، ورفعت إليه عينين مأزومتين عرفت أنّه ليس ضمن الرّجال الذين تلعنهم في سرّها إذا رأتهم. وكانت ستنفخ على كومة الثلج التي أمامها فيفهم أنّها تركت بيتا مقوّضا، وحكاية غامضة. لا تأتي النساء الجميلات إلى المدن الكبيرة لمجرّد التّسلية، هو يعرف جيّدا، بل كي يتخفّفن من ملابس الذاكرة.

ولا بدّ أن يتركن في كلّ ركن لحظة مدّمة. تماما كما فعلت أسنانه، وضحكت بصوت لم يسمعه سواها، لثّة المدّمة. تذكّرت فمه ممتلئة بالدم صباح اليوم الأوّل. فزعت، هل حيّيت فمك؟ ابتسم لها كأنّه يعتذر، هذا دم، يبدو لم أعالج أسناني كما يجب. واقشعرت، أحسّت أنّ فمها يمتلئ هو الآخر بالدم.

وضعت رأسها بين يديها وذهبت إلى أسنان غسان النّاصعة. همست لنفسها بشيء من الحسرة، لو اختلف الأمر لكان لها معه مستقبل آخر، لنسيت ربّما قتل غسان اليومي لحينها.

«نشوة ظافر»، تهجّى حروف الاسم بخليط من الدّهشة والانتشاء. اسمها مثلها ينتشر في البدن انتشار العطر على الجسد. بمجرّد أن يخطر في ساحات القلب. أجل، لقد مدّت لقلبه ساحات يلعب فيها كلامها ومزاجها وبكاؤها الصّامت، لكنّه هو لم يلاحظ سوى القنوات الجّافة حول مدامعها. «نشوة سرّية جدا»، كأنّها تخاف

على نفسها من التعريف. دخلت حياته كفلسطينية هاربة وخرجت كهاربة أيضا. ذات مرة سألتها وهما جالسان، إبريق الشاي أمامها، وصوت فيروز خلفها، من يكون الرجل الذي يعود مع تألق وجهها عند المساء؟ يومها، لا ينسى، أنها ابتسمت له بعدوبة، وألقت بخجلها من النافذة. معابثة القطن أجمل، لا بد هجست لقلبها، علّق، وهو يستحضر شكل تلك اللحظات، ويتأمل أصابعها التي تحتضن كأس الشاي الساخن بين كفيها. ثم وقفت، وسدّت إطار النافذة.

ظل هكذا يرسم لحظاته معها، ويستحضر وجوه نساء عرفهنّ قبلها كي يتذكّر أين ومتى عرف امرأة مثلها. حين حار في إجابة غير وجهة التساؤل، كم مرة يهرب الرجال والنساء من فلسطين ويعودون إليها؟ وتساءلت هي إذا كان يعرف أنّ فلسطين بمجملها استحالت منذ نسيها العرب إلى طابة لا تتوقّف عن الهرب من نفسها ومن غيرها، وأنها لم تعد منذ زمن بعيد إلى مكانها؟ أحبّت أن تقول له وهي تقرأ هواجس فنجان الشاي المرتعش بين يديه أنّ الهرب في فلسطين أصبح هواية. لقد مزّق الناس هناك مدنهم ووضعوها في جيوبهم، لذلك ربّما لبسهم الهرب كما لبسوه. وأنهم للسبب ذاته لا يقيمون، لأنّ بلادهم تسافر وتعود معهم حيث يكونون. إنهم مثلهم، كاظم، مأزومة بلا حد. هل قرأ كلام عينيها، وهو يكتشف في كلّ محاولة أنها تضلّله؟ حين تعب ترك الطاولة وتأمّلها من الخلف. ظلّ يدندن مع صوت فيروز لحن مساء يعود برجل ضائع يضيء وجه امرأة جميلة. «ربّما»، همس لنفسه، سيؤجج غيرته.

4

غمّازتاها، هذا المساء، تشعلان فانوس الطاولة، ولامبات الكهرباء الهرمية. خيل إليه أنّها هربت بعد أن غافلتها نشوة وهربت. احتاج من يقول له أنّ كلامها سيهبط مع المساء كي يجدد عمر الشيخوخة التي تهدد ستائر النوافذ، وإبريق الشاي. حتى أنّه اعتقد أنّ ثلج لندن مهدّد بالاستحالة إلى مجرد قطن. شكّ بصدق سطرها المتأرجح بين الجملة والعبارة. وفكر ربّما يعود إلى بغداد كي يختبر علاقته بالمستجدّات. تحت ستار من السريّة سوف يتقصّى آثار الشاب الذي كانه ذات يوم. وبشيء من الدّعاية المُرّة وعد نفسه بغرفة يبنيتها فوق أحد الجسور ويلتصق بسقفها.

سيعتقد من يراها معلّقة في الهواء أنّها برج للحمام الزّاجل. لكنّه تراجع سريعاً، «أيّ حمام هذا، وقد تذبّج الرّجال». لكنّ لا بدّ وأن يحلم، سيحلم مثل رجل تلك المرأة. يتذكّر الآن كيف راوغته حين سألها لماذا لا تحلم وهي معه، أوردت جملة تقريرية أزعجته مخارجها: «الأحلام»، قالت: «وطاويط عمياء»، وأضافت دون قصد واضح أنّها عرفت رجلاً أهلكه الحلم.

حين ضمّت مخارج الحروف خلف زمة شفيتها المحتجة أراد أن يقول بأنّه يريد أن يهلكه الحلم. نظر إلى عمق الدّمعة، التي غارت بشكل مفاجئ في عمق محجريا ممزّقة بين البوح والتكتم، فتأكد أنّها سرّ الشيء الذي أتت إلى هذه المدينة كي تدفنه وتعود.

—5—

كان عائداً من عمله ساعات المساء، مرهقا على غير عادته. وكان يهجس لنفسه: «مرّ الخريف بعدها كئيبا جدا وعنيفا»، كأنه يستهدفه. أحسّ أنّ مظاهره تعصف به بشدة. لم يعد نفسه باسم جديد يسبغه الخريف عليه، ورغم ذلك وجد نفسه معبأ بعواصف وغيوم كثيرة، بل اعتقد أنّه بمجرد أن يرفع يده إلى غصن شجرة عارية سوف تتقصّف، وترمي سباتها على شيخوخته المفاجئة.

أشاخ حقا؟ أم أنّها المدينة شاخّت في بدنه؟ منذ ذهبت أصبح المشي تحت شجرها ومطرها فعل اضطرار. لم يعد التسكّع هواية لذيدة، ألهذا الحد دوّخت نشوة الحياة ولوّنتها؟ تساءل بضيق صدر يخالطه الحزن. كيف تقلب امرأة عادات مدينة كهذه الوحشة لندن؟

بشيء من الحنين تذكّر أوّل يوم بعد ذهابها. دخل البيت فوجده معتما، بعد ذلك ضرب المدينة شتاء ملتاغ. لم يكن الخريف قد استنفذ أيامه بعد. دهش من معلق الأرصاد الجوية، وهو يوثّق صوتيا أحوال الطقس. لقد أزهر طقسها. أزهار الخريف كلّها أغمضت ونبتت مكانها أزهار: بيضاء وصفراء وبرتقالية غريبة. ابتسم، وهو يزداد عجباً، ويعدّ نفسه بلمّ زغدة من هذه الألوان كي يرسلها بريد سريع إليها، .. وتذكّر أن يضيف، وهو يداعب منتصف الزهرة بطرف أنفه: «فقط إذا تذكّرت وكتبت»

أراد أن يتجاهل أثر غيابها، لكنّه فيما بعد اعترف بأنّ إيقاع عمله السريع لم يحرّره من الفراغ الذي أخلفته. طلبات الزبائن المتهافتين

على قَصَّة الشتاء الجديدة لم تهدئ من روع شوقه. كان لا يعرف كيف يعيش الأيام بدون صوتها، ولا ينجح في الكزدره مع قطرات الشتاء دون أن تعدّ القطرات التي تتسلل تحت قَبَّة معطفه البرتقالي. ودون أن يصغي إلى تعليقاتها السّاخرة على اللّون الغريب الذي كسا قامته. ذات يوم أوشك أن يتخلّى عنه كي يلجم سخريتها وكي يُعجِب المطر، كما أقنعتة.

قالت له شيئاً غريباً حين وجدته ساكتاً يفكّر جدياً باقتراح تبديله: «المطر، قالت، يجب أن يتضامن النّاس مع ألوانه، سيطول قطنه وقطره إذا وجد معطفاً كمعطفه فاقع اللّون يستفزّه لهذا الحد» تأمل لحظاته البعيدة معها تحت دكنة الغرفة الباردة، وأحسّ أنّ المطر لن يهتمّ مهما همّر واسترحم، مخابئ المدينة في كلّ مكان ويستطيع النّاس أن يلجأوا إليها. هو وحيد وبعيد عنها، ماذا سيهمّه لو جنّ معطفه المطر. لا يوجد من يشتهي معه طقساً أقلّ جنوناً.

__6__

عند أوّل خطوة، وأمام صناديق البريد المنتظرة دقّ قلبه، حين لمح من فتحة صندوقه الأبيض شكل الغلاف. ركضت الدّماء من قدميه إلى وجهه، والتمعت عيناه بالتوقع. مدّ أنفاساً مرتعشة. كان يرتعد بشدّة. سحب من طرفه المشرب إلى فوق، وتوقّف. كانا كليهما يحدّقان الآن الواحد بالآخر. وكلاهما متحفّزان، يستعدّان للمفاجأة. هاجمته حينذاك دماء أقدامه الحارّة، هل كان يعرف أن

لدمائه هذه القدرة على القصف؟ دون أن يضرب رقمه السريّ رفعة تحت عيون العتمة، وتابع شدّه إليه. بقليل الضوء الذي تسرّب من عامود الكهرباء في الشارع المقابل رأى ختم يافا، وطابع الدولة التي كان اسمها فلسطين فانتفض مع دمائه من أخمصه، ومعه اقشعرت شعيرات رأسه الشائبة بسرعة الضوء ثم التوت واستكانت.

قرأ إسرائيل، واشمأز رغما عنه. حدّق لثوان قليلة بالمغلف، وحاول أن يحزر هويّة الظل للرسم الذي يشاكسه خلف الورق السميك. لقد هبطت جنيته مع العتمة كما وعدت، هل توقع أن تف بوعدها سريعا هكذا؟ استقامت مشيته فجأة، وهو يتأملها تنزل على أراجيح الليل.

كأنّ الهرم غادره بمثل ما حلّ فيه. كأنّ خطوّه أصبح رقصا، أو هكذا خيل إليه، وهو يدسّ المغلف في جيب سترته الداخلي. يحتضنه دون قصد، ويمدّ قلبه إلى الباب بالمفتاح. أول ما فكّر به، وهو يضغط إصبعه الوسطى على زرّ الكهرباء أن يراجع طبيب الأسنان الأشهر في المدينة يوهانس روبنسون.

وهشة

لخمتهُ السّطور. كأنّه لا يصدّق. نقلّ نظراته مرّة بعد مرّة دون أن
تمتلئنا بالكلام، حتّى أنّه أحبّ أن يستعير عيون غيره كي تقرأ عنه:
« عزيزي كاظم، أكتب لأنني مشتاقة، والموج الذي يفصل بيننا
يدفعني
الآن بقوة إليك. ليس حبا ما أشعر به، ولكن هذا الودّ الجميل
الذي
نبعث عنه كلّما ضاقت بنا الوجوه والمدن. أنا هنا أحسّ بخيبة
عميقة
كلّما هبط ليل. تبتلعني وحدة بدون مطر وبدون فنجان شاي.»

بمودة

نشوة ظافر

يافا، ديسمبر

(.....)

1

أحبّ أن يصير طيرا بريش أجنحة كي يصبح خفيفا، ويحلّق حتّى يدوخ. تلمّ غيمة كي تبتلعه، أو تحتضنه، ولا يرى بعدها شيئا. أكثر ما أحبّته في هذه المدينة غيمها. أحسّ أنّه يصبح أكثر رجولة. سطورها عبّأته أنوثة. من ذلك البعد السّحيق بعثت دفئا مرعبا إلى فكره وحسّه. واستغرب، كيف يمكن للأنوثة أن تذوّب هرم الرّجل وضعفه، وبسرعة الضّوء تختصر عمره؟

في أيّ شيء سحرها. لو كان يعرف الإجابة لتوقّف لحظة عن الدوران على نفسه. تساءل، ودار على إيقاع البرد الذي رجم خشب النّافذة، حيث جلس بينهما إبريق الشاي، ولهب الغاز السّمعي الصّغير. حدّق باللّوحة التي تصدرت البطاقة، كأنّه كان متأكّدا أنّه فان جوخ، لكن ليس بغرفته الصّفراء. إنّما بلوحة أخرى كزهرة عبّاد السّمس مثلا، أو قهوة في اللّيل، أو أيّ رسم آخر أحبّت أن تحكي عنه. همس لنفسه جذلا، يبدو أرادت أن تقول شيئا. حكّ رأسه قليلا، وهو يكتشف أنّ السّرير المنسجم مع وحدة الفنجان يشهر شبقه، ويقرّر أن يكون خصما. «.. بدون فنجان شاي»، علّق على جملتها، وقفز قلبه فوق معطفه البرتقالي.

2

هل يغمض قبل أن يجعل السطور خيطانا يشكّ بها الكلام؟ هل ينام قبل أن يصنع لها قلادة من كعب الودّ كي يسترجع أنفاسها إليه؟ أيامها باردة تقول، والوقت يمرّ من نافذة بيتها عارياً وحافياً. سوف ينسّق قلادته على مقاس عنق وقتها كي يدفئه، وسوف يرسل إليها حذاء شتويّاً جديداً من قصّة الموسم الجديد. كان منفعلاً جداً يرشّ الليل بفرحه، وهو يراه يتلّع ساعات نومه دون أن يلقي بالاً إليه. واعتقد في قلبه، لعلّ بطاقة ذلك الفنّان المجنون أهمّ حدث لليل لندن ونهاره. وسوف يلفّ الحذاء بورق مشمّع، ويرسله بعد ردّه السريع بأيّام. بالبريد الأسرع كي لا يتبلّل، ويخرب. من مدينة لا تعرف غير البلبل سيرسل قلبه داخل حذاء!

فكّر بصوت عال هذه المرّة، وابتسم. حين ردّدها للمرّة الثّانية بصوت أعلى عبس، حذاء! الأحذية التي يصنّعها داخل ورشته الصّغيرة أهمّ مشاريع وجوده، ولكن هل يسوّغ ذلك فكرة أن يحشر قلبه داخل حذاء من أجل امرأة؟ تساءل قليلاً، ثمّ قرّر أن يؤجل البحث عن بطاقة تناسب فان جوخ هذا!

جذب دفتر الرّسم الذي لوّنت بياضه بالأغنيات، أغنيات فيروز الجديدة عليها. تذكّر، وهو يشلخ إحدى الأوراق من منتصفها كم عذّبها الكلمات الغامضة. كم مرّة تحرّشت بالمسجّل، وقطعت عليه استرساله للحن. كم أغضبها أنّها لا تفهم ما يقال. تذكّر أمورا كثيرة كانت محورها، وغنياً شاربيه عن فيروز في تلك السّاعة

المتأخرة. فرد نصف الورقة أمامه، كأنه يعد المكان بوليمة، وخرش لها كلاما سريعا راكضا ساحرا في عفويته:

« مساؤك، يا نشوة القلب، أخضر
وصبحك سكر
وليلك عنبر

وترنيمة للعيون التي
أحس الكون بها أكبر»

هل تعرفين؟، منذ ذهبت صار المطر قطنا، ولم يعد يؤذي غير
المعاطف الخفيفة. لا رائحة للشّاء هنا. ذهب الثلج معك، وبقي
القطن هنا يتذكّر تحت النّوافذ لعب أناملك. لكنّ الشّاي هنا كثير،
وساخن دائما.. ولا يعرف كيف يبرد. ليتك تبحثين ثانية عن
عنوانه. أسناني هي الأخرى لم تعد تحتمل السّخونة. لذا سأقصد
منذ الغد صباحا عيادة الطّبيب الذي أعجبك، يوهانس روبنسون،
ولتذهب الأحذية مؤقّتا إلى الجحيم.»

كاظم البرد

بغداد

الفصل الثاني

- 1 -

العتاب شيء يدفع النساء إلى الهرب، هذا ما حدث به قلبه. لن يرسل إليها أوراق عتابه، وقد ذهبت هاربة. أیسترجعها هاربة أيضا، من أي مكان هذه المرأة؟ لن يعرف. لقد انتظر زمنا يعادل عمره حتى جاءته أنفاسها ثانية تحلق فوق بخار الشاي. هل يريد أكثر؟ علمته التجربة ألا يقترب من مزاج امرأة. يظل بعيدا وهي تنفس رائحة الغيم، وتشقى تحت رذاذ الشوق إذا اشتاقت. إنها مثله، وقت انحباسها لا تصدر غير الصمت. تتشاءب بسرعة، وحين تريد أن تعلن عن ضجرها ووحشتها تبكي.

لا حاجة إذن أن يسأل متى قرّرت أن تسدل ستائر بيته وتمضي. سيوجز لها نشرة شوقه إليها، ولو أمكن مخطوطة الحذاء الجديد. على ظهر النصف المنزوع من دفتر الرسم سيخربش شكله، وهي ستفهم لماذا فعل. كان عجولا، ولا ينتظر كثيرا حين تتجاوز الأفكار منتصف رأسه.

رمق ساعة الطاولة، وهو يحاول إغلاق مغلف الرسالة. كانت تشير إلى الثانية والنصف فجرا. لكنه توقّف عن إتمام مهمته، تذكّر جملة اعتقد أنه لا يجوز نسيانها. فتح المغلف ثانية، وانزعج قليلا من خشونته، ليس كمغلفها الشفاف. ربّما كان يجب أن ينتظر، هو غير متأكد ولكنه يعتقد ربّما. على العموم هذه أمور هامشية لن تلقي

بالا إليها، أقنع نفسه. جذب نصف الورقة المنزوعة من منتصف دفتر الرسم. فردها أمامه على الطاولة قريبا من زهرة الدفلى. رائحة شبيهة بزهر اللوز المر انبعثت منها وكادت تخنقه. إنها لا تترك منفذا للهواء، تملأ الأنف وتحشو الرئة بدبقها، كم واثقة هذه الزهرة من نفسها، هامس نفسه حيناً، والورقة التي أمامه حيناً آخر. قبل سنّ القلم آخر السطر الفارغ، وكتب مستطرداً: (..زهرة الدفلى ظلت يانعة. هي فوق كلماتي، وتسلم عليك. أما زالت فيروز تسترجع معك ذلك الرجل عند المساء؟ سلميلي على ميناء يافا)، ثم وقع اسمه ثانية تحت السطر الذي أضافه، (كاظم...)، وأضاف نقاطاً ثلاثاً للتأكيد ربّما. اعتقد أنها ستفهم حاجته لأن تكتب إليه، لأنّ الشّاي كثير في الإبريق، ولأنّ المطر شديد، والمدينة التي تركتها للشّتاء المبكر تركت أحياءها، وحشرت نفسها في بيته.

في غيابها حاصرته، واحتار كيف يحتمل أن تنام مدينة كبيرة تحت سقف بيت صغير كبيته. إنّه رجل لم تسعه صحاري رحبة فكيف يحتمل العيش في إحدى حاراتها المتخيّلة، ومع دخيلة؟ حاول أن يصغي إلى شهقات ضحكها، وهي تنظر إلى قدميه الخافيتين وتجتهد في رسم شكلهما المفلطح على الزجاج.

كان يقول لها: «هذه من مخلفات الاحتلال الغاشم للأقدام، نكاية به تركت أصابعي تكبر وكعبي يتدوّر، ويتسم. كأن ابتسامته حينذاك تصير إدانة حقيقية لكلّ الأنظمة التي تعرفه، وتعلق، وترفع ساقها إلى تعلية السقف. لعلّها تتذكّر كل ذلك حين سترى كلماته، لا يعرف. عليه فقط أن يحذر عتابه لها.

2

يكتب إليها كآته معها. لم تقرأ كلاماً، بل أصغت إلى أصوات كلام. كم يشبه هذا الرجل نفسه، وكم تشبه رسالته عاداته. لو استطاعت أن تحسّه لتغيّرت أشياء كثيرة، لتبدّل، ربّما، شكل الحياة، وشوشت قلبها. أضاءت بعد ذلك ابتسامة عريضة أناملها المتمسّكة بأطراف نصف الورقة المنزوعة.

ذهب إلى الطّبيب إذن! همست، ونظرت إلى البعيد. اتّسعت دهشتها، وهي تقبض على خصلة شعرها الضّالة فوق جبينها. قلبت عينيها إلى فوق كي تلاحظ سرعة نموّها. على غير العادة أعجبها نموّها اللّولبي، غسّان أحبّ هذه الخصلة بالذّات، ظلّ يقول إنّها خصلة عاقلة، لكنّها متمرّدة، وقد تخلع عقلها ذات يوم وتُجنّ. إذا تآزمت مثلك نشوة.

مثلي! وذهبت أفكارها مباشرة إلى الطّبيب يوهانس، سيصبح فمه أجمل، وأسنانه كذلك، وسوف تشتاق إليه، وإلى أنفاسه.. ربّما. ابتسمت وهي ترسل قلبها إلى المراكب الرّاسية. وهج الميناء بدا حاداً وصافياً رغم الرّمّد الذي ابتلع النّجوم. تابعت السّماء، وهي تلامس سطح الماء، وتطفئ شواظها حين احتكاك الغيم به. فكّرت بصوت عالٍ.. إذن أشهر أطباء لندن سيتولّى مهمّة ترميم فمه، لا بأس يا كاظم، لا بأس. بدأ شارباك يُسمِعان صوتاً.. ويُدهِشان، يا للعجب!

— 3 —

خلف نافذة الصّالة لمحت أطيايف المارقين إلى المراكب. كانت تسمع نداءاتهم الغارقة في الرّمْل تتقاطع مع نداءات كاظم الغارقة تحت سطور رسالته القصيرة. تعرف أنّه لا يكتب إلّا لها، وإذا كان كتب إليها فلائّه لا يقوى على مقاومة شوقه. أعجبها ذكائه، لم يولول، ولم يسأل كيف ولماذا، بل ذكرها بما أحبّت كي تحن!

ردّت شعرها إلى الخلف، وهي تستحضر على زجاج النّافذة صقيع لندن وقطنها.. كأنّها فطنت إليه، وعودة غسان في صوت فيروز كل مساء. لم يكن لديها شك بأنّ كاظم يعرف أنّ ثمة شيئاً، أو أحداً يعود إلى قلبها مع اتّشاح المدينة بالسّواد. ولا بدّ أنّه أطلق ظنونه وعيونه إلى الوشاح الأسود الذي يلوّح للنّافذة ثمّ يحتلّ الخزائن والأبواب، وكلّ شيء.

ابتسمت، لم يسألها عبثاً عن هويّة الرّجل الذي يعود مع المساء، ولم يساورها شك في جدية سؤاله، لكنّها أجابت بنكتة مماثلة، مؤكّدة لم يصدّقها هو الآخر.

هكذا رتّب المساء حياتها في الأسابيع الأخيرة. أكانت ستغمض إلى جانبه، وهو يعرف أنّ عينيها تطبقان بشدّة على وجه رجل سواه؟ لقد أنقذته من خيانتها اليوميّة. أرادت أن توقظه من الوهم، هربت كي تحرّر لسانها من الكذب. لو أنّها بقيت لاستحالت إلى كاذبة محترفة. عبرت رأسها شمعة الرّجل والمرأة المتعانقين فوق الطاولة

في مدينة القطن. انضمَّ ظلُّ كاظم إلى مجموعة الأشياء المنعكسة على زجاج النافذة. تنبَّهت فجأة إلى أنَّ الزجاج يأخذها إلى كلِّ مكان برمشة ذاكرة. رأت رأسي الرَّجل والمرأة الشمعيَّين يحترقان، وهي تحدِّق ساكتة، فحرَّضها. ماذا لو كان هذا الشَّيء شيئك، أكان سيذوب، وأنت تحدِّقين به بهذا القدر من التَّشفي؟ ربَّما لمسه الخوف، وتحيل أنَّه مكانه، ولم تفهم!

الفصل الثالث

1

مرايا الرمال فزعت إلى وجهها. كأنها خطّطت أن تهرع إليها، وهي تراها حائرة هكذا تلاعبها الهواجس. الوقت بين الغروب والمساء، وقلبها بين الرغبة والقطيعة، ورحمها في حالة إخصاب ملح. هل تفاجئ نفسها بالفزع إليه كما تفزع هذه المرايا إلى وجهها؟

بدأ الغروب يشيع قتلى الساعات الأخيرة. بعد قليل ستخرج فئران من أكمام الظلمة وتقرض الألوان الحاملة. تصبغ شوارع السماء وأرصفتها بالكحل. لو عرف غسان بأن كحلها يثير فتنة الحياة هذه الساعة لسعى إلى ممشى الكنيسة، وتأمل عينيها تغرقان في الانتشاء. ربّما لن يعرف. همست وهي تترك ظلالها تتقدّمها. الميناء أشدّ صمتا ممّا اعتادت عليه، والأضواء أقلّ حدّة، وملابسها أكثر وحدة من الكراسي الخشبيّة العارية المتناثرة حول المقهى الذي أمامها. لكن انتشرت للبحر رائحة غريبة ذكّرتها بنفسها. الأيام الخمسة الأولى من الشهر تحدث لجسدها فورة عشق، وتحسّ أنّه يريد من يحتويه. وتتبعث منه رائحة حنّاء معتق لا تفهما تحت ملابسها. تبدو كأنّها من خلط حنّاء عريس الليلة الفائتة. أفي تلك الأيام فقط تشتهي غسان وتبكي لأنّه لا يشمّ رائحة نبضها؟

الأيام بدونه كرجوة الموج تعلق بالصّخر وتذوب دون أن تترك أثرا. لكنّ الرائحة التي يعطرّ بها الموج الفضاء في الأيام الموسميّة يشبه ما يتضوّع من جسدها في أيّامها تلك. بين الخريف والشتاء ترتاد الشاطئ أواخر الليالي كالوطاويط، وتتعبّ أثر الرائحة في ورق النباتات الصّخريّة. أسبوعان قصيران يمرقان خطفا بين فصلين كي يخصّبا رغبة الموج ويمضيان. تمرّ شهور أربعة حافلة الجذب حتّى يأتي أسبوعان آخران كي ينقذا الرّغبة من رائحة البقايا وزناختها.

تشمّت أكمامها، وهي تقترب من الشاطئ. بحثت عن رائحة العطر الذي ضمّخت به عنقها، فعثرت على رائحة الحنّاء حرّيفة ونافذة. تأكّدت أنّها أيّام رحمها. أحسّت به يتقلّص ويتنفّض كلّما استرجعت شعر غسان الرّاكض إلى الخلف. سيجارته الملتاعة لم تفارق مخيلتها لحظة واحدة. بقيت تشتعل بمثل ما تنطفئ تحت الشّتاء والهواء.

تلاطمت المياه فجأة، وعلا اضطراع الموج. غافلها، وزحف إلى قدمها، وهي تنظر إلى البعيد. فجأة لاحظت، وفجأة أخرى قفزت، وفجأة ثالثة مدّت يدها إلى ساقها وتراجعت بذعر. دفعت يديها إلى الخلف كأنّها تستغيث فسقطت حقيبتها الصّغيرة في بقعة الماء المالح.

— 2 —

كان هو. يقف داخل رقعة الماء الصغيرة التي تقف فيها. ينظر إلى الحقيبة الجلدية الصغيرة بدهشة المرة الأولى التي رآها عائدة بها كأنها تعود بفراء دب أو غزال. يومها وجدها سعيدة، فلم يشأ أن يفسد فرحتها. قال لها متهمكاً: إن هذه الحقيبة تذكره بحقيبة مدام بوفاري، حين ألقت بنفسها من النافذة هرباً من الفضيحة، وسقط كل ما عليها حتى ساقها. ومع ساقها حقيبتها الجلدية.

هي استاءت قليلاً، وأعلنت أن تعليقه لا يعينها، وأن البحث عن هذه الحقيبة استغرق ساعة كاملة حتى عثرت على بكلة قفلها الفضي. استغرب، وتساءل: «بكلة قفلها الفضي؟» احمّرت قليلاً، وهي تتقدم منه. تلامس شاربه الأشقر، وتهمس: «كان يجب أن أحمل شيئاً منك، بكلة قفلها الفضية، غسان، كورق سجائر». وإذّاك، لا ينسى أنه سحبها إلى ذراعيه، وبين آهاتها مرغ شاربيه، بوجهها.. كله، من جبهتها حتى غمزة عنقها. لقد ولّعه كما تولّعه السّيجارة بفركة شوق، همس، وهو يعضّ أذنّها ويؤلّمها. كيف تقدر أن تولّعه بجملته، وكيف لبست دفء النساء وغمرته بالنّشوة. لا يعشق رجل امرأة بتلك السّهولة.

تذكر أنّها مدّت إليه يداً بالحقيبة النّاعمة، وتركته يقبض عليها من طرفها الآخر، ويعلن أنّها أجمل من حقيبة مدام بوفاري، لأنّها امرأة لا تخاف الفضائح، وحين ستسقط ستجعله يسقط معها. كيف جرّوت؟ فزع إلى قلبه. سحرته مقولتها، لم يفهم من أين أتت بكلّ تلك الأفعال وضربتها بفعل واحد.

3

«نعم غسان، إنها نفس الحقيية، نفس الذاكرة» حدّث فيه، كأنّه يصير كلّ عينيها وتصير هي كلّ ما تذكره عيناه.. الكلام الذي تقوله يدك تسمعه يداي. ارتعدت دمعته، ولا زلت أحبّك. ولقد عدت هرباً إليك، وهربت منك خوفاً عليك» أرادت أن تقول كلاماً كثيراً، لكنّها صمتت، وصمت هو. كلاهما قبض على الحقيية، كأنّ لكلّ منهما الحقّ باحتضان الذكريات التي له معها. رفعت رموشاً مرتعشة إلى وجهه الضامر، وانتفض كتفها وعلامة الحسن التي تزيّن سفحه. كلّ ما فيه الآن كان لها. فكّرت أن تحبّه لبضع دقائق وتختفي. أحبّت أن تسحب يدها من الحقيية، وتتحسّس بها شوك وجهه الغزير. تملأ كفيها بشعره الذي ظلّ خمس سنين هارباً إلى الخلف. تشمّه، تتوزّع على ذاكرة عهره الذي قتلها. تصرخ به وتبكي دموع السنوات الخمس التي أهدتها لشتاء لندن وقطنه.

لكنّها انتفضت بعنف، وجذبت نفسها، كأنّها تقاوم غمر سحابة وهم. خافت من استسلام قلبها، ومن جنبها.. وفكّرت بسرعة، الهرب! أضاءت الفكرة منتصف ذكرياتها، وعيشها المحدث بالسنوات الخمس النائمة. وجدتها محفورة في خطوط وجهه، وشعيرات شاربيه. كانت مثله ملفوفة بصاعقة ذهول. لا تذكر تماماً كيف شدّت حقييتها من يده، ودون أن تنبس ببنت شفة تركته وذهبت. ركضاً ثمّ عدواً ثمّ هرولة. كأنّ كبرياءها أبرق لها أمراً، وكأنّها أصغت إلى شكواه البعيدة.

__4__

هو، لا يذكر التفاصيل، يتوقف فقط عند لحظة انصعاقه. كأنما عميت عيناه، وهو يلون بهما رجوعها، أو كأن طيرا حطّ بينهما واختطفها ثانية منه. تداخل الحلم بالواقع. الذّهل لوّن المشهد، واعتقد أنّه ربّما كان يحلم. أحقا وقفت امرأة سنيّته البعيدة هنا واستدرجت أيّامه؟ هل مشيت في ذاكرته؟ ومرّت مع حكاية مدام بوفاري، وفضيحة قدمها المكسورة؟

المشي في أيّامه البعيدة يشبه الغرق في طوفان. ولا يعقل أنّها رجعت كي تغرق من جديد؟ لو أنّه فقط يتأكّد من حقيقة ما حدث لتغيّرت الآن أشياء كثيرة. عناوين قلبه مثلا، وأحلامه. توقّف الحلم بعدها والأضواء تدخل غرفه متردّدة، والسيناريوهات الجاهزة كلّها ثغرات.

__5__

توقّف الحلم بعدها، ردّد جملته ثانية. والأضواء إذا استدعاها تدخل غرفه متردّدة. لا أسماء للأحلام الآن. السيناريوهات الجاهزة تتصارع فوق مكتبه على حقّ البداية، وهو لا يستطيع أن يبدأ بأيّ شيء.

العمل الأخير الذي أنجزه لم يحقّق النّجاح المتوخّى. كان نصف رأسه يفكر بالأضواء وما تحتها، والنّصف الآخر يفكر بها، نشوة،

المرأة التي هجرته قهرا. لقد رفضت أن تقضي على عادة النساء في عشق الرجال، ولو أن أحدا خبره لما صدق أنها ستفعل. لقد انتظرتة وحلمت به، وعاشت على طيف رجوعه. نوّمت حراس السجن، واخترقت دهاليزه بدعائها. ماذا لم تفعل لأجله؟ وماذا فعل كي يثبت حبه لها، الخيانة؟

عَنف قلبه لأول مرة: «أهذا ما يهديه رجل مثلك، أيها الفنان العظيم لامرأة قاومت عمرها لأجلك؟»

كان ممزقا جدا. يبحث عنها في كل مكان من جسده. أكانت حقيقة أم رؤيا؟ أراد أن يسأل الرجل الذي لمحّه قريبا منه إذا كان قد رأى مثله امرأة بحقيبة سوداء، كحقيبة مدام بوفاري وشعر أسود طويل كشعر الزباء. لكنّه خاف أن يفعل لئلا يشاع أنّه رجل يهذي. استحضر فشله الأخير. أضواءه التي ذبلت تحت أقلام النقاد. الصفحات الفنية لم تذكر على عاداتها، أنّ فنّان الألق أربك اللحظة، ولم يتذكّر أحد بعد أن خرج أداء الوجه الجديد الذي قدّمه. حضور الليلة كانوا أشدّ بهوتا من لون وجهه، وسيجارته المتناثرة.

في ذلك المساء تمزّق ألف قطعة، ومزّق القطع التي لبسته ألف قطعة أخرى، وفكّر بها، ربّما أكثر من أيّ لحظة سابقة. أكانت قوّته؟ أكانت نصّه وحلمه أم خيّل إليه فقط؟ ربّما فشله الذريع يعيدها إليه بكامل توهّجها. ربّما يوهمه غيابها بالفشل. يجب أن يقتنع بأنّها أصبحت حلما مستحيلا، بدون هذه القناعة سيظل يتأرجح بحبال وهم، ويظلّ غائبا عن الوعي.

__6__

لم يكفّ خلال الثلاث سنوات الأولى عن السؤال، لكنّه بعد ذلك صمت طويلا، ولم يعد يسأل، وإذا قيل له لا يسمع. أفكارها أنقذته دائما من نفسه، ومن أضوائه. أحبّ أن يصغي إلى ما تعتقده عن وضعيّة الشّخصيّة التي يُقحّمها خشبته، ودهاء المقولة التي تسبق انحسار ستارته. أعجبه تذوّقها الشّفاف للحن الأرواح التي يفرش بها أفق المكان. كانت تعرف كيف تجعله يختار ما يقبض الصّالة من شعرها، وتبقي العيون شاخصة حتّى اللّحظة الأخيرة.

امرأة الأشياء الحارّة كانت، فهل تبقى الأشياء بدونها عاطلة عن الإدهاش؟ من أيّ جيل تعود نساء مثلها كي تمطر الحياة روحا، وتبقى أو تذهب؟ هذا الجذب كارثة بحقّ مشاريعه كلّها. أراد أن يعترف أنّها كلّ النساء.

طيف

- 1 -

القُبلة.. كل ما يغمر جسده. تفترش السرير معه، وتؤطر ذكرياته. فوقه مباشرة اسم للوحة جميلة أنجزها رودان في إحدى انغماراته الروحية. اختارتها هي من متحف العاصمة آخر زيارة مشتركة لهما. أسمتها القُبلة، أو هكذا أسماها الفنان. لا يذكر تماماً، ولكنه يتأكد كلما لوى عنقه إلى الخلف أنها كانت تستغفله وتورطه بحموضة شفيتها حتى الأبد.

يومها نظرت إليه وإلى اللوحة، وأغمضت قلبها، ومن بعده جفניה، وقرأت الاسم المكتوب بحروف سوداء صغيرة كأنها تتهجأ حلماً. ويذكر جيداً، كأن في انتشار القاف والباء ما ينثر روحه، ويدعوه إلى تقبيلها بشدة وبهم، ليس كما يفعل العشاق لشفاة حبيباتهم الخجلات، ولكن كما يفعل الأزواج برائحة العطور العالقة بثياب نسائهم المتمردات.

في اللوحة ظهر الجسدان متعانقين. أحس، وهي واقفة تتأمل اشتباكهما الصامت، وفي لوعة البكاء ما يذيب وجهها، ويحيله إلى حفنة ضوء. وقد أحبها هكذا، وبقوة. اقترب من موضع قدميها، وأراد أن يعانقها كما يعانق الرجل المرأة في الصورة. أراد أن يقبلها بنهم أشد من نهم الرجل بجسد المرأة التي في الصورة. هو لا يذكر بالتحديد كيف خرج من لامبالاته، وجرى خلف أكمة الشقيق

التي قطفت وجهها.

ربما رأت نفسها مكان المرأة! حدث قلبه، وعدّ على أصابعه سرا
الأصابع التي مرّت دون أن يمرّر كفّه تحت أزرار ثوبها. يداعب
حلمتيها، يتحسّس استدارة ردفها الجميلين. يندسّ بين ساقها
بعنف، يهاجمها كما فعل القوط للمدائن التي أحبّوها، وهي تحلم
نفس الحلم الذي حلمته، ويعلن أنّه أجمل أحلامها. يحكّ قدمه
العارية بباطن قدمها النائمة، ويلبسها كما تلبس شلحتها الضيقة،
كي يظل شفافا. يطلّ عليها من تحتها. ربّما من قدمها يدخل،
ويسرق ما يريد، يترّث يوما طويلا، ثم يخرج في الليلة التالية
كسرّاقى المواسم في ليال لا يلوح فيها قمر.

كم تربكه هذه اللوحة. استدار نحوها، وتأمّلها من خلال
سيجارته المحترقة. تنبّه فجأة إلى أنّ عناقها يحترق مثل سيجارته.
ألذلك همست، وهي تدفعها إلى البائنة؟ وتحذجه بنظرات محرّضة
: «ويجب أن تعلقها فوق السرير كي يبقى الفراش ساخنا». معها
أو بدونها، أرادت أن تجعل سرير دافئا. استرجع صوتها هذه المرّة،
وهو يمعن النّظر بشحوب الجسدين تحت حميمية العناق، وتأكد أنّ
احتراقها يأخذ لونيها.

إذاك سمع صوتها يشاكس تكتكة المنبّه الذي بدأ يعلو كلّما أوغل
صوتها في ملكوته. كأنّه غار من انتظار الرّجل لها، وخاف أن
تستولي على أضوائه، وأوراقه العارية.

- 2 -

بعد حين أحسّها تدوّي في غمار الصّمت. تغلّ أنفاس الرّجل الموزّع بين اللّوحة والتّكتكة، فيزداد إرباكاً للمكان. كان المنبّه ذكياً جداً، يقيس أهميّته وفق كثافة العيون الموجهة إليه. لم يكن غسان بعيداً عنه، وكان حائراً جداً يسترق إليه النظر، ويفكّر دون توقّف. منغمراً بلا حدود بارتعاشات صوتها القادم مع هواجس آخر الليل، وتكتكة المنبّه.

بعيد لحظات ملاً صوتها المكان، فأحال الهمس إلى دروشة. أصغى قليلاً إليها، مأخوذاً ولا مبالياً كعادته، كأنّها يحيطها علماً بحياديته المطلقة وبانغماره الكامل بنفسه، ويحيز لها تظاهرة من نوع لم يألفه الوقت.

- 3 -

يطفئ سجنائه بسقف قلبه كلما هدّدتّه الوحدة. هي من تسوّغ هذا النّوع الفريد من العزلة الحاملة. لكنّ تظاهرة صوتها الوحيدة والحزينة تحت مطر خفر حزين لم يعجب ساعة الحائط، ولا أعجب المنبّه. المكتّة، وشارباه الأشقران وحدهما تنبّها، وابتسما.

بدأ يلتفت حواليه لأوّل مرّة حين أخذ صوتها يتراجع ويمحي. كان لا يزال يحدّق بالصّورة كأنّه يتوقّع من المرأة والرّجل أن يتخلّيا عن اشتباكهما، ويتركا التجويف الذي أعدّه الفنّان لهما. خيل إليه أنّ

نزولهما سيأتي بصوتها، ويعبئ حناجر السجائر التي تلتهمه بشوق جديد. جف حلقه من شدة القحل، شكاسرا وصمت. وكان إذاك يتوهم ضربة سحر تعيدها، ويردد كي يطمئن نفسه أو يطمئنها.. وليعودا بعد ذلك من حيث أتيا. لكن شيئا من ذلك لم يحدث. اللوحة بقيت فوق سريره، وأوراقه بقيت عارية، وسيجارته ممتلئة بالكبريت.

- 4 -

جديد عليه هذا الفقد..
لم يعرف أن الوحدة التي سيعيشها لسنوات تأتي بعدها أسوأ ما سيعرفه عن نفسه، وكل ما سيفيض به. كان يعرف أناسا يفيضون شوقا، حبا، لكنّه لم يلمح في مرايا الظمأ سوى نفسه تفيض فقدا. لماذا لم يكن تواقا لهذا الحدّ، لأنّه رآها؟ ربّما تهيا له، ولم تكن هي. هذه الأيام لا يعود لمكان غير يافا، حيث، ربّما وقفت. أيزهّب كي يختبر قدرته على احتمال الرمل بدون قدميها، أم على الحلم بطيف ظهورها؟ لا يعرف تماما، ولم يسجل في دفتر مذكراته عدد المرات التي ذهب فيها إلى الميناء. ولا اللحظات التي قربطت عيناه برّيش البجع الذي أحبّه متوسّلا إليه أن يعيدها. دائما عاد بمثل ما ذهب. خاويا، مكتئبا، كأنّه حين ينظر إلى الأشياء التي كانت معها يقبض على نفسه متورّطا بالذنب. أكان يعرف أنّ سنوات ستأتي بعدها عامرة لهذه الدرجة بالفقد؟
أعادته يافا بصفعة حريق في الذاكرة. ولم يستطع أن ينتظر فيها أكثر

مّا يفعل قمر على باب غيمة، ورجع.
لعلّه منام ساعة يقظة، همس لنفسه كي يصرع الشكّ باليقين. لا يملك تفسيراً لما حدث، منام يقطّ.. كلّ وجه امرأة، تشبه تعابير وجهها، وحقيبتها. ثمّ شيء ما حدث. لا يذكر التفاصيل تماماً، نزل مطر، أو ربّما موج غمر سطوح المراكب وغمره. يفتح عينيه على اتّساعها كي تتسع في لونيها الذاكرة الغائبة. فيلسعه الشكّ.. حين ابتلع يافا الطوفان ابتلعها، وحين انحسر الطوفان لم يعد بها. «بعد اهتزاز الميناء بالطوفان»، يقول ويصمت. يدلكّ رأسه بشوقه وييديه.. اختفت نشوة، ومعها الحقيبة والتعابير، وكلّ ما ينسبها للأسطورة مدام بوفاري.

حين استفاق وجد نفسه فوق سريره يرتجف من شدة العتمة. نادرا ما تصيبه العتمة بالبرودة. هل استحال البرد إلى رمل يعفر الأقدام والوجوه بالعتمة؟

- 5 -

أحسّ بحاجة ملحة للبكاء. متى بكى آخر مرّة، كالبكاء السريّ الذي يندرف من زجاج اللوحة؟ رجل الرّسمة لا ينجل من البكاء، أمّا دمه فحكاية لا يحكيها حتّى لنفسه. لم يبك أيّامه من قبل، وبكاء الرّجل يحرضه على الجهر بدمعه.

داخل السّجن علّموه أنّ الرّجال لا يكون. وإذا بكوا فبعيدا عن العيون. «لكن للفنّانين أمثاله دموعا من نوع آخر تحرق الجسد إذا انحبست». العين التي تراها عين، قالوا، تصيبها لعنة. هو لم يصدّق

ما قيل تماما، لكنّه بعيني الرّجل الّذي لا يعرفه سواه يدرك كم لا يحبّ أن يراه سواها يبكي.

أخطاؤه تحاصره، تبذر رأسه بزعاها. كان قاسيا، ومعلولا بأنانيته الدّبة. أسرف في تسويد اللّحظات الّتي هيأتها لقلبه ونعناع شفّيته، ولم يترك على وجه المخدّة مكانا تعلق فتنتها عليه. صعبها تبذيرا لفنّه، ولأحلام نسجت من خرافتها ربطة عنقه، وأحيانا جرابه. بينما ظلّت رأسه مسدودة بكلمة سر لم يعثر عليها قبل أن يضربه الفقد بشدّة.

لأيّام طويلة رماها بالوحدة. وضعها في جراب علّته وأعلن عليها القطيعة. غسلت ساعاتها بصابون أضوائه، لكنّها انهارت حين أطلق عليها سجنه وعهره. لقد جعل منها امرأة بائسة، وتعيّسة. أين كان قلبه، وهو يتابع انهيار أنوثتها، ولا يحرك ساكنا؟ في طرف ذاكرته لمح ذراعيها مفتوحتين لاحتضان رأسه المدمّرة، وشهق فجأة بصوت عال سمعه الرّجل الّذي غسل زجاج اللّوحة ببيكائه السّري، وربّما عقري المنبّه الشّرس. خلف شهقته أورت ابتسامتها شجيرة غار اقتحمت عتمته الباردة. في هذه اللّحظة ملأت أنفه برائحة صوتها العميق، بين القرفة والحناء، همس وابتسم رغما عنه. كرائحة شعرها بعد حمّام ساخن، وتزلّجت دمعة شقيّة ساخنة من قلبه على خده.

كم نصف ساعة مرّت، وهو خلف بخار وجهها وجسدها ينتظر أن تخرج كي يغمر أنفه وشاربيه بتلك الرّائحة الغامضة من شعرها البليل؟ حين علا صوت المنبّه على هواجسه لم يعتب عليه هذه المرّة، إنّما استدار ثانية خلف رأسه، وتمعّن برأسي الرّجل والمرأة داخل

اللّوحة. ثمّ فكّر أن يؤلّف كلاماً يقولُه اثنان مثلها لحظة اتّصال ريقِهما. قفزت ذاكرته بين رأسي الرّجل والمرأة المتلاصقين، وتذكّر أوّل مرّة استبدلت القُبلة بالبوسة، ومنحته ريقها. يومها شرحت له معادلة غريبة في تواصل رجل وامرأة. قالت، إنّ البوسة ريق، والعرق جسد. بلاهما يبطل مفعول الأرق والألق. استغرب من بديهيّات عالمها. انفعل من قدرتها على إقناعه.

بفيض شوقه الحار للقائها تذكّر أنّه تمّنّى احتضان رأسها الصّغيرة بين كفيّه، وفكفكته كي لا تفاجئه أكثر ممّا فعلت. يومها لم يقبلها كما أرادت، بل كما أراد هو. أطبق على شفّتيها إطباقاً، تماماً كما تفعل الصّقور لفرائسها. لم يعجبها شكل اغتصابه الغريب لريقها، بل أحبّت أن يقضمّ فمها كما تفعل الفئران للجزر والقرنبيط. راوغها لأقلّ من عشر دقائق. احتجّ: لكنّك تعرفين أنّي لا أحبّ الفئران. ولا أنا، قالت: لكنّ قضمها يحكّ الرّغبة، غسان، ويفقدها صوابها، علّقت وحكّت رأسها ب صدره مثل قطة متمرّدة تعرف أنّ جولات فرّها تعيد فروتها أكثر حاجة للإذعان والطّاعة. حدّق فيها، كأنّه لا يفهم، هل تبغينني كأحد مجاذيبك؟ تحطّم ثورته بحكّة صغيرة من شفّتيها لأنّه، بل ككلّهم! تهمس، ولا تتوقّف عن التحرش برغبته. ألذّ امرأة اعتنقها الخبل. يحيط خصرها ويقبل عنقها قريباً من صوت المذياع الذي لا يتوقف عن الثرثرة. ألف امرأة حينذاك تخرج من جسدها كي تحتال أو تحيل جسده، مخاتله، تقترب منه فيصبح كلّ جسدها. تلبس صدره العاري فيخيل إليه أنّها أوّل العالم الذي عرفه، وآخر ما سيطبق عليه نارنج عينيه. في آخر العالم، يقولون، ثمّة مكان منزوع السّلاح تحترب فيه الرّغبة أو

اللّعة، سيكون لها وحدها. وستبلي فيه كما أبلت كليوبترا، وربما أكثر. لماذا هذه الكليوبترا تقفز إلى رأسه دون توقّف، كأنّها آخر النساء. أذلك يدفع وجه نشوة أمامها؟

تعرف كيف تلتحف امرأة بدن رجل، وتغير فيه إغارة فرس حرّة بدون لجام. بسرعة تنكمش وتصير قطّة وديعة لزجة تتمسّح به في المرّة ألف مرّة. تصوير لبؤة ساحقة الأنوثة، تندف رائجتها كندف جليد على قمم التاترا ذات شتاء قاصف.

هكذا يصبح اعتناق البدن علامة! يحاول أن يقي على جوعها، أوّل الأمر، يريد أن يكتفي بالقبلة التي منحها ويغادر. لكنّها محتالة محنّكة، تسجبه مع رغبته إلى عتمة داكنة خلف النافذة، وتدسّ رأسها فيه بنعومة. تنزلق في قلبه، وتدعه يبحث عنها. تنغمر فيه بعنف. حين يعثر عليها يحاول أن يدفعها عنه برفق، فتتمسّك بجيد عنقه، وتمرّر شفيتها حيمة طريّة فوقها. من عنقه ينبت الملح، تهمس في أذنه بجذل: «وأنا لن أستبدل ملح قلبك بملح البحر الحيّ والميّت» يضحك من قدرتها الفائقة على استرداد مراييل الطفولة بجملّة واحدة.

تهزم رجولته في كلّ مرّة. تجعل تفاحة آدم في عنقه كرة زجاجية تتقافز بين أصابعها. كأنّه يكتشف قدرتها البارة على الإثارة، وهي تحرّكها على وقع شفيتها يمينا وشمالا. الأوكسجين لا يصل إلى رأسه تماما، وهي لا تكفّ عن تحريك رأسه بهاتين التّفاتحتين المجنونتين.

جنّته، سيعترف بذلك، لنفسه على الأقل. احمرّ وجهه وأصبح بلون التّوت. كأنّه لم يكن راضيا وهي تندمج في محاولة السّطو على

فمه. تقضمه على مهل كفارة حقل متمرسة.
هكذا تفعل الفئران، حين تصل إلى لبّ الجزرة تنتزع لذتها. وهي
مثل تلك الفئران تقريبا، في قمة النشوة تنتزع ريقها من عمق فمه،
وتهرب.
مرت دقائق طويلة قبل أن يعود إلى نفسه. حين عثر عليها كانت
شرايين عنقه قد تحلّت عن مكانها في رأسه، ووجهه ناصعا بلون
الشمع الأبيض.. باردا جدا ومحايذا.

- 6 -

- ١ -

أين كانت إذن وهو يلاحق النساء؟ هل يستيقظ عشقها له وتحجى؟
لا يعرف تماما، لكنه يتأكد يوما بعد يوم أنّ أضواءه لن تتعافى بدون
نفخة من فمها. لو أنّه تعقّب مكتب السفر الذي أرسلها إلى بيت
غير بيته، وإلى رجل سواه لتغيّرت أمور كثيرة.
هكذا بدأ يسترجع أيامه القبيحة. كأنّ ذاكرته المثقوبة لم تعرف كيف
تسغفه. شلّت مرايا عينيه أيضا. لا يرى خلاف تعابير وجهها،
وحقيقية كانت خاصة مدام بوفاري الخرافية. سوداء ربّما بلون
غيابها، غافله الطوفان وهو يتذكّر، أخذها وذهب.

- ب -

تكتكة المنبه ابتلعت دقات قلبه، وخفقت عنها. كأنها قررت أن تقول ما لا يحب أن يسمعه. كانت رأسه مخمورة برائحة السجائر، ولم يشأ أن يستبدلها بشيء آخر، ولا رائحة العطر الذي ينبعث كلما أغلقت العقارب استدارة.

فكر، وهو يصارع الرماد كيف يحيل العطر إلى امرأة ينثرها على ساعات صباحاته القادمة. واسترجع دون جهد أول ساعاته معها. استرسل قليلا لخطوط رأسها ورسم فكرها، امرأة تقضي أياما في نسج الوقت. كتبته على ورق مختلف الجنسيات: أحمر أخضر، بني وأزرق. قليلة مزق الأوراق البيضاء التي عبأت بها وسائد غرفة الضيوف.

غريب، قلبته الهواجس. مرة على ظهره، ومرة على جنبه، ومرات على رأسه. أكانت تخطط لسيناريو اليوم الذي سيأتي بعد ورقها بتلك العناية؟ كيف لم يخطر لها أن امرأة ستدخل حيث دخلت، وتقرأ عنه ما أعدته له وللوسائد من وجع؟ أكانت تحتال على الصدفة أم تحتال عليه؟ حجرات بيته لا تفشي الكلام ولا الورق، قطعت الجملة شوطا طويلا إلى حيرته. كيف إذن أفشاها لبنات الليل؟

خبله كلامها. يمسك به، كأنه يقبض على جمر. يومياتها ساخنة،

ترمّد الأشواق. أكان يعرف أنّها تحبّه إلى ذلك الحد؟ بتلك الغرابة كتبت عشقها كي تباري الواضح. لا يحدث أن تدفعك غرابة لاكتشاف الواضح فيك. لكنّه في ذلك الصّباح الغائم عشر على غرابته واضحة، وانزعج من نفسه. وجد نفسه متناثرا بين سطورها بدون ملامح. مجّ من سيجارته بعمق قبل أن يعترف أنّها أوّل مرّة يرى هيئته مشوشة في شوق امرأة. أحبّته نساء، همس، ليس كما أحبّت.

قبل اختفائها بأيّام وقفت أمام سريرها، ومدتّ يدا ضعيفة، كأنّها تتسوّل قبضة دفء. همست كأنّها تستجديه: « أريد حفنة من قلبك»، وحاولت أن تبسم. سخر منها ورماها بالخيبة، وهي لم تكن مغبونة وخائبة إلا معه. هذا ما كتبه بخط صغير أزرق على الورق الذي حشرته داخل الوسائد.

- ج -

كأنّ الدّنيا استحالّت إلى مجموعة وسائد متحرّكة تلوح بتاريخه مع جميع النّساء. بكى بحرقه شديدة، كأنّها في تلك اللّحظة تماما مشّت بين المقاعد الأماميّة للمسرح وكتبت حضورها في حيرة عينيه. حاول أن يعدّ على أصابعه الرّجال الذين شدّوا أذيال ثوبها، وأذني قلبها وهي تتجاوز المقاعد، وتفرّ إلى باحة المسرح الخارجيّة. حاول أن يسترجع شهوته وانسحاره، ويتذكّر كيف ركلت الأصابع والأكتاف كي تصل إليه. نظر إلى الأوراق الخائبة الّتي بين يديه، وللحظة أوشك أن يغمى عليه.

منذ متى لا يعرف رجل أنه غلاف امرأة، غلاف فصولها الجامعة والفاصلة. صمتها الحائر والعابر. هل فكّر، وهو يجهز على أيامها أنه يُجهز على أيامه أيضا؟ وتساءل، غلاف قلبها؟ دوخ السؤال لياليه. هل دوخه غير خرز تلك المرأة؟؟

ليتها خانتة إذن؟ كتبت في إحدى يومياتها. لا يعيد للرجل صوابه غير الخيانة. تُرى هل غسل الاستنتاج قلبها من الحقد؟ وهل نزل القطن أكثر بعد هذه المقولة كي يلون الشتاء؟

هي من يكسب الرّهان الآن، اعترف دون مداورة. انهال الكلام على رأسه انهيال البرّد. عبّاته أوراقها بالذاكرة، وكأنّه قبلها كان بلا شيء، غريبا عن ماضيه، دخيلا على حاضره.

تمطره بأجزائها. بغياها النّازف من عينيه. تنتقل بينهما كأنّها تعاقب وحدته. تدفع إليه نهذا عامرا بالدّفء. لم تلتو عنقه داخل بركة كالتي لمنبت عنقها. على مقاس فمه وشاربيه، أو ربّما على مقاس قلبه.

أراد أن يبقى بها، لولا أنّ المنبّه كتّ أرقامه العجيبة في عينيه، وأفزع سرب العصافير الذي وقف ينقر ثلجها. تعالق العقربان ودقّت ساعة الحائط، ترك المنبّه وانشغل بالعقربين المتشابكين، يعجبه هذا النوع من التّشابك. ابتسم وهو يعدّ اثنتي عشرة دقّة، كأنّ هذا الحائط لا يعلن وقتا، بل يورّع لحنا على قيثاره، علّق وأصغى إلى ثرثرة قلبه.

ترك فراشه، ووقف بخط أفقي مقابل الساعة المعلّقة. كأنّه يريد أن تسمعه. مرّ وقت طويل منذ تحدّث آخر مرّة. مسح على لحيته القصيرة، واسترجع صباحا عزفت فيه هذه الساعة بمثل ما

تعزف الآن، وراودت حنجرتة هاتف امرأة. حدّق مباشرة بقرص الهاتف، ثم أدار له كتفيه، كأنّه يعلن القطيعة عليه أو لا يعترف بصداقته القديمة.

بعد ذلك مشى ضائع الخطو، مرتبكا يغالب رغبة خانقة بالبكاء. اتّجه إلى المطبخ كأنّه يعتلي مركبة سيتغلّب فوقها على نقص الهواء. بين الأواني والفناجين المبعثرة كان قلبه قد جلس ينتظره. حين لمحّه ابتسم، وبدأ يعدّ قهوة كانت تحبّ مذاقها من يديه. نعم تذكر الآن، ودون جهد أنّها أحبّت قهوة يصنعها القلب.

انشطار

- 1 -

— هالو، صباحك سكر. قال
— لم أتوقع هاتفًا على الهواء منك. قالت.
— الرجال أقدر من النساء على منافسة الوقت. قال
— لكن النساء هنّ من يحكمن لصالح الفائز في السبق.
قالت
— أنت امرأة غير متوقعة. قال
— وأنت رجل يحترق بسرعة. همست وأقفلت سماعة الهاتف
بهدهوء كي تنجو من تشنّج أنفاسها.

- 2 -

تذكروا معاً أول هتاف لوح لزرقه البحر. هو بافتقاد، وهي بانسراق.
كيف يسرق الكلام شهقات الهواء من جنبات الشوق؟ ويصير لصاً
مع سبق الإصرار. هل ستحتجزه شرطة الآداب كما أراد والدها أن
تفعل في سابق الأيام لمعلم الأحياء؟
كلاهما كان أمام بحره يحتسي قهوة مدينته ويحترق على مهل. ليلان
ينزلان معاً، ليلان يُبددان، وورق واحد يتراكم تحت النوافذ وعلى

حواشي الأرصفة هو ورق الشجر. لو نبتت في قلبيهما شجرة لتساقط فيهما نفس الورق، همس لنفسه. دائما وجد نفسه بقهوة ساخنة ونصف مرّة، ودائما عثرت على فنجان القهوة في يدها حارا ونصف حلو. كأنه بنصف مذاق، همست وتأمّلت أصابعها الصّغيرة كأنّها تراها للمرّة الأولى.

أكان سيلتقي النّصف الحلو بالنّصف المرّ لو أمكن لفنجان القهوة أن يحافظ على درجة فهرنهايتيّة واحدة؟

نظرا معا إلى البعيد. إشعاعان ضوئيّان انطلقا من عيني عقارب الساعة إلى الرّمّل. لا أحد سواهما تلخّ عليه حالات العناصر. لا.. ليس تماما، الرّسم البياني لتموّجات الزّبّق. بين الممكن والجائز تحصّرت لتسجيل ظاهرة في صراع الوجه مع العجيزة، والحقيقة مع المكيدة، واللّحن مع اللّون.

استرجعت نفسها، وتنهدت. جرّوت على القول، أنّه هو الذي عرّى عُرفه لورقها. أراد للورق الذي تأتي به أن يلبس شكل الوجوه والأجساد.

استرجع نفسه، ومجّ عميقا من سيجارته. استدرجها صوته. أراد أن يكون تلقائيّا ومباشرا. هي أحبّت المراوغة، قال. نسي أنّها امرأة تكتب بريش دهائها. فكّر المرأة لا ينسى مرجعيّته وهو يعلن جديّته، ويوثق بأنوثة عالية هواجسه. هكذا يعلم لؤم الرّجال النّساء، النّيش في ثقوب الألم.

في لقائهما الثالث أحبّت أن تندesh. بدون مقدّمات احتوى زمّدة وجهها، وهمّ بتقييلها. لا يأتي الحبّ بنوايا مبرمجة. يدخل حافيا، قالت له وضحكت: «لا ضرورة للحبّ الآن، للرّغبة طقس آخر.

خذ رغبتك وامض»، قالت بجديّة متناهية.
فكرت أن تراجع قبل أن تبتلعه إحدى الغرف. خلاف ما توقّعت،
وجدته يمسك بيدها، يرفعها إلى فمه كأنّه يرفع مع أطرافها حلما.
يقبلها بخفّة. يمسّها مسّ الممحة لغبار الطّباشير. يمحو خطوط
القلب الذي شهق، قبل أن يعيدها إليها.
بعد ذلك بدأت تشكّ إذا كان لفمه شفة تقبل ما تحبّه، لم تتأمّل
وجهه جيّداً. همست لنفسها، وهي تدخل بيتها، وتتحنّس ظاهر
يدها. وكأنّ الهوس لبسها تساءلت: هل كانت قبلته محسوسة لحظة
نزولها، أم أنّها قبلة مجرّدة يستفيض فلاسفة الفنّ، أمثاله، في الحديث
عنها؟

— 3 —

جاءت إلى يافا كي لا تتذكّر. إذن كيف لا تذهب إلا إليه؟ يفلق
الغرفة التي رأتهما معا كي لا تحاصره، فتتركها وتبحث عنه في غرفته
الجديدة. مثل لعبة القطّة والفأر مسألة انحسارهما، ومثل لعبة الموج
والشاطئ ينغمران كي يتكشّفاً الواحد للآخر عن رونق جديد.
ترى أهو من يناديها، أم أنّها هي من يقتحم حاضره عليه؟ ألكي
يذهب، أم لكي يحضر بأقوى مما ذهب؟
لا يملّان من ملاحقة المراكب والموج. هي - قريبا جدا من الميناء،
وهو - قريبا من الشاطئ. من مخدعها تلاحظ الحياة تمشي على
قدمين. أمّا قدماه، فممدودتان حتّى حافة الشّرفة، وهو غارق
في كرسيّه المتأرجح. كانت تنهال عليه مع عقارب ساعة الحائط.

توشوشه شيئاً. تضحك وتختفي. تعود ثانية كي توشوشه شيئاً. تضحك ثانية وتختفي. تلاعبه لعبة التغاية كي يفهم أن اختفائها دعابة موج لرمل ساخن. قد يعمي بصره ويغلق غرفه على العتمة، لكن لزمن من التأمل الطريف.

في المرة الثالثة، حين عادت، تأملها بشوق مضاعف. سمعها تناديه، غسان غسان، أنا مشتاقة للحلم الذي يسقط من فمك حين تقبلني. التفت إلى الخلف. تأكد أن قامتها الضئيلة تسد شق الباب الضيق. للحظة قصيرة صدق أنها تمد صنارة ابتسامة. ترك مكانه، خطا خطوتين ثم ركض. حين وصل لم يجدها، لكنه سمعها تبكي من سقف الغرفة. تذكر حيل السانتا كلوز مع أطفال الثلج وجراتات الهدايا، فانفجرت أساريره، وأوشك أن يأخذه الضحك. لكن بكاءها كان حاداً هذه المرة، أخذه من الضحك إلى عمق كآبة لم ينجح في تفسيرها.

سيُجنّ إذا بقيت تنكش قلبه وروحه. تلسعه في مرفق الوهم. تعيده ولا تعيده من الحلم. تعنّف أفكاره وتدفعها إلى مرايا كاذبة. تغسلها بالتيه. هل سيرسم معها سيرة مغامر؟ ليس أمامهما غير الرمل. يوهمانه أو يوهمهما. فكّر بعقلانية شديدة هذه المرة، حتى لا يؤذيه الوهم يجب أن يحاصره بالأضواء، هكذا سمع أحد الفلاسفة يقول تذكر، والتمعت عيناه بريقاً. كم مرة رآها تصفّق له، وهي تلاحظ الخشبة محاصرة؟ كثيراً فعلت، وكثيراً التفت إليها بعيون انتصاره على دهائها.

في يومياتها عنه فسّرت لماذا لم تكفّ يوماً واحداً عن الرّهان عليه. كانت خائفة من فشله فحرّضته على شخصيّاته. تركته يغسلها ألف

مرّة بالأضواء. كان فنّانا ذكيا، تُسجّل. وقد أحبّت ذكاءه، لكنها خافت عليه من الملل السريع. بمثل ما يشاق يملّ. تساءل باستغراب شديد، متى دوّنت كلّ تلك الأوراق؟ لقد تعبت عيناه من الاستنتاج. كتبت ألغازا، ولم تسجّل كلاما. أكانت أيام ضياعه عشاء ورقها؟

__4__

غبار المراكب ملأ عينيها بالسراب. إنّها لا تحبّ المرايا الكاذبة التي سافر إليها غسان على غفلة من قلبها. ومن يجرّو على النّظر في عينيها الآن يرى كثنانا صفراء حارّة وباهتة تتقلّب فيهما بجزع. حين لاحظت اكتظاظ المراسي حدّ انسداد أفق البحر اعتقدت أنّ البحّارة بانتظار حدث غير عادي. هل سيعدّون كميناً لأسماك القرش؟ فهمت من أحد البحّارة أنّها أيام فاصلة في مستقبل الصّيد. إذا هيّا الصيّادون ظروفًا مناسبة فكلّ شيء سيسير على ما يرام، ستخرج القروش في موعدها إلى شباك الصّيد. خلبتها الفكرة، لم تعرف أنّ مواسم إغارة القروش بالنّسبة لهؤلاء الرّجال مواسم فرح. يبدو الأمر ليس بسبيّ إلى تلك الدّرجة. فكّرت أنّ تنتهز قيلولة البحّارة عند الفجر وتفاجئ شباكهم كي تسطو على إحدى السمّكات. واحدة فقط، لن تطمع بسواها. أكانت تعدّ نفسها لجولة حلم؟

أغمضت على كثنانها المتحرّكة، وتساءلت بحنين لا تملك أن تقاومه، وسرا بحثت في قلبها عن إجابة. هل يأتي ثانية كي يتأكّد

من وجودها؟ هل سيفكر بالبحث عن حقيبة تشبه حقيبة مدام بوفاري سيّئة الحظّ تلك؟

5

جاءت الأيام التي أعقبت لقاءها بغسان طافحة بالقلق. أصبحت امرأة حبيسة التفاصيل. كلّما دبّرت فحا لإغراق ارتباكها أوقع ارتباك حقيبتها وهواجسها بها. لم يكن أمامها غير خطّة واحدة، الهرب، حيث تصطبّخ الأشياء مثلها. الموج في فجر شتائي أفضل مناجيها. في مثل تلك الساعة يصطبّخ الموج بالرّغوة والرّغوة بالصّخر، كأنّ وجه الصّباح ينغسل حينها بماء الزّهر. يطل فتيا وفتنا يركض خلف ساعات أنقى ودقائق أنضر. قد ينغسل رأسها بما يشبه ماء الزّهر ذاك. وتقلب إلى غزالة تركض في بريّة مُطلقة كحل عينيتها وساقها لهواء أخضر.

لقد أنقذتها حروب الأمواج من ارتباكها ومن هواجس حقيبتها السّوداء، ومنه، غسان الأمكنة الغربية. مرقت صورته في خاطرها خطفا فارتعد فكّها، كأنّ مروره الخاطف أربعها. هجست قليلا: «إنّه مثل القرش تماما، لو أنّه تحقّق من وجودها لافترسها بزخّة ندم». ليس كذبا ما يشاع عن حساسيّتها المفرطة. لو أمكن لها أن تكون أقلّ من ذلك بقليل لتغيّر المشهد.

كان يؤلمها حضوره فيها. عادت تهجس بما قالته عن قلبها، لو أنّه تحقّق من حضورها لأمر عن السّماء ندما، وأغرقها. لكنّها توقفت لحظة عن الهجس، كأنّها تنبّهت للفتح الذي تدفع نفسها إليه. وحين

سيغرق كلاهما من سينقذ الآخر من البلبل؟
اليوم ترتب التفاصيل فوق الوسادة. تنزع بعضها من حقيبة الجلد،
والبعض الآخر من حقائب رأسها. أصبحت رأسا بألف حقيبة.
لكنها تعرف أنها لن تفعل بتلك السهولة. يجب أن تهين ظروفها
أفضل لاحتياها على الوجود. تبخله قبل أن يتلعبها كسمكة القرش
تلك، كغسان. تلفظت اسم غسان هذه المرة بشوق شديد وضيق
شديد.

بدأت تفكر بصوت عال كي تسمع أنفاس تمردها أو خنوعها. هما
سيان وسط حقول العتب والوجد التي تلفها. ماذا تريد من غسان
الآن؟. أعادت إلى يافا لأنها تحبه، أم أن الذي يدفعها إليه هو عين
المطرب الذي أخذها منه، ثورة كبرياء؟
يا للنساء! همست على مضض، كم تبدو بحاركن غائرة وأشواقكن
وعرة؟ كأنها لا تحدث المرأة التي استيقظت من هواجسها، وفتحت
حقائب رأسها دون حيطة.

__6__

أرسلت قلبها إلى الميناء. لفت ذراعها تحت رأسها، وأسندته إلى
الوسادة. فكرت ثانية بغسان. لم يمض وقت طويل على عودتها
من الميناء، حتى شغلته باكورة الذكريات. هواجسها حمقاء
أحيانا. كانت تعترف بتلقائية ودون اعتبار لنفض قلبها الذي يرتفع
منسوب حينه. استرجعت ظهور غسان المفاجئ أمامها بشيء
من اللامبالاة، كأنها تتجاهله عمدا. بكثير من الغضب وشيء من

الحزن. لو أنّ اللامبالاة وشت بها لأشاعت أنّ عودتها لم تكن إلا شوقاً إليه.

هل ميّز سحنتها الجديدة أمام الموج؟ كانت أنحف مما توقّع. ضامرة الوجه، ونحيلة القوام. لم يتعرّف إليها بدليل أنّه لم يحاول ولو من باب حبّ الاستطلاع أن يستوقفها. خرجت إليه شأن ذلك المارد من نجمة البحر وصعقته. لا، بل صعقت نفسها حين رآته يتقدّم حيث هي. لم تعتقد للحظة أنّ لقاءها به سيقلبها هكذا رأساً على عقب. وربّما سيؤدّي بها للبحث عن وكر جديد تفزع إليه. مدّت سبّابتها بمواجهة المكان حيث رآته، وتساءلت فيما إذا كانت ستخرج لملاقاته لحظة يعود كي يقلب الصّدف بحثاً عن قدميها.

الفصل الرابع

ضحكت حتى اغرورقت. وصلها الحذاء. قصّة جميلة، وعلى مقاس قدمها. لونه توتي، بلون حروف الشارع الذي يتجول في بدنّها. قطنه ساحر. هذا كلّ ما تعرفه. كلّ ما تتذكره. كعبه متوسط، ومستدير كأنّه يعترف أنّ المدينة قد استدارت بعدها حتى غارت كعوب الأحذية، وأصبحت جميعها مدوّرة.

وضعته أمامها، وقارنته بالتّخطيط السّريع الذي خربشه، فوجّدهت مُفرطاً في الأناقة. أحبّت الأحذية المزوّرة مثل عنق نعامة. كانت تعتقد أنّ أضرارها تربطها عضويّاً بأعضاء الجسد الأخرى. لا بدّ وأنّ تعترف أنّ هذا النّوع من الأحذية سبب لاعترافها بالملابس الرّسميّة.

- 1 -

عاصفة مطر. ليس حبّاً مائيّاً من النّوع المعتاد، إنّما ثمراً مائيّاً. كلّ حبة بحجم ثمرة ليتشي. زار ميناء يافا، وهو ينغمر بثمر اللّيتشي الزّجاجي. يمرّ منه مروراً سريعاً ثمّ يتسلّق سطوح المنازل العارية.

لقد غسلتها العاصفة من ألوانها تماما. وكان الذي ينظر إلى فوق لا يرى سوى هالات شفافة تضيء وجه الغيم، وتكسر تكتمه على ما يَعد به العتمة.

نظرت من زجاج النافذة الذي يسافر بها إلى كل مكان، ويبقى حيث هو. إلى الميناء أولا. كانت لا تزال تنتظر ظهوره على غلاف الرمل. مدّت سبابتها كما في مرّات سابقة في مواجهة هواجسها، وألقته إلى الموج. تخيلته كما فعلت في مرّات سابقة، ضائع القسمات، منطفئ الذّاكرة، ويفتقدها.

يجب أن يفقددها. هل انتشت نصوصه تحت الأضواء بعدها؟ هل عرف كيف يعشق.. كيف يسطع، يورّع خطو الأبطال بعد قلبه بأشبار كما كانت تفعل؟

كم تبدو متفائلة بذاكرته! ألم يستبدلها بدّة شقراء كدب الأقطاب المتجمّدة؟ فجأة انقشع الضّباب. خلفه ظهر أحد المراكب. من بعيد تألّقت أضواؤه كأنّها تغني للعاصفة. دون أن تشعر غنى قلبها أيضا. زحف دفء لذيذ إلى قدميها، ولوّن وردة شفيتها، بينهما تورّد غسان مع الأغنية. مع المساء والضّباب والمراكب المضطربة فوق الموج. شأنها شأن موجة مهدّدة، في كلّ مرّة ترعد السّماء ويشكّها البرق، بالابتلاع. هل خافت على المركب، أم على النّجمة المتخيّلة، أم على نفسها من سوء المصير؟

مدّت رموشها عبر الزجاج. يمنحها الشّتاء عادة إحساسا غريبا بالحياة. كأنّ كلّ من جاءوا قبلها ماتوا ومن سيجيئون لا تريدهم الحياة. ملكة الأزمنة البائدة والقادمة أمست. هذا ما تعمّرها به حبات الليثي النّاصعة التي بدأت تداعب ملابس نومها. لم تقاوم

أكثر، كانت قد فتحت النَّافذة على مصراعيها وجعلت نصف جسدها مُشْرِعا للعاصفة الباردة وحبَّ الليثي الممتلئ مثلها بامتلاك الحياة.

يتأرجح المساء بين كتفيها العاريين كما يفعل طير سنونو على حبل هواء. كان الخيط الذي يمتد بين كتفيها ليف شوق لا يمسك تماما. المساء على مرمى ساعة أو ساعتين. انكمشت وضمت جسدها إليها. كانت سعيدة لأنَّ المساء يهدي عاصفة لقلبها. من غمرة كتفها العارية انبعثت رعشة، ومن بعدها جرت الأمور على سجيّة العاصفة. كيف فتنها هذا الإحساس الغامض فجأة، كأنَّها ستغامر بهواجسها. كانت دائما غرفة لامتطاء الهواجس، ودائما كانت مهيةً للسفر. حتّى حين حطّت فيها، وهي مشغولة بمزاجاتها السيئة. رعشة جديدة غمرت منتصف كتفها العارية. لعلّه البرد، همست. رغم أنَّها على يقين أنّه شيء آخر. بشائر المغامرة كانت ترسل شررا أرعبها. لم تنشغل بتساؤلات لا طائل منها، بل أغلقت باب الحمام خلفها وألقت جسدها لبخار الماء الساخن. كانت تهيئه لمناسبة لم تتحقق منها بعد.

حين دخلت غرفة نومها ملفوفة بالربوب الأبيض وأوراق اللّوتس تجلس أعلى رأسها أحسّت بالانتعاش. رأت بخار وجهها الخمري يطلق نفسه على المرأة ويكتب اسمه، غسان أيامها المنقضية. بماذا ستفكر امرأة تخرج من بخار الصّوابين والرّوائح؟ ماذا ستفعل واللّوتس ينزل من رأسها إلى ركبتيها العاريتين، ويحرضها. ابتسمت وهي تلاحظ تبعر الأوراق البيض وانفلات الزهرة من بينها. مدّت أصابع رشيقة إلى زيت الياسمين ودلّكت به جسدها.

حول عنقها مسحته بزيت نجمة البحر، ثم أطرته بعقد من الخرز الكريم، عميق الزرقة. براق كجوع صدرها. مستفز مثل نظراتها. تأملت شكل انعكاسه على جسدها، وهي لا تزال عارية، فشدّها خليط الأضواء العجيب لزيوت الأزهار التي تساقطت قوّة على مفاتها.

تركت المرأة، ومشت حافية على رؤوس انفعالاتها إلى خزانة الملابس. انتقت فستاناً خمرياً ضيقاً يلف جسدها لفّ قشرة لقرن موزة ممتلئة. حين لبس جسدها أبرز مرونة حارّة لا تليق بكلّ النساء. كأنّ الفستان حينذاك لم يلبسها، بل انمرح على تقاطيعها انمراح الزبدة على قطعة خبز ساخن. وانبعث منه بريق أخذها. وقفت أمام المرأة تنظر إلى أجزائها المشدودة بعناية تحت القماش. تتحسّس نفسها بشك. تسائلها، ومع تساؤلها العالي ينغرز دبّوس انفعال في قلبها. هل سيلفت الخمر أحداً إلى حياده؟

استدارت على نفسها، وفكرت أن تستبدل الخمر بلون آخر أكثر قدرة على تسخين جسدها واجتذاب قريحة الرجال والنساء إليه. لكنّها، وهي تستدير بحركة راقصة على نفسها كي تصبح في متناول الخزانة غمزت لها المرأة. ذهلت، للحظة، ولم تستوعب ما حصل. تساءلت بصوت عال، أغمزت لها المرأة، أم أنّه بريق الزبدة الذي استوى بإغراء لا يقاوم على تقاطيعها المتسقة؟

احتضنت حركتها الراقصة ولفّت المكان، لكنّها توقفت كأنّها اندهشت من رقصها. لا بل كأنّها انزعجت. بقيت سحنتها باردة ومتجهّمة حتّى دقت أبواب ذاكرتها العاصفة. مع صفقها العنيف لخشب النوافذ تحلّلت من البرود والحياد. وكأنّها عصفت بها شوق

لا سبيل لمقاومته نادى بصوت عال: «غسان، أشتاق إليك» لعلّ الأشرعة سمعتها. لا تعرف تماما، لكنّها خجلت، وندمت لأنّها تخذل تراجعها.

أهي العاصفة؟ أهذا ما تفعله العاصفة بالنساء، وبكلّ النساء؟ حدّقت في زجاج النافذة فرأت وجه امرأة تشبهها. خافت، وركضت إلى مرآتها تسألها عن المرأة التي تباريها عبر زجاج النافذة بفنّ الإغراء. أعشيقه رجل سباه الضوء، أم سيّء ضوء عشقه رجل؟

من أين أتت بهذا القدر من خفة الروح كي تمنح نفسها طوعا للمساء، وللعاصفة؟ توقّفت قليلا عند جملتها الأخيرة، وعند سحنة الرجل الذي ستمنحه مذاق زبدتها الساخنة. ثم استطردت لتحذّر نفسها من عاقبة التوقّع، «على فرض أنّه سيلاحظ سمكة فضية تسبح مكانها فوق الأضواء، «أليست أمسية مسرحية؟ إذن لا بدّ للضوء أن يتلعب الملابس والوجوه. يحلّل بعضها، وبيعثر بعضها الآخر. هي ستكون ضمن البعض الذي سيبتلعه الضوء، ويحيله إلى كائن لا يحتمله الخشب. ستسبح مثل سمكة فوق الأضواء المتطائرة».

أمام أدوات الزينة تعالت أصوات رأسها. كادت تنسيها خطّ الكحل الذي الدقيق الذي تحزّز به برتقالة قلبها، وربّما قلوب محيطيها. مرّت بزهرة الشفاه على شفثيها كي تترك أثر دعة لشوق غائب. لا تطلق البريق على شفثيها قبل أن يسحق الغياب خطوطها.

تركت أطرافها تمرّ تحت عينيها بخفة وبطء كي تقيس استقامة

الخطّ الأسود، وزاوية تحدّبه. حين اطمأنت إلى زيتنها فكّت ربطة شعرها، وبعرته كيفما اتفق على كتفيها، وخرجت.

— 2 —

العواصف شديدة. أغصان الشارع تتهاوى فوق الأرصفة. نوّارها الأبيض والأخضر يغرق في برك الشارع، ثم يدفعه مجرى الشلال بقوة، كأنه يذهب إلى غير عودة. لم تكتئب، بل غمرتها نشوة عارمة، وهي تتحسّس معطفها المبلّل. تمسّكت بقبعتها الواسعة أكثر كلما استهدفها نوّار الشجر، وبقايا أوراقه العالقة لا تزال. ولو أنّها حملت، في تلك اللحظة، لوحا كزجاج مرآتها لرأت أنّ العاصفة احتفلت بمغريات ظهورها أيضا. لعرفت أنّها مغامرة العاصفة. لقد تزيّنت البراعم بقبعتها على نحو غريب ومفاجئ، وأحالتها إلى ما يشبه قطعة ربيع عابرة للمواسم. كانت سعيدة برونق إطلالتها على الشتاء. شتاء مدينتها نادرا ما يأتي بمطر، وقد فاجأها بنوافير ماء أجاج يغسل القلوب مثلما يغسل المعاطف.

«نادرا ما يأتي شتاء بنوافير ماء تغسل القلوب..» لم تنه جملتها. غسلتها هواجسها اللئيمة، وتساءلت، هل غسلت نوافير يافا قلب غسان؟ كأنّها أزعجها أن تفكّر به. توقّفت فجأة عن التأمّل. شيء ما حدث وخرّب سعادتها. كأن وجهها تركها، وذهب إلى وجه امرأة سواها. كأنّها امرأة بقطعة زجاج مكان رأسها. تسارعت أفكارها. ارتبكت قليلا، وهي تستعيد صوت الشتاء، وثرثرة العصفاف الهاربة من حبات اللّيثشي البيضاء.

من بعيد تقدّمت سيّارة الأجرة، وأنقذتها من ارتباكها. مكسوة بثوب ناصع أبيض أفرحها. تشبّثت بأطراف قبّعتها، ودفعت زينتها إلى الكرسي الخلفي. التقت نظراتها بشهقة السائق. لم يتوقع عادة ساحرة تحت عاصفة اقتلعت نصف أشجار المدينة، وربع عجائزها. حتّى استجمع أنفاسه نجحت بإذابة كتلة صغيرة بيضاء لمتها عن غصن سقط قرب قدمها.

«ثلج يافأ أخذ من قطن لندن قدرته على وقاية الحبّ من النّزيف»، همست لقلبها، «يجمّد الأنامل كي لا يترك لشهقات الرّمل الأبيض مكانا للمرور». أعادها التعليق إلى أنامل غسان، والقطن الذي جمّعه كي ترصّ به علبة سجائره الفارغة. يومها أرادت أن تحاصر احتراقه. لم تكن تعرف، وهي تفعل، أنّها تطفئه تماما، وتتسبّب لأنامله بعاهة مستديمة اسمها عاهة البرود.

يومها تذكر أنّها اضطرت لذرع شارع «كسباري» جيئة وذهابا كي تقنع أحد البائعين ممّن داهمهم دخول السّبب بفتح منفذ صغير إلى رفوف السّجائر، وسحب علبتي سجائر برودي أو ثلاث، كي تبقي على غسانها حيّا ودافئا. كي لا يموت من البرد. همست برعب مفتعل في أذن صاحب الكشك اليميني. استجاب لها بعد ابتهالات قليلة لأنّه كان مغرما بامرأة تسكن حيّا عربيا.

تذكرت محّة السيّجارة الأولى التي أعقبت اختفاء الأقلام البيضاء من أنامله. كيف يتحرّك بلا سيّجارة؟ كأنّ أصابعه بدونها ليست أصابع. تذكرت واهترّ بدنّها من الكعب. يشعلها كأنّه يشعل امرأة، وليس قلما أبيضاً محشوّاً بالتّبغ. لا تذكر أنّها تشهّت أن يدخنّها من بطنها السريّة حتّى بركة عنقها المعلّنة كما تشهّت حينذاك.

يافا الجميلة تألّقت بعد أن لمّع الشتاء طرقاتها وحجارتها. دائما
أضاف المطر لتاريخ الأماكن المنسية بعدا جماليا كي نتذكرها بوجد.
امتلاً صدرها بهواء عليل حمل نوار الليمون والبرتقال. بيّارات يافا
على أبواب نيسان تغتسل بالعطر. تعبق الطرقات والحواري بروائح
حامضة الذاكرة تدوّخ القلب. هي أوّل مرّة، منذ عودتها، تخرج
لملاقة المدينة بهذا الوهج. ولقد خيل إليها، وهي تتلفّت إلى الزوايا
أنّ عيناً جديدة تخرج مكان عينيها الاثنتين، وتشمّ رائحة جديدة
للمكان. أجل تشمّها، ولا تراها. هذا ما يحدث حين تتجاوزنا
الأشياء، وتدعوننا كي نعر على ما أضعناه عنوة في رسمها.

— 3 —

أكلهم كانوا أغبياء؟ جميع الرّسامين حتّى أهملوا خبر رملها! خبر
يافا يرسمون به بيوتنا من بخار. كلّما تبخّر بيت نهض بيت سواه.
من يدخل يافا يعتقد أنّ المدينة متوالية حسابيّة لبيوت تعيش تحت
الغيم. وأناس المدينة لا يخافون من فكرة التحاف العراء، إذما
قرّرت دائرة الأراضي الاستغناء عن طوب بيت وتشريد ساكنيه.
هم جيّد يعرفون أنّ بيتا جديدا سيفزّ من تكاثف البخار. بخار
الموج أو بخار الغيم.

«التكبة الأولى علّمت الطوب أيضا أن يقاوم موته» سمعت صوت
غسان يحكي في رأسها. آه، لو تنهض مكان رأسها رأس أخرى
كما تنهض بيوت يافا مكان بيوتها. إذن، لما هاجمت نفسها على هذا

النحو. كل دقيقة صمت فسحة لمحاكمة مستعجلة.
على نحو مفاجئ ظهرت بين الجموع. التفت بعض الرجال والنساء
المبعثرين بانتظار بداية العرض إليها. أرادوا أن يتأكدوا أنها امرأة
المقالات الطويلة واللاذعة التي سطعت كنجمة، وذابت كفقاعة
رغوة.

« تشبه تلك المرأة البعيدة»، هامست النساء رجالهن. تعيم القبة
لقسمات وجهها لم تعزز اعتقاد الرجال، ولا لهفة النساء. كانت
المرأة الغريبة، لا تشجع أحدا على اكتشافها. نحيفة وباردة أكثر
مما اعتادوا من المرأة الجالسة في أقصى طاوولات الذاكرة. بملامح
صارمة، وعيون داكنة وفاتنة مدسوسة في عمق قبة. لم تكن امرأة
واحدة، بل مجموعة نساء مبعثرة ومتزاحمة في آن. تنتظر مع نفسها،
ومع النساء الأخريات اللواتي يطلن كل لحظة من تحت قبتها،
ويسألنها. لكنها معهن كانت أشد وحدة وارتباكاً من تبعر
ضحكاتهم، وارتجاف همسهم.

البرد شديد، والناس المتوافدون في مساء كهذا حمقى دون شك.
ولا بد أن العرض لواحد أكل مساحة من القلب، والذائقة حتى
توافدوا بهذه الكثافة. هجست دون توقف. بعيد لحظات سيعلن
رسمياً عن فتح الأبواب لدخول الحضور. والمرأة الواقفة بعيداً
عن التجمعات المبعثرة لا تعرف تفاصيل ما سيحدث داخل القبو.
وحدها بقيت مرتبكة بعد أن تحلل الحضور من انكماشهم، وبدأوا
بالتقدم باتجاه الأبواب.

هو كان يطل على المرأة الغريبة من وراء الكواليس. ثمة ممر سري
يجانب كابينة بيع البطاقات. يعبرون منه إلى المسرح الداخلي. عادة

لا يلتفتون إليه، ولا يتوقفون للتساؤل، ولا للتأمل أيضا. لكن ما حدث لغسان هذه المرة لا يشبه سابق المرات التي يتجاوز فيها تلك الكابينة منفعلا ومسرعا. كان هادئا جدا. يتفرّس كلّ عابر، ليس لمجرّد حبّ الاستطلاع وحسب، إنّها لها جس لبسه منذ رؤيا ذلك اليوم.

تذكر بوضوح أنّه ترك المسرح في يوم غائم مهدّد في كلّ لحظة بالإمطار. قصد الشاطئ كي يختبر ديكوره فوق الرّمل. إشكاليّات المشاهد لحظة تجريبها، يجب أن تحاور الأماكن والمناخات. لكنّ الحقيقة أنّه لم يختبر، وسط ذهوله وإطراق قلبه، سوى ماضيه في صورة امرأة تمثّلت له فجأة على الرّمل. لاحقته دون توقّف. بطّنت ملابسه بالثلج، وسجائره بالقطن. من ليلة إلى ليلة، ومن غروب إلى مساء. من شتاء إلى عاصفة، ومن عاصفة إلى ريح إلى هواء. وهو يطير خلفها فيكتشف أنّه لا يطير إلا مكانه.

تقدّمت من الكابينة تستفسر عن العرض، فلمح صوتها يعبره. بدأ يحنّ، إنّما نشوة.. نشوة.. نشوة. لم يستطع أن يسترّد أنفاسه. دارت رأسه. حين نفذ صبره التفت بكامل جسده نحوها. بين ذهوله وارتطام أنفاسه جلس قلبه، وانتظر أن يلمح صوتها ثانية.

بعد حين تحدّثت. همسا، كما يتذكّرها. البحة المحترقة والنّبرات المتباعدة بدأتا تحرقان قلبه السّاكت. رجفت قبّعتها فجأة، وانخفضت على جبهتها حين سمعت فتاة الكابينة تزوّدها بتفاصيل العرض. ثمّ ارتعدت القبّعة، والتوى عنقها وهي تحاول اختطافها من الهواء. انكشفت فتنة عينيها تماما بعد أن أعلنت فتاة الكابينة عن هويّة المخرج. دفعة واحدة تكشّفت للرّجل الذي يمسك قلبه

الآن بين يديه. خائفاً أن يتركه ويهرب. انفضح فقدُهُ في يتم نظراته واحتراق وجنتيه. شقيق الجبل ألقى نفسه عليهما، وأحاطهما إلى قطيفتين.

«إنّما هي» همس كأنّه يحادث سواه. للمرّة الأولى منذ هرب الهواء شعره واحتجزه بعيداً يحاول أن يتذكّر شكلها. تبدّل قلبها يجوز، لكنّ صوتها لا يزال حنوناً، ورطباً مثل تربة مروية.

تري، هل عرف أنّ عمرها ظلّ ملاحقاً من شعر يهرّبه الهواء من شرفة إلى شرفة دون توقّف؟ أراد أن يناديها. يمدّها لها يداً مشتاقة من الكوة الصّغيرة، لكنّه خاف على شوقه وعليها.

لم ترفع عينها لغير برهة من الدهشة. سريعاً غمرت نفسها بانحناء تلك القبّة على رجفة صوتها. استلمت البطاقة، وتقدّمت من باب الدّخول. على طول الممرّ الداخلي المقابل لخطّ سيرها مشى من حيث يراها، ولا تراه. انتظر أن تختار مقعدها، وأرسل من يحجز المكان الشّاغر إلى جانبها مباشرة. على المقعد المجاور رأّت يداً تمتدّ وتضع كتاباً مقلوباً تعرّفت في غلافه على شاعرها كفافس. حبّ استطلاع قاتل حرّض رغبتها. لا يمكن لامرأة امتهنت تقليب الورق أن تقاومه. أرسلت يداً متردّدة بداية ثمّ واثقة. كأنّ الكتاب ورقها هي، وليس ورق الشخص الذي سيأتي كي يستولي على المقعد وعليه. ثمّ كأنّها عثرت على قصائد طفولتها قبضت عليه من قلبه، وأطلقت عينها بين السّطور. أخذت تفجّها كلمة كلمة، كي تعثر على قلم رصاصها خطوطاً واضحة في أجفان الكلمات. خطوط عميقة اللون ودقيقة كخطّ الكحل الذي ترسمه بعناية بمحاذاة جفنها الأسفل.

إنه كتابها. وثمة من يستدرجها إلى كمين. ارتجفت أصابعها. تسارعت أنفاسها، وأحسّت بالاختناق. أمن الممكن أنه كمين يعدّه لها القدر؟ وأين هو، أين ربّ السماء هذا الرّجل الذي يعدّها لها ولائم وجع؟ تريّث قليلا قبل أن تصدر أحكامها. تأكّدت من جديد، هذا الرّصاص لقلمها. خطوطه المتكسّرة شبيهة التي حفرت بها قلب كفافس. كلّها لها.

وكأنّ الأيام تعود فجأة. تذكّرت أنّها رسمت مع غسان على صفحة كهذه وغلاف يشبه هذا الغلاف أجمل قُبَل. اهتزّت يدها حين قلبت الصّفحة، وانقلبت قبّعته بمحاذاة حداثها إذ قرأت. ثمّ بدهشة شهقت:

خذي كي أدخل فيك وأختبي/ وكأنني لم أعش قبل هذا المساء
أطبقت دفتي الكتاب بعنف على أنفاسها. داخ الكلام من عطر
أناملها، وداخت هي من عطر أيامه. من سيقتل الآخر هذه الليلة،
أعطرها أم تبغه؟ ومن فيهما سيستحيل إلى سم، أورد وجنتها أم
شوق عينيه؟

انحنت قليلا، ورفعت القبعة من بين المقاعد، وقلبتها فوق
الكتاب. نظرت أمامها منقبضة الأسارير بانتظار الإعلان عن بداية
العرض. بشيء من الانقباض، وكثير من الشوق تحسّست غلاف
الكتاب كأنّها من شدّة شوقها تتهمه وتتوعّده. أكانت تعرف أنّه
غلاف غسان ينتظرها منذ دخلت كي يستبقها. وأنّ عينيه تتابعان
اقترابها الوئيد من أحد منافذ المسرح الخلفيّة؟

لاحظ عبوسها وارتجافها. سيطر عليه الخوف من فقدانها ثانية حين
وجدّها تحصي أنفاس الكراسي. وتلقّي نظرات مذعورة إلى الكتاب

الغريب الذي يستلقي إلى جانبها كأنه يحرسها. ضربت دقات قلبه قدميه، وهو يلاحظ تبدل سحنتها، وتذكر فجأة لوحة الرجلين الذين لا ينامان أبداً فوق سريره. لسبب لا يدريه فعلاً. كأنّ اليقظة بدأت تهدّده من جديد. تهدّده مزاجها أيضاً، توقّع أن تمتطيه الريح ثانية، ويطير. لكنه هذه المرّة كان على يقين أنّه سيلاحقه حتّى آخر العالم.

في لحظة رهبة أراد أن يتجاوز الحضور، ويعلن عن وجوده. يقف أمامها كأول مرّة أعلن حبه. يقنعها من جديد أنّه الطفل الذي أضاع أعلى نِمَرِه في اختبار آخر السنّة حين غشّش صديقه، وأنّ النَمَرَ المنخفضة التي جاءت بعدها كانت اعترافات ضمنيّة بفشله الذريع بدونها. كان يجب أن يقول لها أنّ عُرفَه حاربتَه، ولم توافق على إشعال نصوص مبتذلة، وقريحة أتعبتها تجارب عابرة. تقريباً تمرّد على الخشبة والمهنيين والناس.

جرى إلى غرفة الملابس، واستبدل بدلته الرّسميّة بملابس سبور خفيفة. جينز أسود وقميص أبيض، واندفع باتجاه الباب. لكنّه وجد من يفشل مخطّطه. طاقم عمله وقف له بالمرصاد. فمنذ لاحظوا انشغاله بالمرأة الخمرية، صاحبة القبعة، وضعوا حارساً على قدميه وعينه، ودسّوا من يتجسّس خلف ظهره على قلبه. «لا يمكن أن تظهر قبل اللّحظة المناسبة!» ستخرّب الدّنيا بتصرّف أهوج كهذا، أخبروه.

اغتم قليلاً، وهو يعود إلى ملابسه ووردة سترته البيضاء. التمتعت عيناه ببريق ساحر حين قرّر، سيهديها وردته، وابتسم بوكه. سيهديها وردته البيضاء إذا لم تخنها أقدامها، وتسرقها إلى شوارع

لا يعرفها. بقي يقظا يتحرّك وفق مزاجها بسيجارة مرهقة حتّى رقصت أطراف السّتارة قليلا، وانبعث صوت.. عميق، حاد، من مكبّر صوت هرم معلنا عن «امرأة الرّسالة» عنوانا لما ستتحرّك به الخشبة بعد قليل.

انتفض بها المقعد. وخزتها العبارة في رسغ يدها، وقاع رحمها. خرمشها البؤس، وأسقط بعض وردات قبعتها المزهرة بين أقدام الكراسي. سكت قلبها، كأنّ الكلام أنهى دوره حتّى الأبد. تحسّسته فخيّل إليها أنّها تقبض على قطعة لحم ميت. فكّرت بالتّفجع على حظّها. بلمحة سريعة مرّت حيّاتها تحت عينيها الدّامعتين. ولو أنّها كانت شجاعة بما يكفي لانتزعت تلك القطعة الميّتة وقبرتها تحت القبعة، أو تحت بلاطات المقعد الذي تجلس عليه.

هذا هو رجل أيامها الذّائبة يعود كي يحيل طلبة يأسها إلى الغام تنسف فرحتها الجديدة بلقياه. من أيّ سفّاح يستأجر فنون الذّبح؟ كأنّها صرخت، وكأنّه سمعها، حدّق فيها من مكانه السري، في صرخة خفيّة سمع طلقتها. بدأ يحترق مع تبغّه. فهم أنّ خبيثتها أبعد من المتوقّع بكثير إذ لاحظ انكسار رمشيها.

كيف ينجح بإلحاق هذه الإنمزاكات العنيفة للذاكرة. ألّكي يفسلها أم لّكي يفسل الزّمن؟ هشة وباردة بدت كزيتها، وبأسة كالورق الذي كتبته، وعبّأت به صوف الوسادة. «ستكونين بطلة المساء والعاصفة يا امرأة التّعاسة»، خاطبت نفسها ودفنت تنهيدة عميقة تحت أكمامها. كأنّها أرادت أن تشيع عدوى التّعاسة بين الحضور. ما عاد يهمّ الآن إذا كان سيطلقك بصلة أو بطلة على الحضور. لقد طحن ورد شوقك كبريتا. أضرمه بين جوانحك عشقا عقيما.

كأنه كان يدسّ في قبلاته حبوبا لمنع الرّغبة. عمّك عن وعي أو جهل لا يهمّ الآن سواك. أضرمك خيانة. وها هو اليوم يعود كي يستدرجك إلى نفس الكمين. بذلك الجحود يطلق جرحك على عمله الجديد. ألّكي ينجو من نفسه، أم منك؟ أبهذه المسدّسات المسمومة يستعيد هواة الأضواء أمجادهم؟ أبكلّ الأثمان الفاحشة، ولو كان الثمن منصّة خشبها غطاء قبر؟

كأنّها جاحت. لماذا تقبرني غسان، وقد رجعت تائبة.. أطفح عشقا وأقطر توقا؟ تمسّكت بكرسيّها كي لا يفرّ منها الكلام إلى الخشبة. لن تفسد أعراس المرأة التي تزيّنت بالأضواء الكابية. كانت تجلس أمام فنجان قهوة، تصغي إلى عقارب ساعة، وتملأ الأيام بالورق. كانت هي المرأة، وكان هو الورق. وما بين المرأة والورق زمن من الخيانة.

نساء ينهمرن على فراش رجل واحد. وامرأة واحدة تنتظر في صالة رماديّة أن تنتهي فصول العهر كي تتزوّجه لليلة واحدة وتهاجر. الرّجل في غيبوبة فسق عميقة، والمرأة في طقس انمناح سافر. تلمّع وجنتيها بثقة مزيفة كي لا يعرف أحد أنّها لم تعد أنثى رجل، بل متسوّلة على فراش رجل.

تلاحظ انشغاله الليلي بنساء سواها، وتنتظر بصبر أن يأتي دورها. ثمّة من أقنعها بأنّها ملكة المنتظرات. حين يأتي دورها تستعيد أنوثتها لليلة واحدة، وتعود امرأة تتسوّل أنوثتها بالدور. تعترف المرأة في خضمّ انفعالها لفنجان القهوة وللورق بأنّها ستقتل الرّجل إذا لم يتوقّف عن مزاوله المومسة مع قطيع النساء، وتضيف أنّها ستمهله حتى انتصاف شهرها بالخصب، ثمّ تحدّد اليوم الذي ستحبّل منه.

هذه هي حيلتها الأخيرة. إذا لم يستيقظ ستطلق النار عليه وتذهب. قد تخطيء بيوم أو يومين، لكنها ستصيب السنوات التي ستأتي. تقترب المرأة من الجنون لكثرة ما تهذر مع الورق. لكنها تعدّ الخمسة عشر يوماً بيقظة وحرص. وفي اليوم الخامس عشر تحتل فراشه وتملاً جسده رغبة. حين تكتفي لا تطلق النار عليه، بل تتركه نائماً، وترشه بدمعها وفراقها. تكسوه بانتقام كبريائها، وتهاجر. لكن هجرها له لا يمنعها من تدوين أيامها معه على الورق. إنها تتمهن الكتابة، ولا تكتب الأيام بقدر ما تدفنها بسطورها الناقمة عليه.

تبكي وتكتب، وتعيش قصة حمل كاذب مدّة شهر وخمسة عشر يوماً. صباح اليوم السادس عشر تفاجئها الدورة الشهرية. والمرأة خلافاً لتوقعات المشاهد لا تكتب، بل تضحك من أكذوبة حملها. كانت تعرف أنّها قد تخطيء بيوم، أو يومين. بعد أن يشبعها الضحك تعود إلى أوراقها وتسجل في آخر الورقة ما كتبه هي برصاص قلمها لغسان. وامرأة المسرحية لا تكتف بنص كلامها، بل توقع العبارة التي وقعتها هي قبل أن تترك غسان وترحل. «امرأة الرسالة» ملخص الحكاية. تفعل وهي تصغي إلى تأوهات امرأة تشبهها تصدر عن خلفيّة المسرح، وهي في حالة انسحاق.

أسدل المشهد الأخير على شتاء عينيها. في عتمة القاعة وجدت أناملها محاصرة بيديه. لم يغادر من الحضور أحد. كانوا جميعاً بانتظار كلمة مخرج العمل. هو كان قد تسلّل في نهاية العرض إليها، واحتلّ المساحة المخصصة لغلاف كاففس. جلس صامتاً وأرسل إليها نظرات تائب. انتظر أن توافق العتمة على مسح الشتاء

من عينيها. أراد أن يعلن عن نفسه أمامها قبل أن يفعل سواه. ثم يرجوها على إيقاع اللحن الختامي أن تغفر له. تمنحه ورقة اعتراف ضمنية بوجوده.

هل كانت تميزه من خلال العتمة؟ وهل فهمت أنه كان يقيم لها وليمة انتقام من حسنه؟ انحنى أمامها، هل تفهمين نشوة؟ هل تغفرين؟ قولي نشوة قولي. لكنها لم تتوقف عن الشتاء فوق راحتيه. كأنها نسيت جهات القلب. ما عادت تذكر لحن الشوق. وكأنه لم يتذكر أمام استنكارها سوى البكاء. كأنه الآن فقط فهم أن أيامها المنقضية لم تتوقف يوما واحدا عن الشتاء. أأمطرت كي تشكو له، أم كي تشكو منه؟

لم يفهم، وهو يستدرك غيابه، ويتسحب تحت العتمة، ثم يندس عبر باب خلفي إلى ما وراء الكواليس.

-4-

غادر آخر الحضور بتأن أو على استعجال. الأمر منوط بنبض أشواقه التي انتشرت على شفثيه، واحترق الوقود بين أنمليه. كانت نشوة لا تزال في مكانها، كأنها غير قادرة على انتزاع نفسها منه. بدأت تردّ رأسها ببطء، كأنها تسجل كلاما تقوله أظافرها. ظلّت تتأملها وتنقل ما تسمعه إلى رأسها الممتلئة ذعرا وفرقا. كيف تقول الأظافر كلاما صعبا لهذا الحد؟ ترى من فيها خطط أن يختلي بالآخر؟ وكيف لم تصطحب ديمة تحسباً لأيّ عارض؟ لماذا لم تأت دي...ي...ممه.

أغمضت عينيها على شريط ماضيها، وأجهشت. حين فتحتها رأتها يقفز عن الخشبة، ويتقدّم باتجاه المدرّج. صرف آخر عمّال المسرح، وجاء إليها مع وحدته. أخلّى القاعة تماما من الحياة، وأبقى ثلج المكان لونا أحاديّا لرسالتها ونسائه. كأنّه مشى على جمر، وهو يتقدّم منها بإحساس من ينزل إلى هاوية. كان متشوّقا، لكن حزينا ومرتبكا، ولا يعرف من أين يبدأ كي يستولي على ضجيج الصّمت. دائما أخافه صمت الأماكن الوحيدة والمعتمة. ودائما استنجد بالضوء كي يغيثه من الوحوش الضّارية التي تطلقها الوحدة عليه. لكنّ أضواء المسرح الخافتة لا تنجح في إغاثته، إنّما تعتم داخل ملابسه وقلبه. رسالتها ونسائه يحتّلون المسرح خلفه، ويلتفون حول خطواته المتعثّرة.

وقف أمامها بداية، ثمّ أشعل سيجارة وجلس إلى جانبها. استدار

نحوها كأنه يستدير لاحتضان عالم ذائب. منذ تلك اللحظة بدأ رماد سجائره يلون كل شيء. بلاط القاعة، المقاعد الحمراء، وقلبها ربّما. نظر في عينيها فعثر على الخطّ الأسود مستقيما وحادا لا يزال. ابتسم له فهرب منه. أصرّ أن يعود إليه، كان جادا حين يقرّر أمرا. بعد لأي أسعفته بحّة مجرّحة. لم يعد لصوته صوت. لكثرة ما دوزن التّبغ حنجرته حرق صوته. كان راضيا شرط أن تعرف أنّه الآن لها، وما بعد الآن، وما بعد بعده.

«نشوة، أرجوك انظري إلي، أريدك أن توقّعي قبولك لعلامات وجهي، تأكّدي أنّني هو الرّجل الذي كان» دعاها بصوت متوسّل. لكنّها حتّى تلك اللحظة بدت سلبية، وغير قادرة على النّظر إليه. لقد اكتفت حين دعتها الصّورة للنّظر من بعيد. كأنّها لم تكن تراه، بل تلمح ظلا لشيء لا علاقة لها به. لكنّ عبارة، «الرّجل الذي كان» صفت بدنها، وأغرقت وجهها بالوحد. كأنّ في نطقها مادة تستفزّ الذاكرة. مثل تاريخها الموحد معه. كأنّ يسقط مع صوته في صفحة خلّ صدئة. ارتجف جسدها بشدّة، وداهمها إحساس بالغثيان، ورغبة ملحة بالقيء.

أرادت أن تقيّنه بجميله وسيّئه. هل قرأ أفكارها الحاقدة هذه، حين أطلقت كحلها الغاضب عليه؟ «إنّه لا يقلّب من الأوراق سوى ما يرى صورته الجميلة فيه» حدّثت نفسها وهي تسترق النّظر إلى سيجارته المشتعلة. «تلك الورقة مرآة وحيدة لحاضر يرسمه وحده، وينام عليه»، استدركت.

هي تبدو خارج جميع الرّسومات السّعيدة التي قرّر لوّنها وشخصيّاتها وأماكنها. وضعها في مكان ما لم تفكّر به أو تحتّره.

إنَّه رجل سعيد، ولا جسور بينه وبين الحاضر، ويريدها بعد أن تقطعت به الجسور أن تصبح جسره إلى الحاضر. أربعه الخواء، وحين فكّر بجديد هجم على ما حشت به رأس الوسادة التي أبقتها خصيصاً للحظة تستيقظ فيها ذاكرته. امرأتها المهزومة كانت تسخر الآن من فنه. لم يجد ما يفتن المسرح به غير رأس وسادة احتالت بها عليه.

كانت الآن امرأة حاقدة، وشريرة جداً، ولا خيار أمامها غير قطع الجسور التي عثرته بسحرها كي تنهار فيه وتقتله. هل سيفهم أنها لم تعد تماماً إليه؟ وأن رأسها تدور بفكرة غريبة؟ وتريد أن تغذي نوايا المرأة التي هزمها بدوافع اعتقال؟ ستعتقل مشاريعه كما اعتقل أشواقها، وتشعلها بزرّ كبريت صغير كي يفهم كم يبدو الرجل الذي يعنيه صغير وهامشي. ولا يستحق أكثر من حبة سمسم حمراء تنور وتلفه.

كأنه لم يصغ تماماً إلى أحقاد كحلها العميق، أو كأنه لا يسمع. وقف أمامها، ومدّ لها كفّين داعيتين. كأنّ كفّيه اعتقلتا في تلك اللحظة أحقاد كحلها وقلبها، ونسفتا بلمسة شوق حارة الجسور التي مدّتها في رأسها. سوّحته وهي تحرك رأسها الباكية يمينا وشمالا حركات غنجة، كأنها تنفض دون قصد ما بقي من هياكل تلك الجسور الوهمية. بطن شعرها بكفّيه، واحتضن رأسها الجميلة. سمع رأسها تهذر بما هذرت به امرأة المسرحية.

كانت عاجزة. لم تدخر من حيل النساء المتمكّنات وحنكتهنّ غير مقاومة نغمتها. كان سلاحها بارداً ومحايداً كخطّ كحلها. هل يستطيع خطّ كحل فائن أن يتماسك أمام رجولة لمعت أمام

رقته كنصل سيف؟ هل يتماسك إذا لم يقطر من لمعانه السّم؟ إنّها امرأة ليست ماهرة تماما في خصوصيّات العناوين الحادّة، بل في خصوصيّات المضامين حين تسيل في المادّة. ومضامين الأنوثة والرّجولة هنا فتنة وعشق. لا مادّة أخرى تحتوي هذه المفردات السّاحقة.

دفعته عن رأسها، كأتمّها أرادت مدّ جسور امتناعها ثانية. لكنّه عاد يواجهها، ويمدّ يديه مستعطفا:

_ قلبك نشوة، أريد صوتك.

_ أما زلت تذكر؟ همست كي تستفزّه.

تراجع فجأة، وتقلّص مكانه، وهو يراها محايدة وباردة. لم يقل شيئا. لعلّ سبائره قالت حينذاك كلّ شيء. كانت تنقتل وتنبعث كأنّ سرّ أبدية قاهرة يستتر خلف امتناعها عن الذّوبان. أمام دهشة قلبه الذي ضرب بعنف، واغتسل باضطرابه وبرماد السّيجارة وقفت. رفعت قبعته عن المقعد المحاذي له. حدّق فيها مليّا، وانتظر بنفاد صبر. همست ثانية كأتمّها لا تراه:

_ أما زلت تذكر؟

مدّ يديه واستعطفها

_ قلبك نشوة. أريد صوتك.

نعم، لا زلت أذكر. هذا القلب غير قلبك. نظراتك لم تكن ذائبة هكذا. وملاحك لم أرها باردة. أنظري إليّ، إلى عينيّ، إلى الرّجل الذي أحبّك حتّى العبادة. ثمّ أضاف:

_ بعد أن ذهبتِ تعبّدت أمام طلل غائب.

— ولماذا سأنظر في عينيك إذا كنت لا أجد غير نساء ينتظرن
فحولتك بالدور. أكنت فحلا حقا، أم أنه فقط خيال إلي؟
كانت تصغي إلى صمته يدينها، كأنه همس: «أنت من يعرف ماذا
كنت، وحدك يعرف».

حين ارتفعت يدها إلى شعرها استوقفتها أنامله، ومسحت بشوق
على قبعتها. قبضتها بنفس العنف اللذيذ الذي بدر عنها لحظة
إعلان رغبته. فكرت أن تشد أناملها، لكنها تراجعت. بدأت
أعصاب يدها ترتخي، وتشنجات قلبها، كأن في انقباضها قرع
طبول تسحب مع كل دقة فوجا من النور المرتحلة. تتموج مثل
رجع صдахم في رسغ يدها، حيث طوقت يده.

أكانت يدها تعترف، وهي تستحيل إلى إسفنجة إنها في
قرارة فقدما تنتظر أن يستعيدها، ولو مستعينا بحرب جهاد؟
كيف سيفهم الرجل منطق الحب عند المرأة؟ وأي رجل سيفكر
في الجهاد من أجل امرأة؟ أفنان مثل هذا؟ همست، ودفنت حنق
أفكارها في عنق سيجارته. أنه لا يصارع سوى أضواء متوهمة
داخل غرف مغلقة. أم أنها الرؤى التي تلاحقه ستقود حملة تحرير
واسعة للمدينة التي احترقت في قلبها؟ أي رجل تريده أن يفعل؟
أهذا الذي تخيفه يدها، أم ذلك الذي كلما شنت عليه شوقها سلح
أنوثتها بالقهر؟

بين عنفه وإسفنجهما وقفت لندن. من شبابيكها الضبابية انبعث
صوت كاظم كأنه تذكر في الوقت المناسب أن يهديها تحيات
ديوهانس، واشتياق الثلج الذي لا يأتي بعدها. تذكرت سطور،
كانت أساطير أيام يسجلها الصمت على أرصفة لزجة وبردانة

مثله. ولو أنّه لم يوقّع اسمه في كلّ مرّة لما صدّقت أنّه يملأ النوافذ بالكلام.

آخر رسالة قال لها: «إنّ الثلج يأتي من نوافذ المدينة غزيرا وكثيبا، لأنّه أصبح قطنا تماما نضمّد به جراح الحّمّ حين يصطاده أحد سيّاح الربع الخالي» ثمّ تذكر أنّه أضاف: «عودي نشوة، كي يعود الثلج جبل وجع وتمنيات»

احتارت بين الرّجلين. أحدهما ظلّت تحبّه بعد أن قهرها، والآخر ظلّ يحبّها بعد أن قهرته. من فيهما الأصوب؟

حدّقت في عينيه مباشرة، وهي تسحب يدها برفق. كانت ترجوه أن يترك الغد للزّمن. قالت له شيئا آخر، وهي تسحب مع قبّعتهما التي ظهرت كمزرعة صغيرة لورد الشّتاء، أنّها تترك حاضرها لأنامله كي يلمّعه، ربّما يستعيدها.

نسيت أنّها ستعود هذه المرّة أيضا وحيدة وبردانة مثل نوافذ لندن ورسائل كاظم. قد تتذكّر في طريق العودة أنّها رأته، وهي تمسح دمعة ساخنة من تحت قبّعتهما كي لا يلاحظها سائق السيّارة المستأجرة. وقد تكتشف أنّ القدر قد أوقعها في رؤيا، وهو يأخذها إليه.

نوافذ رأسها بدون لون، ولا تميّز ما يحدث لها. هل ستتذكّره حين تأتيها الميناء تسحب البحر خلفها؟ يجب أن تتركني الآن، يا غسان. لا بداية معقولة للقائنا. وكان هو يري جوها، امنحيني فرصة جديدة، أرجوك نشوة.

عيناها قالتا، أغمضتا على عاصفة قليبهما. على انفجاعهما. على إصراره، ورعبها. يجب أن أمضي / دعيني أراك ثانية. عيناها بكتا،

وتساءلتا. تدرج السائل الأبيض مثل كرات صقيع.
انفتحتا عيناها على شوق مرعب، وهما يحاولان الانفصال.
تمضي حتى نهاية القاعة، بينما يحتضن هو ركبتيه متخيلاً فقاعة ملح
تصغر كلما تخلص منها الهواء. ألم تكن هواء اللحظات المارقة؟ إنه
هواؤها، أجل، هو هواؤها، بدأ يردّد خلفها كأنه يستوعب أبعاد
العبارة. ثم أسرع حيث وقفت تحتبر ابتعادها.
قبل أن تلتفت للمرّة الأخيرة ربّما إليه احتضنها من الخلف كأنه لم
يغادرها كلّ تلك السّنوات البعيدة لحظة واحدة. ضمّها إليه كأنه
يضمّمها على شكل باقة ورد، ويدفعها إلى قلبه كي تكبر هناك في
تربة حنينه. تراب الموانئ يؤدّي إلى الفرقة والموت، كأنه عثر فجأة
على ما يلقي فشله عليه.
لا يريد أن يفقدها، ولن تغسل قدماه الطّرقات بحثا عن رصيف
لفحته على عجل. بقيت ترتجف ساعة طويلة بين ذراعيه. دائما
كسرهما حين سيّجها على هذه الشّاكلة، من حيث يراها ولا تراه.
لكن، هل يمكن أن تغفر بهذه السّهولة؟ إمّا امرأة دامية، أيّ
مرهم يستطيع إيقاف هذا النوع النّادر من التّزيف كي تلمّ أطراف
سكينتها، وتفكّر بتعقل؟ لا يكفي دفئه، جاء متأخرا.
لا.. لا غسان، السّنوات التي أمطرتها سماء لندن بالشّكوك تنكّل
بي كلّما قرّرت أنّي سأجيئك صفحة بيضاء تكتب عليها ما تشاء.

- عارية -

استردت أنفاسها حين التقت بأطراف الشارع المؤدي إلى السوق القديمة. مرّت عن المقاهي الغاصة بروّادها دون أن تتوقّف للحظة وتتأمل، كأنّ امرأة سواها مولعة بتسمياتها، ونكهة بنّها. لاعبو الطاولة يصفّقون، وبائعو اليانصيب ينادون. لحق بها أحد بائعي أوراق الحظ وعرض عليها ورقة. ضحكت ساخرة دون أن تتوقّف عن السير، ورقة حظ لي أنا؟ - نعم ستي، هل توجد نجمة في الشارع سواكِ تستحقّ أن تتوهّج بالحظ؟ التفتت إليه باستغراب: «ولكّ من أين تأتي بهذا الكلام؟»

- «عليك أن تصدّقي نبوءتي ستي»، علّق على كلامها مبتسماً. هذا الولد يشتغل ضارب ودّع أيضاً، همست في عمق معطفها. لحقها وتجاهلته، لكنّها قالت شيئاً لم يفهمه، وهي تستوقف أوّل سيارة أجرة لمحتها. قالت إنّ أوراقها خلاف نجمات الشوارع لا تصيب. بقي البائع واقفا ينظر إليها، وهي تختفي عن ناظره. كان يهمس حينذاك بصوت مسموع، لقد خسرت حظّها هذه المرأة. نظر إلى الأوراق التي بقيت في يده كأنّه يعدّ الأصابع التي ستخطفها زخّات الشّناء المجنون.

لمن تشكو نفسها، وقد وقّع لها القدر ما لم تتوقّعه. أكانت العاصفة كلّ ما وعدت به قلبها؟ ليس تماماً، لكن يحدث للأقدار أن تفشل في مساعيها. لقد ذهبت كي تسلّم نفسها طوعاً للشّحوب. ألها كلّ هذه النّهيات؟ هذا ما يحدث للنساء غالباً، يتألّقن كي تشحبهنّ

صواعق أيامهنّ، وهي إحدى أولئك النساء المتشحات بشحوب الألق. ترى، حتّى متى سيلاحقها غسان والهرب؟ أما زالت تحبّه؟ أما زال يحبّها؟ ليتها تميّز الفرق بين الحبّ والخيانة، إذا لهدأت روحها قليلا. الكراهية في قاموس حياتها الجديدة ليست تماما الضدّ الشعوري للحب. الخيانة هي الضدّ المنطقي للشّعور.

قلّبت الكلام في رأسها. تأملت احتداد المواقف. نظرت إلى نفسها بين ذراعيه، وهو يحتضنها على عاداته القديمة من الخلف، وأرخت كفّها فوق قلبها، كأنّها تذكرت أن تصغي إلى دقات انفعالها. زجاج سيّارة الأجرة يصغي معها إلى انقباضات قلبها المرتبكة.

اقتربت من النافذة، وأفرجت عن أنفاس مختنقة بالذكريات. تأملت الشجر العاري كأنّها تتأمل جسدها عاريا أمام غسان. أحبّ أن يملأ عينيه بنهديها مقرصين ومحدّقين إلى أعلى مثل أرنيين مذعورين، ثمّ ينحدر إلى بطنها المدوّرة. ويتوقّف قليلا عند سرّتها منتظرا أن تدفع إليه بخرزة حظ. وهي لم تسأله، ولو مرّة واحدة لماذا يتوقّع أن تتكتّم سرّتها على الخرز الذي يتكاثر في مخيلته دون توقّف. إنّها اعتادت أن تمسح حياءها بضحكة طويلة مجلجلة، وتتركه يتخيّل.

حين ازدادت حياء لم تنكش كأغصان شجرة. كهذه الشجرة أو تلك، همست في قلبها، وأشارت إلى الشجيرات التي مرّت بها السيّارة التي أفلتها على مهل. بدأت توثّق شكل الشجر الذي تمرّ به ببطء كي تحسن المقارنة بين حالها، وبين وقفته العارية. نعم، لم تنكش كأبي منها، ومن بعيد غرزت إصبعيها المدسوسين داخل القفاز الأسود بغصن الشجرة. دائما فردت يديها ومشت فوق

البلاط حافية كي تُسَمِّعَهُ دَعَسَ قَدَمِهَا ثُمَّ أَلْقَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ.
بانتِشَاءَ تَحَكُّ أَرْنَبِهَا الْمَذْهُولِينَ مِنْهَا وَمِنْهُ بِصَدْرِهِ، ثُمَّ بَدَلَالٌ وَرَغْبَةٌ.
كَانَ يَأْخُذُ عَرِيهَا كُلَّهُ إِلَيْهِ كَأَنَّهُ يَبْتَلَعُهُ دَفْعَةً وَاحِدَةً.

دَائِمًا ظَهَرَ بِقَامَةِ أَشَدِّ ارْتِفَاعًا مِنْ كَتْفَيْهَا، وَعَرَفَ مِنْ أَيْنَ
يَأْخُذُهَا. كَيْفَ تَسْرِقُ كَفِّهِ نَعُومَةً رَدْفَيْهَا الْمُتَمَلِّئِينَ، وَتَمَرُّ عَلَيْهَا
بِبَطْءٍ، ثُمَّ تَدْلُكُهَا بَانْسِحَاقٍ وَرَغْبَةٍ. دَخَانُهَا يَعْلُو قَبْلَ أَنْ تَصِلَ
أَطْرَافَ السَّرِيرِ. كَانَ فَنَانًا فِي أَخْذِ أَجْزَائِهَا. فِي مَدَاوِرَةِ أَرْنَبِهَا
الْمَذْعُورِينَ وَالْمُنْدَهَشِينَ. بِفَمٍ بَارِدٍ يَأْتِيهَا غَالِبًا. حِينَ تَمَرُّ بِهَا نَتَوَاتِ
الشَّجَرِ الْبَنِيَّةِ عَلَى الْجَذُوعِ تَتَذَكَّرُ حَلْمَتَيْهَا وَفَمَهُ. وَبِالذَّاتِ يَوْمَ
اِكْتَشَفَ بَرُودَهُمَا بَعْدَ اشْتِعَالِ جَسَدِهَا.

تَرْتَجِفُ حِينَ تَسْتَحْضِرُ الْمَشْهَدَ. أَطْبَقَ عَلَى أَرْنَبِهَا الْأَوَّلِ بِفَمِهِ
وَأَجْلَسَ الْآخَرَ فِي عَمَقِ كَفِّهِ، ثُمَّ سَحَبَهَا مِنْهَا إِلَيْهِ. هَلْ تَسْتَطِيعُ
الْأَشْجَارُ أَنْ تَأْخُذَ بَعْضَهَا كَمَا أَخْذُهَا؟

هِيَ وَالشِّتَاءُ الْآنَ، وَفَمُ الصَّقِيعِ يَمْلَأُ الشَّارِعَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ
الْمُتَأَخِّرَةِ. بَعْدَ قَلِيلٍ تَخْرُجُ خُطَوَاتُ الْفَجْرِ الْأُولَى مِثْلَهَا إِلَى الشَّارِعِ.
هَلْ سَلَّمَتِهَا عِنَوانَ بَيْتِهَا عَلَى عَادَتِهَا حِينَ تَضَعُ؟ لَا بَلْ، هُوَ مِنْ
سَجَلٍ لَهَا عِنَوانَ بَيْتِهِ وَرَقْمَ هَاتِفِهِ. نَظَرَتْ إِلَى الْخَلْفِ كَيْ تَتَأَكَّدَ مِنْ
أَرْقَامِ الْبَنَائِيَاتِ، كَأَنَّهَا نَسِيتْ بَيْتَهَا. أَكَّانٌ جَادَا، وَهُوَ يَنْتَزِعُ قِطْعَةً مِنْ
عَلْبَةِ سَجَائِرِهِ. يَطْوِيهَا مِنْ مُنْتَصَفِهَا، وَيَسْجَلُ تَفَاصِيلَهُ بِتَأْنٍ وَجَدِيَّةٍ.
عَلَى وَرَقٍ فَضِيٍّ يَكْتُبُ دَائِمًا. يَسْحَبُهُ مِنْ مَكَانٍ مَا تَحْتَ سَجَائِرِهِ.
أَكَانَتْ لِلْآنِ تَحْقِدُ عَلَى تِلْكَ الْأَوْرَاقِ لِأَنَّهَا الْأَقْرَبُ لِأَنَامِلِهِ؟

لَنْ تَعْرِفَ الْإِجَابَةَ. كَأَنَّهُ تَغْيِيرٌ حَقًّا. هَذَا مَا لَمَسْتَهُ وَهِيَ تَتَأَمَّلُهُ مُنْحِنِيًا
فَوْقَ الْوَرِيقَةِ يَسْجَلُ وَيَفَكِّرُ. أَرَادَ أَنْ يَقُولَ لَهَا إِنَّ عَنَاوِينَهُ تُحْفَظُ عَنْ

غيب بمثل ما تُحفر بجديّة في الورقة. كأنّه نسي أن البيت الذي يسجّله هو طريق قلبها، ورقم الهاتف هو مفتاح ذاكرتها. لم ينس، ولكن فكّر أن يسند إلى قلمه الدّور الذي تسنده إلى قناع وجهها. كلاهما يجرب أن يسجّل التّفاصيل عن غيره.

أمام الباب مدّ إليها يدا مرتعشة بالجزء المنزوع من بطانة العلبة. تأمل واحدهما الآخر ملياً، ثمّ مدّت قفازها الأيسر كي تسحب الورقة حين فاجأها مُزق ورقة مشابهة كتبها رجل آخر وغمرها كما يغمرها هذا الرّجل بشوقه.

غريب! همست لنفسها. أكل الرّجال يمزّقون الأوراق كي يلتحموا بحاضر نسائهم؟ ربّما، هذا هو الفرق بينها وبينهم، إنّها امرأة تختار الأوراق بعناية شديدة كي تسجّل حاضرها. هم لا يختارون، بل تختارهم الأوراق كي تسعف لحظاتهم. مرّة واحدة شعرت بأنّه يوليها نفس القدر من العناية حين كتب إليها من المعتقل. أيجب أن يكون محاصراً كي يتحبّب بالورق؟ حتّى ينجيه من حالة خطر؟ لكنّ الغريب أنّه رفض أن يترك الوريقة لقفازها. طلب أن تحضن أناملها العارية ورقته المطويّة.

لم تعلق، لم تبسم، ولا يبدو أنّها أرادت إيقاظ زمنه. شدّت قفازها، وسحبت وريقته بنفس الدّرجة التي كان عليها من الجديّة. في عمق قلبها تأكّدت أنّه يلحّ على الزّمن ويشدّ خيوطه بذكاء من يعرف أنّها لحظاته الحاسمة والفاصلة في خيارات القدر. لا.. لن أرى جسدي عارياً كأنامي تحت قصف رمادك ولا جهرك، وافعل ما شئت.

أمام باب بيتها عثرت على يديها وحيدتين تقبضان على حقيبة مدام بوفاري السّوداء، وتتساءلان. أعنها، أعن الحياة أم القدر؟

حين دخلت أحسّت بدنّها بارداً، وبلا هالة تحرسه. خلعت نعلها
ومشت حافية، كأنّها أرادت أن يسمع دَعَسَات قدميها، وهي تأتي
إليه بخطّ مستقيم حتّى اسطوانة ريتا. من القرص المعدني رجع
الزّمن يسلم، ومعه الألم. من سيبحث عن الآخر هذه المرّة، أهى
أم المراكب التّائهة؟

الباب الثالث

الفصل الأول

1

«عزيزتي نشوة، عدت إلى العراق. من الموصل أسجل رسالتي إليك. الحرب قائمة على قدم وساق. والمقصورة التي فكرت أن أطلّ منها على أحد الجسور الجميلة أصبحت حلماً بعيداً، لأنّ الجسور كلّها في ملكيّة الرّئيس. مسجّلة ضمن عقاره الخاص، ولا يعينها سواه، هو وحاشيته. فقدت الأمل من فكرة الاعتكاف في أحد الأحياء الوحيدة. المدينة مشاع، وحياة النّاس مستباحة لأبعد حد. أفلك نشوة، مشتاقلك! وأريد أشوفك. عساها فلسطين بخير. قولي، أكو حرّرتو يافا وعكا؟ ما يجوز نشوة تجلسين في مدينة محتلة. أنتظرك»

كاظم

ما الذي أضحكها، وهي تطوي الورقة، وتعيدها إلى مغلفها الخمري الجميل؟ تشبه المغلف الذي أرسلته إلى غسان أول مرة كتبت إليه. غريب هذا الرجل. يلقيها دائما في أحضان ماضيها. يسلمها دون مقاومة إليه، كأن الماضي شكا إليه هربها منه. في غيابها مرّ روحه على فنّ الدّعابة، ولسانه على السّخرية. لم يبق كما كان كاظم لهاوجهه. ولا بدّ أنّه يتواصل مع د. يوهانس. لقد وعدّها، وما دام يكتب لا يمكن أن يخلف. لقد كان الدّسيّسة التي أعدّها لندن لها، وقد وافقت على تأمرها ضدّها بوعي كامل.

كانت تهمس لتقنع ذاتها. أحيانا تواجه المرء مسلّمت غير قابلة للنقاش، لأنّ سواها قد يودي به إلى التّهلكة، ودسيّسة كاظم كانت إحداها. لا يمكنها إلّا أن تعترف بأنّ لطّات غسان قد ربّتها في خانة الحالات الضّائعة، وكان يجب، وهي تستحيل إلى مجرد خانة أن تنصاع لمشيئة الهواء وتهبط في المكان الذي يختارها. هل أخطأت؟ يجوز، لكنّ الواقع لم يكن سيّئا إلى ذلك الحد.

ساعة طويلة استرجعت أيامها البعيدة في شقّته. ومشت من مكانها في يافا بين غرفها الضيّقة، ورسمت شارع التّوت على جميع الشّوارع التي تدخل وتخرج من وإلى حيّ العجمي.

هي مع نفسها الآن. ولا أحد يسمع احتدام المعارك في بدنّها. يأتي كاظم إليها على غفلة، ويحرّض فيها حنينها غربيا. تلوّح له بشعرها كأنّها تراه. لماذا جنّت الآن؟ كأنّها تفتح أبواب روحها

كي يدخل. لكنّها لسبب لا تدريه تراجع فجأة. ترتعب وتتساءل. يدخل تيار بارد من شقّ النّافذة التي دفعتها العاصفة. يدور حول عنقها ويوقظ قلبها. كأنّه يهدّها، يتوعّد كذبها الذي يصير أبيض

كلّما صبغته القسوة.

لا جسور في الهواء تعيدها إليه. حين ستقلع بها خطوط المملكة المتحدة هذه المرّة ستطيرّ معها أوراق قلبها، فهل يبدو قلبها مهياً لهذا النوع النادر من المغامرات؟ ثمّة نساء يختلن منطقياً على عتبة القرارات المصيريّة، لكنهنّ يختلن فكريّاً بعد ذلك. فهل تشتهي هي أن تصبح نسخة عن نساء مونية اللّواتي ت برق عيونهنّ احتفاءً بجنونهنّ؟ أتخطّط حقاً أن تكون صورة مدهونة على قماشة، ومجنونة؟ إنّها لا تعرف مونية شخصياً، لكنّها فكّرت أن تدور بىكار الزّمن دورة عكسيّة كي تكون إحدى النّساء اللّواتي ترك مونية عيونهنّ تفرّ إلى الفضاء. خيل إليها، وهنّ ينقطعن عن التّلقّ والبريق أنّ الجنون هو من منحهنّ هذه القدرة على الضياع في لانهايات الأشياء. كانت ثمّة أسراب عصافير تتنازع في فضائهنّ وتأخذهنّ إلى نزوح غير واضح الأبعاد. مرتبكا، عصبيّاً وملتبسا. الغريب في زمرة النّساء تلك أنّها بعد أن امتلأت بمساحات بياضه، وأجزاء قلبه امتلأت أخيراً بجسده. اختطفته من وعيه إلى أراض نائية لا تراها غير نساء وضعن عقولهنّ في عيونهنّ.

بدأ يتنقل من مكان إلى مكان بسرعة البرق كأنّه حين فقد بريق نفسه عاد إلى نزع بريق العيون التي أطلقها على الأقمشة كي يستمد منها قوّته. ياه...! تهّدت وهي تتخيّل فنّانها يمسح زمن أبطاله كي يلمّع زمنه. إذن، لماذا كلّ تلك الألوان والجري الطويل خلف مصحّات الأمراض العقليّة، أركّض خلف اكتشافاته كي تنتهي به إلى واحدة من غرفها المضجرة، ويفهم أنّه البيت الذي يجسّد نموذج النّهايات السّعيدة؟

وإِذْكَ، اصطكَّتْ أسنانها وتضاربت ركبتيها كأن شتاء لندن سكنها. وفكرت أنها يجب أن تتوقَّف عن الحب قبل أن تستدرجها النهايات السعيدة. عليها أن تكتفي بالحنين، هو من يشرع دستور المحبة ويمنح اللحظة عمرا. لقد عاشت لحظات بطول أعمار، وهي تتأمل سيناريوهات لقائها بغسان. وحين سلّم الحنين سلاحه للقاء انقصفت أعمار اللحظات تماما. أيجب أن يظل الحب شهوة مستحيلة ليظل راعشا وفاتنا؟ متى ستؤدّي صيرورة العشق لشيء خارج فترينات الخيانة؟ مهلا، همست وهي تمشي إلى درج الكومودينة وتخرج سيجارة ملساء طويلة بلون الوحل. كل ما خرجت به من الحب معّ الوحل. هل تعرف سواها نساء هذا الفن في قهر الزمن؟ غريب أن تصبح هذه الأشكال الأسطوائية الغريبة محصّلة التجربة، وغريب أن تهديها نوافذ الدكاكين الضيقة إلينا كي نوسّع بها أبواب جهنم نهدّينا إلى الحياة.

ليست واضحة تماما أبعاد هذا اللعب. تأملت قامة السيجارة وابتسمت بمكر. كأنها تنبّهت فجأة إلى سرّ الحرق والاحتراق، أليست هذه السجائر وصيّة الحب إلى القلب؟ كأنه ينصحه بآلا يتوقّف عن التفتّت كي لا يتوقّف بعده عن الحياة. وهذه السجائر، همست بصوت عال كي تسمعها النافذة وزخّات المطر، وصيّة غسان لها.

— 2 —

أه غسان! كلما ذهبت عنك ذهبت إليك. كانت تقول. تلصق رأسها بالجدار البارد وتنظر بزاوية حادة إلى النافذة التي يلعب على وجهها رذاذ المطر. كأنها حينذاك لمحت كاظم ممتشقا أشواقه، وآت لأخذها إلى الثلج والأرصفة البردانة. تلقائياً مدّت له كفّيهما، وتلقائياً أيضاً انهالت عليها اللحظات التي أخذهما بين كفّيه واحتضنهما. دائماً عشر عليهما محتقتين باللون الأزرق الوردي تحت القفازين. وكان يعجب كيف يتنكر الورد الذي يراه على خديها بهذه السرعة، وما سرّ تبدّله في يديها إلى أزرق.

تعرف، لم تكن تحبّه، لكنّ الرّعدة التي تنبعث من كوع مرفقها، وهي تتذكّر مرورها العفويّ إلى جانبه لم تفهمها. حين تمرّ يدفع كرسيه إلى الخلف حتّى لا تنفذ راثحتها إلى عقله مباشرة. يتأمّلها من بعيد ويكظم رغبته. لماذا لم تقل له مرّة واحدة أنّها ترتعش حين تمرّ من جانبه؟ معه أعلنت الرّفص وحسب. رفض اللّمس، رفض الهمس، رفض الحس. وتاريخ السّنوات الأربع السّالفة تواطأت معه سرا أن تحشرها في أحد الأدراج الحديدية وتقفّل عليها بالمفتاح. المفتاح لم يعرف شيفرته أحد سواها. كلّ المنوعات كانت مباحات رجل لا تزال هي معلّقة بأنفاس شعره الرّاكض خلفها فوق شرفات لندن.

لقد أجّلت نفسها إلى غسان، هل أحبّت النساء رجلاً كما أحبّته؟

استرجعت ليلة الأسبوع الماضي في مسرح السرايا، وشهقت في قلبها مسارح كلّ المدن. كافافس وصوت غسان. حين قرأه لها ذات يوم بكت حتّى تورّما جفنيها. هو لم يبك، لكنّه حزن وهو يحتضنها ولا ينجح في كبح عاصفة دمعها. لم تبك بكاء عاديا، بل هطلت دمعاً كما يهطل الغيم شتاء. ربّما كانت الغيمة التي عثر عليها في إحدى القصائد الفاتنة، وأغراها بكلامها إذا هي كفت عن الإمطار.

في عمق صخرة مجوّفة جلسا أمام الموج جسدا في لصق جسد. كانت الصّخرة أشبه بغرفة صغيرة دافئة ومعتمة تغلق عليها صخرة من فوق. أضخم من الصّخور التي انتشرت على الشاطئ. هو رآها أولاً، واختارها. لم توافق على النزول فيها بداية، لكنّه هدّدها وهو يقنعها بالنزول. لم يقنعها رجل مهدّد لكنّ غسان فعل. شاكسها قائلاً: سأهيل تلك الصّخرة العملاقة علي، أنت ترين لا أحد خلفنا، وأماننا البحر والموج. ارتعبت من تهديده، وفزعت حين وجدته يرتقي على صدرها كأنّ الصّخرة سمعته فعلاً ونزلت عليه. تذكّرت أنّها ارتجفت وهي تسمعه يقول: «خذيّني كي أدخل فيك وأختبئ، كأنّني لم أعش قبل هذا المساء». لم تأخذه هي، بل هي من أخذت نفسها إليه، وإلى عمق ذلك التّجويف الأسطوري.

في عمق المغارة قبلها أجنّ قبرة في تاريخ العشق. هل عرف رودان هذا الفن اللاواعي في احتواء روح جسد. لا، لم يقبلها تماماً، بل نشر عطر المزارع والحدائق كلّها على شفّتها، وما حولها. في غمزة ذقنها وعلى عنقها. انحدر حتّى قمّة نهدها دون أن تشعر. لا، غسان، كادت تستيقظ من غيبوبتها وهي تنهأ. لا، غسان..

أرجوك سأدوخ. وكان منفعلا جدا، قمة أنفه بلون حبة كرز،
ولسانه بحرارة جهرة. خافت أن تحترق، وهي تحاول التخلص.
غسان، غسان، نادته ولم يسمعها. انبلع صوتها في فمه. حين سرق
قمة نهدها همهم، أحب هذه التوتة السوداء، ولن أحب في الثمار
غير التوت الأسود، وانغمز في عصيرها دقائق طويلة. حين ابتعد
تأملها، وهمس دون أن يرفع عينيه عن تلك التوتة، «انظري نشوة
انظري لقد نضجت. صبغت لك بأحمر قان، أليس لوني أجمل!»
في قلب العتمة كان غسان ينثرها بضياء العالم. ضياء شديد
الغموض والتوهج. حين أخرجها من قلب المغارة كانت كلها
بلون التوت الأسود لكثرة ما أكل منها، ولم يشبع.
هذا هو غسان. رجل لأساطير لا تحكى، بل تعاش، تعاش كي
يرتوي منها الجسد. في كل خط خطوة، وتحت كل خطوة شعلة.
كم شعلة دس بها كي تظل متقدة به كل هذا الزمن.

— 3 —

بدأ المساء يزحف من الشاطئ الغربي، والسماء تزداد حلقة. غيومها
تتعباً جيوب بعضها. سرقتها الوقت. لم تعرف كيف تجاوزت الظهيرة
الصباح، ووصلت إلى مساء جديد لم تتهيأ له جيداً. لا تزال رسالة
كاظم القصيرة ملقاة تحت قدميها على الفراش المشتعل لا يزال
بحرارة انفعالتها. ابتسمت، وهي تنظر إليها كأنها تختبر جديته في
مسألة التحرير التي طلع عليها بها. لم تستطع أن تحزر من أي كتاب
جاء بها، وملح بها رسالته السريعة. جميع كتب التاريخ تجترّ الأفكار

الثوريّة، وتبنّى قضايا التحرير على الورق، أفلن يفكر كاظم بحضّها على تحرير مدينة؟ ثمّ لماذا لا يذكر فضائل الجيوش الجرّارة التي هُزمت قبلها؟ وكيف لا يفاجئ نفسه بحصار بلاده، وهزيمة قلبها أمام طغاة الدّاخل والخارج. كأنّه يتسلّى بقزقة قضايا التحرير هرباً من حصاره! «مثل اللّب»، قال لها حين حاصره نخيل بغداد. «يقزق الحكّام تاريخهم. تاريخ كلّ أجداد رغم أنّك لا تجددين في الشّوارع مجداً لغير قشور الكلام الذي يملأ الجرائد. والمهم، يا بنت النّاس، أنّها أجداد متناثرة حول حاويات القمامة في أفضل الأحوال». قال وفهمت أنّه يقصد خطابات الزّعيم التي تكتسح الصّفحات الأولى في جرائد الصّباح. من خطّه المخربش فهمت أنّه يؤسّ من قشور اللّب التي يتسلّى به بدونها، وقشور الزّعامات. ويبدو أنّ يأسه يدفعه لإلقاء مهمّة عبادة السّلف عليها. يريدّها أن تحرّر أجمل مدينتين في دولة اليهود. دولة اليهود؟ استهجنّت التّلقائيّة التي أفصحت بها عن التّسميتين. ألا يعرف أنّ رأسها ممتلئة باسم قبيلة صغيرة واحدة زرعت المدن حروباً كي تحرّرها؟ فلسطين لم تعد فلسطين، هذه حقيقة، ويافا وعكا لم تبقيا مدينتين بيدّين ممدودتين إلى فوق، بل، «يافو» و«عكا» بيدّين مكتوفتين فوق الصّدر، ومستسلمتين. الغريب أنّ جميع الشّعراء أنكروا هذه الحقيقة في بكائياتهم غير المنتهية. هي كانت مثلهم. ذات يوم أنكرت وذات يوم كانت امرأة ثوريّة، لكنّها ذات يوم آخر أيضاً لم تر غير وجوه لونها البياض بالكذب. وجوه أزلام القضيّة، والحرية والقوميّة فمسحت بلونها حذاءها، ومشت بهم لامعين ومزبدّين. لم تسمع احتجاجاتهم. نظرت إليهم وشقرقت نكايّة،

ومنذ أصبحوا مرايا لأحذيتها عزفت عن نقاشات الحق والسبق.
 بين التظاهرات الحزبية كانت تشق مسارا فرديا بين القوائم
 المتفسخة والملونة بعلم واحد أبيض مكتوب عليه، «غسان كل
 القضية» حين يستغربون تصرخ، «حقيقة بشعار ولا حريقة بألف
 شعار». عن أية حريقة تتحدث هذه المرأة، تسخر منهم، الفتن التي
 تشعلونها تحت كل شعار. الزعماء باسم القضية لا يحتاجون لغير
 حفل يشبعون فيه لطم. وسيلطمون خلاله اليهود والعبيد السود،
 لكنهم عند المشهد الأخير يحتفون بلطم بعضهم. أليست السياسة
 فن في تخليق مهارات الجسد؟

هذه هي خطط التحرير في مدن الحروف الأولى لخربشة العشق.
 في بداية سنتها الجامعية الثالثة قررت أن تبدل تخصصها، وأن
 تنذر نفسها للفن. فهمت أنه القضية التي لن يساوم عليها أحد.
 لا مواجهة ولا هزيمة، ومهما يحدث سيظل الزمن حكما. كانت
 مقتنعة أن البلاد التي ستنهض فوق الحشبة هي الوطن الذي تريد
 أن تعود إليه بملء إرادتها. لكن هل كانت تعرف أنه سيتجسد
 عنيفا هكذا بملابس رجل يؤمن مثلها أن مساكن المدن الجميلة
 خشبة كئيبة؟

سرقها من كل شيء. أجلسها أمامه ذات يوم حين وجدها مشتتة في
 سؤالاتها وإجاباتها، وسألها ماذا تريد من مدنها.
 دون أن تفكر طويلا قالت: أن أعيشها.
 قال: ارحلي إذن إليها. هل تنتظرين زمنا يأتي كي يأخذك إليها؟
 قالت: لكن اليهود ملأوها بأيامهم.
 قال: فليملأها اليهود بأيامهم وسنواتهم، ما دخلك أنت؟

ثم أضاف:
أسكنني مدتك ساعاتك. بهذه الطريقة ستقذّينها من ضياعها،
وشكّك.

نظرت إليه، وعلّقت بشك: وهل هذا يكفي؟
قال بثقة:

لا أنصحك بالبحث عمّا هو أفضل. نشوة، عليك أن تفهمي أنّ
واقعك هو خيارك الوحيد كي تعيشه ويعيشك.
هل خطر لها أنّها ستُجلّسه ذات يوم أمام نفس الخشبة وتغمره
بالضياع؟

الفصل الثاني

«كي تبقى المدن جميلة نشوة يجب أن نُسكنها قلوبنا». قال، وترك راحته تغفو على قلبه. منذ قال لها أَحَسَّتْ أَنَّهَا تحتلّ جميع المدن. تركت اليهود لأيامهم، وذهبت تزيّن مدنها بساعاتها. كم احتاجت من الوقت كي تفهم أنّ المدن هي حفر القلب في موج الذاكرة. لديها موج البحر المتوسط بطوله وعرضه، أفلا تتعلّم درسا واحدا في استنساخ انتحاراته؟ كلّ تمّوج يخلف انتحارا، وكلّ انتحار هو مشروع حفر. يومها قال: لو أدرك البحر هذه الفلسفة السوداء لأرسل موجه إلى كلّ مكان. دُعِرت، ولماذا؟ قال:

كي يحفر النَّاس حكايا، ويظلّ هو كلّ الحكاية.
لم تفهم، هل تقول ألغازا؟ سألت
قال:

_ لا، ولكنّي أقول حقيقة ما يفكّر به البحر حين يصير موجا لذاكرة.

وتأمل خصلات شعرها وهي ترتمي على جبهتها، كأنّها تعلن عصيانا.

_ ليست البحار هكذا. اعترضت، ودفعت خصلات شعرها العنيدة إلى الخلف.

_ أوجد بحار وبحار؟ تساءل مستغربا
ضحكت ساخرة

- _ ألا تعرف أنّ البحار لا يشبه بعضها بعضاً؟
علّق مندهشاً
- _ لو كنت أعرف لما سجّلت مياه البحر المتوسط مصدراً للحفر.
قالت كأنّها تتأكّد مما لا تعرفه
- _ لكنّ جميعها تحفر
- _ أجل، يجوز. همس كأنّه يختبر عمق ما لا تعرفه. ثمّ بعد تأمّل
قصير قال:
- _ ليس تماماً
- يجب أن تتوقّف عن الحبّ. تكتفي بالحنين. لكنّها امرأة يريدّها
الحبّ، قال لها غسان، وبكلّ ثمن. كلّما ابتعدت عثرت على قلبها
محاصراً. لا تعرف النساء كيف يتوقّفن عن الحب، وهنّ على يقين
أنّ رجلاً يقف على بعد مدينة من خلاخيلهنّ.
- _ حيث ستكونين سأتيك على فرس مدينتي، قال
_ وهل تلبس المدن أردية الرّيح؟ قالت
- _ حين تكونين امرأتها، همس.
- _ غسان، أحبّ عكاً.. واختنقت بالدّمع
- _ وعكاً تحبّك، قال، وهو يغمض عينيه على قلبه.

__ حالة __

امراة تجد في تاريخ المدن ذرائع، ورجل يجد في الذرائع ملاذا لأشواقه
لكن إلى متى ستسكت المدن عن حقها في البوح؟
لم يقل هو، ولم تقل هي. ليل المدن نسج من الأشواق شبাকা،
وعلقها مثل السمك، وبكل شيء. أحتاج إلى حوار المرة الأولى
كي يشهد على أن المدينة هي مكان الملاذ والذريعة؟
«بين الملاذ والذريعة يكبر، أو يصغر الحب»، قال وهي تتراجع
عنه. لم
يحتاج إلى ذرائع أخرى كي يكون ملاذا قدريا لشهق هواجسها.

__ 1 __

نظرت إلى الرسالة الملقاة، لا تزال تحت قدميها. رسالة كاظم تبدو
الشيء الوحيد الذي يستدرجها إلى الواقع. دفعت الشراشف
بقدميها. رأيتها تتناثر فوق بلاط الغرفة البارد. ابتسمت بقسوة،
وهي تراها تضرب اليمين بالشمال ثم تهدأ. كأنها قالت حينذاك،
لا يوجد أفضل من البلاط هدفا للحركات التحررية. هذا بالضبط
ما أرادت أن تكتبه إلى كاظم. إنها لن تحرر هدفا أبعد من بلاط
غرفة النوم في ليل الشتاء، ويجب أن تكون صادقة وتعترف أنها لا
تقدر على ليل الصيف. سوف تحرر غرفة، ولتحتفي بها باقي غرف

البيت. ربّما لن تستطيع أن تكون جان دارك فلسطين. كثير عليها
تحرير مدينة، وستكتفي أن يقال ذات يوم، امرأة حرّرت غرفة في
حيّ وطن.

احترق الكلام في حلقها. اكتأبت فجأة، وهي تطوي ساقها تحتها
وتنغمر بالبرودة. بقيت مطوية هكذا حتى أمطر الليل نجوما،
ورأته بينها صورة للوطن الذي أرادته. لماذا لا ترى وطننا سواء.
غسان.. هذا الغرفة الوحيدة التي ستحرّرها ألف مرّة، وتظلّ على
يقين أنّها محتلة. لكن، هل تحتاجه محرّرا أم محتلا؟ هذا هو السؤال
الذي يغيب عنها كلّما ناورتها كتب التحرير، وكلام الثورة. لا
تعرف تماما، لا أعرف غسان سوى أنّك غرفة احتلت مدينة بحجم
امرأة، صدفة وجدتها أنا. آخ غسان! بماذا أردت أن أعترف لك؟

— 2 —

القبلة في رأسها. تمشي مع حذاءها، وحقيبة يدها إليه. منتصف فبراير،
وعكّا لا تزال تنهمر مع السماء على الوقت. السنوات الخمس لمعت
بهاءها. من قال إنّ الوقت يختزل جمال المدن!

تذكّرت، وهي تدخلها من بوابة نابليون دخولها الأوّل.
واستحضرت الأشواق التي تهافتت عليها. هل سيخطر على بال
غسان أنّها ستعود بمثل ما ذهبت بدون إخطار مسبق؟ هكذا تلغي
الوقت ورزنامة السنّة، وتصير هي كلّ مواعيده. أرادت دائما أن
تكون حواء غير منوّنة. بدون تعريف وبلا أزمنة. تأتي من حيث

لا يتوقعها الحب. هذا ما يحتاجه الحب من امرأة عاشقة، أن تظل متوهجة بما لا يعرفه عنها، حامضة مثل عصير تفاحة. ليتها تسطر نهايتها عصيرا على شفته. لكنّها تعرف أنّه ينتظر غير ذلك ويريدها جسدا نابضا.

تذهب إليه كأنّ كونا جميلا يعلن معها المصالحة. ستعترف له عند أقدام الباب الراجفة أنّه يطير مع العصافير التي تأتي إلى نافذتها كلّ صباح، ومع الموج الذي يتسلّق شرفتها كلّ مساء. وأنها تمتلئ شوقا وعشقا، وأنها .. توقفت الحافلة قبل أن تذكر تصوورها الأخير. وأنزلها السائق قريبا من مصلب الشارع السفلي لشارعه المحرّر. نظرت حولها فأحسّت أنّ عيون المارّة تعرف سرّها. هل أصبح غسان سرا؟ تساءلت، وأجابت على لهفة أقدامها المتسارعة. بعد قليل ستجد نفسها وجها لوجه مع ستّ سنوات من اللوعة جالسة تنتظرها في غرفة الجلوس، وفوقها الساعة ودقات الزمن. إنّها لا يكفّ عن التحرك في بدنّها. وربّما ستدعه ينشغف فيها. يقبلها على طريقة الرّجل الذي ظلّ ماثلا في ذاكرتها هو والمرأة المعلقة في ريقه. «رودان» عرف كيف يرسل الرّجل والمرأة إلى قبلة طويلة الأمد. وسوف تسأله إذا كان يتذكّر أنّ حلّقها ظلّ يحتجز الحياة حين تذهب إليها بدون صوته وسيجارته. عليها فقط أن تنتظر عدّة دقائق حتّى يزقّق العصفوران اللذان يحرسان باب شقّته، ويطمئنان إلى رائحة معطفها. استطاعت دائما أن تحرّك ريشها تحت رذاذ المطر.

على امتداد الشارع أعداد مكتوبة بحبر القلب. هجست، وهي تتقي العدد الذي كتبه على جدران لندن بحبر قلبها. كأنّ شيئا غير في شكل الجدران، وترتيب منازل أعدادها. في لندن تشابه

الجدران، ولا يمكن أن يميّز الرجال والنساء منازلًا ينام تحت أسقفها الحب، وأرقام الشَّقِّ معلقة في أعناق الحروف كأنّها تخاف وحدتها. عكاشيء آخر. هنا يخيّل إليك، وأنت تمرّ بالحياة أنّ العشق يعيش في كلّ مكان.

يا الله! ما هذا الحنين الذي يحرق وجنتيها ويحيل وجهها إلى جورية مشرقة. من أين لبسها الشّوق؟ في كلّ شيء رأيت غسان ذلك الصّباح. لكن، لماذا الوصول إلى شقته يستغرق عمرا من التفكير، وجيلا من الشّوق؟ متى ستصل، متى متى؟ كلّ الشّوارع التي مشّت جسدها لا تؤدّي بها إلى منزل يعرّش في جنباته الحب. لا، لقد أخطأت، العشق. تفضّل أن تسمّي ذهابها إليه عشقا. فكلّ ما يذيب الرّوح يكون شيئا غير الحبّ. الحبّ للجميع والعشق من نصيب كومة الشمع التي تغني بأضواء خافتة تحت قلبها.

بعد قليل وجدت نفسها أمام البحر. كيف التفت عليها الأماكن، ولقت أقدامها هكذا؟ أتلاعبها الشّوارع، أم أنّها هي من يداور، كي تختبر قدرة الشّوارع على عشقها؟ أمام الموج أعادت ترتيب صورة غسان. البحر في عكّا صورة لانهائية عن العشق. وسحرها في عدم اكتمالها. «غسان، أنت كلّ»، نادته كأنّه يسمعها. هذا الامتداد الأزرق أنت كلّ. كانت تقول، وهي ترتعش لشدة ما أربكتها حرارة الذّكريات.

إنّها امرأة لا تتوقّف عن مناجاة الصّور، فهل تحكم صورة عكّا الأخيرة لصالح صورة قلبها الأولى أمام الجدّان، جدّان غسان؟ تاهت طويلا بين المنازل، وكانت كلّما قرّرت أنّ هذا المنزل يشبه عشقها أخطأت.

يداورها الحنين. كيف نسيت رقم البيت؟ جميع الأرقام تناثرت أمام عينيها فوق الصفحة الزرقاء. يلاعبها اللون أيضا، يستدرجها. قرري الآن لون قلبك ورقمه كي لا يتوهك ثانية، حذرت نفسها.

__3__

مرّت ساعة، أو ساعتان. لا تعرف تماما. اعتقدت أنّ الحياة مقبلة على امتحان صبرها، وهي لا تصبر. في رأسها يدوي صوت عشق. بعده لا تسمع أو تتذكّر. قريبا من عيد ميلادها، أجل، ربّا. اثنان وعشرون، أو ثلاثة وعشرون. عدد من منزلتين. سيقول لها البحر بعد قليل أيّ الرّقمين أقرب إلى الصّواب. ركّزت عينيها في علوّ الموجة، وأضمرت الرّقمين. عند أحدهما بركت الموجة وسكتت. وإذاك اعتقدت أنّه لا بدّ أن يكون العدد اثنان وعشرون ضالّتها. حين استدارت، وفي نيّتها تبويب شوارع الحيّ في رأسها استوقفتها القهوة الجميلة التي عمّدت مساءاتها. هنا جلس، ومن هناك أطلّت تراقب انشغاله بالأوراق التي مدّ ساقها ومرفقها. لم تملك من الشّجاعة ما يكفي كي تقترب، وتحسّس الطاولة. تتأكّد أنّ أبا شاكر لم يستبدل خشبها.

عادت أدراجها. هذا التفّرّع الصّغير يحفر نفق ذكرياتها. شمّت رائحة خطواتها، استيقظت الآن، وبعد تلك السّنوات. لها رائحة زهر البرتقال ممزوجا بزهر اللّوز. لماذا لزهر اللّوز ذلك الوقع الغريب. كلّما رآته أطلّ غسّان من تويجاته بثوب أبيض رغم أنّه لم يفكر أن يكون رجلا مسلما؟ قال لها حين لفتت انتباهه إلى غياب

اللون الأبيض من تشكيلة قمصانه:

_ أَيْغَسْلُكَ مِنْ تَارِيخِكَ هَذَا اللَّوْنُ الْغَبِي؟

_ وَلِمَاذَا تَجْعَلُهُ غَبِيًا، وَهُوَ أَكْثَرُ الْأَلْوَانِ حَنَكَةً؟

ضَحَكَ ضَحْكَةً مَفْكَّرَةً، وَعَلَّقَ قَائِلًا:

_ إِذْنٌ وَجَعَلْتُهُ مُحَنِّكًَا أَيْضًا، يَا لَكَ مِنْ امْرَأَةٍ دَاهِيَةٍ!

_ أَتَنْكَرُ أَنَّهُ يَتَخَلَّصُ مِنَ السَّيِّئِ وَالْقَبِيحِ، وَهُوَ يَعلَنُ

صَفْحَتَهُ خَالِيَةً مِنْ كِهَانِ الصَّحِّ وَالْخَطِّ، كَأَنَّهُ يَتَنَدَّرُ بِتَوْصِيَّاتِ

الْعُلَمَاءِ وَالسَّفَهَاءِ. كَيْفَ لَا تَحْبِذُ مَا يَجْعَلُكَ حَبْرًا غَيْرَ مَقْرُوءٍ؟

_ وَمَنْ قَالَ لَكَ، يَا سَيِّدَتِي، أَنَّنِي مِنْ هَوَاةِ الْحَبْرِ الْجَافِ؟

نَاكَدْتَهُ:

_ لَكِنْ، كَلَامُ هَذَا النَّوعِ مِنَ الْحَبْرِ يَا سَيِّدِي لَيْسَ كَسَوَاهِ

مِنْ أَقْلَامِ الْمَفْكَّرِينَ وَالْعَشَّاقِ. يَلِينُ مَتَى شَاءَ.

عَلَّقَ بِدَهْشَةٍ:

_ مَا هَذِهِ الْفَلَسَفَةُ اللَّبِيقَةُ؟ كَمَا أَعْرِفُ لَمْ تَعْتَدِ النِّسَاءَ عَلَى

امْتِهَانِ تَخْصِصِ يَوْسَخِ خَامَةِ الْجَسَدِ.

ضَحَكَتْ، كَأَنَّهَا تَقْصِدُ التَّنْكِيلَ بِمَعْلُومَاتِهِ الضَّيِّقَةِ فِي

تَخْصِصِ النِّسَاءِ، قَالَتْ:

_ انْتَبِهْ، يَوْسَخُ بِقَدْرِ مَا يَنْظُفُ.

بِمَكْرٍ:

_ إِذْنٌ يَجِبُ أَنْ أَعْتَرِفَ لَكَ أَنَّ مَصَادِرَكَ فِي خِصَائِصِ

الْحَبْرِ، يَا سَيِّدَتِي، فِي غَايَةِ الضَّعْفِ.

سَاخِرَةٌ:

_ لِأَنَّ اخْتِبَارَكَ لِفَرَاشِي الْأَقْلَامِ غَيْرِ مُتَخَصِّصٍ.

ابتسم بدعابة، وهو يذكّرها:

— أنا رجل لا يستعين بالفرشاة كي يكتب. ويكفي أن يرسل أصابعه إلى الورقة كي تتلوّن بالكلام.
باستغراب شديد:

— يا لك من رجل ساحر! كيف يحدث لك هذا؟

كانت في غاية المفاجأة. لم تكن تعرف أنّ الرجل الذي يجلس تحت الأضواء تنبّري أصابعه، وتستحيل أقلاما. فاجأت نفسها بمثل ما فاجأته، وهي تقول كأنّها تحدّث نفسها، حتّى أنّه سيكتب بأصابعه، ولن يحتاج الأقلام أبدا.
نظر إليها: ماذا تقصدين؟

ركضت أمامه، وسدّت نصف الزّجاج المكسور بكفّها، قالت:
— أقصد هذه. ورفعت أصابعها العشرة.

ضحك، وهو يتعدّد ملوّحا بيده. سيفكّر بكلامها حتّى تعود، اعتقدت. وتواعدا على اللقاء مساء في «قهوة الصيّادين»، هكذا سمّوا قهوة أبي شاعر حتّى يحين عرض مسرحيّة «العارضة».
أقدامها، هذا اليوم، مثل السّماء تمطر ذاكرة. لا تعرف إلى أين سيأخذها، هذا النّوع المرعب، من الإمطار. في لندن كلّ ما يمطر يريد أن يغسل. هنا كلّ ما يمطر يريد أن ينذر. من أين جاءت بهذا الفعل؟ استرجعت جملتها الأخيرة، وابتسمت، هذا النّوع من الجمل يفاجئها مع المدن التي تأتيها بشوق.

عند نهاية التفرّع لبستها عكّا. كلّ أشياءها عادت ترمي دلائل امتلائها بها. رائحة القهوة، زهر الياسمين، الذي عرّش على أسوار البيوت والشرفات. كأنّ يوما واحدا يفصلها عن اليوم الذي تركت

ضحكها ودمعها وذهبت. وقفت مقابل البناية، وعدت ثلاثة أدوار. في الدور الرابع تنتظرها شقته. لن تنتظر المصعد. حذاؤها الأبيض مصعدها إلى عنوان قلبها. اجتازت الشارع بخفة. لم تسمع غير هيث أشواقها تحت فستانها الأبيض. دقت رخام الدرجات الخمسين بمسار كعبها. عمدا دقت، أرادت أن تذكرها بخمس سنين من الغياب، وربما تدفعها إلى إعلان أقدام النساء اللواتي جنن بعد أقدامها.

أمام شقته خرسى هواجسها. توقفت دق كعبها. شيء ما دربك في مقدمة رأسها. وكلما ازداد الوقت زحفا ازدادت دربكة رأسها. فاض برأسها القرع، وما عادت تقوى على هيثها، وهو يخفق بها على نحو غريب. كان الذي يراها مجمدة أمام الباب مثل مثال إغريقي حزين لا يصدق أتمها المرأة التي ركلت كل الأبواب كي تتحرر من هذا الباب بالذات.

أمامه فقط، باب غسان، أحست نفسها طفلة ضائعة لا يعثر عليها أحد. هذا ما سجلته في رسالتها الأولى إليه.

عادت بمثل ما ذهبت، ومعها قلبها. أرادت أن تعود بلا قلب، لكن النساء اللواتي يعدن إلى رجل سجين الذاكرة يعدن بأزرار ورد قان بلون قلوبهن. الورد لا يحمر بعيدا عن القلوب العاشقة، وهي امرأة لم تتوقف عن عشق الورد حتى وهي أرملة القلب. أمام أكشاك لندن، وواجهات وردها وقفت طويلا، وانتظرت يوما تعود فيه إلى رجل ومعها باقة من الجوريّ القاني.

مدت يدا منقبضة. فكرت بألف وردة وألف قبلة تنتظرها خلف الباب. أرادت أن تضرب سكرة الباب بأصوات الطبول التي

تلهث مع أنفاسها. يدها مترددة كعادتها منذ رآته أمام الأبواب، كأن الأبواب التي ترتادها ملك رجل واحد اسمه غسان. عصف قلبها بشوق أخرس. كأنها تناجيه، هل تعرف بكم جيل من الورد يجب أن تمتلئ امرأة مثلي كي لا تعشق رجلا سواك؟

وقفت وانتظرت. حدقت بكفها المرتعشة. يجب أن تملأها بشوقها كي تجرؤ على الدربة. ويجب أن تحرص العاصفة التي تزحف مع نعلها على الدربة. «بنعلين منزوعين هذه العاصفة، همست ليدها المنكمشة، ولا تستحي أو تتردد مثلك، وأنت بقفازين دافئين» عاتبت ضعفها.

«هيا كسري الشكل، وادخلي الصورة، أطلقني شوقك أيتها الرعيدة». لمع البرق في عينيها، وانعكس أمامها على وجه الباب. فجأة نظرت، وفجأة أخرى اكتشفت أن الباب أصبح صورة عن زينتها. كل بريقها وإعتمادها. مع دربة العاصفة المقتربة خبط الرعد مفاصلها. وخطبت هي بقبضتيها الاثنتين صورة وجهها على الباب، كأنها لم تر وجهها وهي تهشم داخل سكرة الباب المعدنية. خطبت، ولم تدق. طبول رأسها انهالت مع قبضتيها على الباب. رجل تحبه يجلس ويصغي إلى الشتاء الذي أتت به في منتصف فبراير. سواعد قوية شددت سكرة الباب من الجهة المقابلة. سواعد رجل تحبها احتضنت معها العالم، وهي تلتف على الموزة التي تحصنت داخلها. أجمل امرأة لأجمل رجل يحب تحت شتاء قاصف. «نشوة»، عمر ذهب منذ أطلقته إلى عصفير تهاجر ولا تعود. «أين كنت..» سمعته يهمس خلف قرطها، وهو يسحبها بخفة راقص باليه إلى الكنبه الجالسة بانتظارهما في غرفة الضيوف.

مثل نخت يتهياً لإبحار إلى حلم. تركها، وذهب يدبّس القفل بالرتاج، ثم يعود فائر الحسّ ترتجف شفته بدفء الكون. هذا الدّفء لها. كانت تهمس منأخذة لعنف العاصفة التي كسّرت نوافذ البيت، وأتت لاحتضانها. نعم نشوة، كلّ هذا الدّفء لك، أه نشوة! أين كنتِ؟ كيف نسيتِ أنّك امرأة أوّل رائحة؟ مات ياسمين عكّا في غيابك. لو أطللت من شقّ الباب إلى الشّرفة ستجدينه في التّراب بسيقان يابسة. ييست أنا أيضا بدونك مثل سيقان الياسمين، مثلها تماما. للسّجائر نشوة لم يبق غير مذاق القهر، والغياب. كان يهمس، وهو يتحسّس عنقها، ويمرّ بإسفنج شفاهه السّاخن على تقاطيع وجهها. يهمس دون توقّف، وتصمت بلا حدود، كأنّه لا يقبل بقدر ما يضمّد خدوش الزّمن السّريّة تحت جلدها. احتضنها بشدّة، وهو يراها ممدّدة أمامه فوق الكنبه. كانت تكهرب أعضائه، كأنّها جسر لعبور البرق. وكان خائفا من لحظة سيفتح عينيه، ويكتشف أنّ حضورها أحد أحلامه العابرة. مثل البرق والشّوق.

تأوّهت قليلا، وهو يرفع رأسه تحت شعرها، ويفتّش خلف عنقها، هناك علامة لعضّة أوّل قبلة. أحبّ، وهو محموم هكذا أن يعثر عليها. لا شيء يلهبه مثل تلك الإسواره المسنّنة تحت شعرها. بعد كلّ غياب يسعى إليها، كأنّه يحتاج أن يتأكّد أنّها قهرت كلّ الرّجال الذين أتوا بعده. منطقة ملّغمة بشوق غسّان، برائحة تبغ وعطر قبلاته. اقترب من فمها، كم تهوسه رائحة هذا المكان. لم يعرف امرأة بأسنان غريبة هكذا، تتضامن كطوق حصار. ولا عرف جسرا كجسدها سارق لفتنة الضّوء. أطبق بأسنانه على مكان

العضة فازدادت تأوُّها. حرَّر أسنانه واحتواها بشفتيه. تلملت تحت قبلاته. من ذلك الموضع تناثرت عناقيد بريق. كرجت، وتأوَّهت، ومعها تأوُّه هو. همس بإصرار، أريدك الآن، أريدك. تجمَّع فيها قطعة مختصرة عن جسد. أريدك، شهقت للمرَّة الأولى منذ احتواها. أحبك غسان، أحبك، هل تسمع؟ . أعبدك أنا، وقبل كتفها. مدَّ يده كي يزيع ثوبها فاستعصى عليه. كان مصمِّمًا على مقاس قبْلته، وكان يجب أن يقبِّلها كلَّها كي يقشِّرَه.

«هذا النوع من الأقمشة يُقشَّر، ولا يزاح»، همست تحت قبلاته. بدأ من أعلى الكتف يقشِّرها كما يفعل لموزة ناضجة. «اقتربي أكثر، اقتربي» همس، وهي تملأ جسده وأنفاسه. قشَّرها الثوب تماما فانغمر فيها، كأنَّ اللَّحظة خيَّطته على مقاس الغمر. صعبة، حارقة تلك القلعة، لو أمكن أن يبقى هناك العمر الذي سيأتي. استراح على جنبه لصق جسدها وغفا تحت خواتم شعرها.

الفصل الثالث

__1__

أول الفجر لفت موزتها على أشبار جسدها. تأملت من بعيد، ومسحت عن طرف فمها أثر قبلة لا تزال جائعة. فتحت الباب بحذر. رجعت نصف خطوة كي تسحب حذاءها. التفتت ثانية، ثم ردت الباب على حلمه الطويل. نزلت السلم الخمسين على عجل إلى قدر ينتظرها بعد الباب بقليل.

__2__

كأنه الحلم يفعل بها. كأنها ليست تماما من يفعل له. قطر في رأسها شتاء البارحة، وشتاء غسان. لقد وعدت نفسها بقبلة أطول. لكن يبدو أن عمر القبل في تاريخ العشق سيظل قصيرا ما دام غسان، وما دامت نشوة. حدث قلبها، وهي تعد حقيبتها لطائرة الخامسة مساء المتوجهة إلى لندن. بعد نصف ساعة على وجه التقريب ستشرب قهوة يافا الأخيرة. وبعد ذلك بساعات ستغلفها قهوة لندن بورقها الفضي. تذكرت، وهي تحدث ديمة وتتواعدا على اللقاء أن تطلب إليها المرور بمحمص أبو العافية، وتأتي بكيلو

ونصف من القهوة المهيّلة. «لا تتأخري ديمة» همست، وهي تقفل سماعة الهاتف.

عشرت ديمة عليها أمام أحد المقاعد الجانبية لقهوة الشاطئ. على بعد خطوات من البيت الذي رتبت ديمة موقعه بنفسها. حين لمحتها قادمة اندفعت إليها، احتضنتها بحرارة وبكت. لم تتخلّص من دمعها بسهولة. تقيم بمثل ما تفارق. وقد أتعسها إحساسها المتواصل بالفقد.

— سريعا تغادرين نشوة. لماذا هذه العجلة؟ سألت ديمة بقلق.

حدّقت مباشرة بعيني ديمة، ارتعش صوتها:
— رأيتُ غسان ديمة. سعت إليه ككلّ مرّة. لست أهلا للقسم. بعد هذه السنوات عدت إلى تعقّب رائحته. كأنني كلبة لا يثنيها الموت عن الحنين إلى لون الدّم.
بعتب:

— ألم تقولي أنّه بات صفحة منسيّة؟

بحزن:

— يبدو أنّني كنت واهمة. لم يبق أمامي غير الهرب.

— وحتى متى نشوة؟ المدن لم تعد تسع الحماقة.

— دعيني ديمة، أفكّر بحل.

صمتت ديمة. لم تعلّق على جملة صديقتها الأخيرة. من مثلها يتوقّع شكل لقاء نشوة بغسان؟ تسلّمت مفاتيح البيت منها، ثمّ أقلّتها بسيّارتها إلى مطار بن غوريون.
قالت وهي تودّعها:

— لو أمكن أن نطير من بن غوريون آخر.

ضحكت ديمة، وهي تودّعها:

— إنه القدر لا يجمعنا بخلاف هذا العم. كوني قويّة نشوة،

وأرسلني إليّ.

أرسلت إليها قُبلة في الهواء، وصاحت:

— سوف أفعل.

الباب الرابع

الفصل الأول

آخر ليل المدينة البيضاء، لندن، دقت باب كاظم. تأخر قليلا في الرد. لكنه حين فتح الباب وراها بنصف عين نائمة لم يصدق. فرك عينيه مرة بعد مرة كي يتأكد من حضورها أمامه.

— كيف جيتين؟ هيك يا أمّ المفاجآت، تيجين من غير طارش يقول.

أجابت بارتباك:

— لم أرتّب شيئا غير حقيبة سفري. الأمور جرت على غير المتوقع. علّق مذكرا ومبتسما:

— زين عيني. ما إنت دائما غير متوقعة.

رأت شوقه في عينيه الضاحكتين. تأكدت من ذلك، وهو يحتضنها مرحبا، «نور البيت نشوة»، ثم معقبا:

— أقول نشوة، كيف فلسطين بعدك؟

ضحكت:

— لا تزال محتلة

كأنّ إجابتها فاجأته حقا:

— ولمتى؟

أجابته من عمق صوت مرهق:

— لحين تروح سيّد كاظم وتحرّرها.

احتجّ واصطنع تقطيعاً بين عينيه:

— تسخرين مني؟

ابتسمت له معتذرة، وهي تدور بصرها بين الغرف بحثاً عن غرفتها. أمّا هو فمشى خلفها، كأنّه لا يعرف عمّ تبحث. ثمّ توقّف في منتصف الصّالة حين وجدها ملتصقة بغرفة الإجازة، وسألها على استحياء، أو على توك:

— ألا تفضّلين النّوم في غرفتي؟

— لا أنا متعبة سيّد كاظم، وأريد أن أكون وحيدة. أجابت باقتضاب.

ابتسم لها كما يفعل دائماً، وهو يرفع حقيبتها، ويتقدّمها إلى غرفتها. ثمّ يهمس بشيء من الحيلة:

— كما تشائين سيّدي.

غسان، حنين الثلج

1

لن تغمض جفون الليل، ولا أنا سأغمض. رائحة الموت على الكنبه وحده سيهنأ بها، جسدك. قد تؤلمك قليلا، لكنك لن تبكي، وأنت تغمض في شقة يسندها الثلج على وحدتك. وللثلج هنا لو تعلم حنين. يصبح بدونك عشق أسطورة. هل أحببتك بتلك القوة دون أن أعلم؟ بلا عقل كنت حين بحثت، ولم أعر عليّ إلا فيك. حين تعشق امرأة تفقد نفسها. ليس الفنانون وحدهم إذن! أيجوز إلحاق النساء العاشقات بقائمة الخارجين عن طوق الحياة لأنهن مثلهم يصبحن جسرا لعبور الأضواء الخاطفة؟ لقد كنت ذلك الجسد، وأنت تجرّب فنّ الرماية بقوس لهفتك، وتموت في كلّ مرّة.

«هل يمكن عبور جسور الضوء؟» سألها حين وجد نفسه جائعا. لم تجبه، بل تأملت شوارع المدينة المضاءة في مرايا جسده الفاره. أرادت أن تتأكد أنه لا يزال مزدحما بنفسه وبالحياة التي تنظر إليه.

البارحة كان جسدك شوارع عكا وهي مزدحمة بوهج الحياة والموت. ترى أحقا يमित العشق حين يصبح معولا لفتح قلعة، أم أنّ هذا الفعل البدائي هو كلّ ما ينتظره العشق من رجل وامرأة طفح بهما كيل الشوق وذبحتها الرغبة؟ ماذا فعل نابليون إذن حين استعصت عليه امرأة بفتنة عكا؟ ألم يرم شوارع باريس في مياه

السَّين، ومعها فشله؟ أم أَنَّهُ ظَلَّ مثلكَ ينتظر أَن تأتي القلعة إِلَيْهِ، وتقدِّم مفاتيحها طوعا كي يدخلها من حيث شاء؟ أو لعلَّ مندبل جوزفين المعطر أنقذه من الكآبة. كأنَّه، وهو يتابع تراجع باريس مع جنوده تذكّر أَنَّهُ يحبُّها جدا، ويفتقدها.

لا أعرف كيف أجيب عن أسئلة الشوق. أنا امرأة عجنها الفقد أشواقا، ولم تستطع ما يزيد عن خمس سنين قطيعة أَن تضيّع حافظة أشواقها. لم أستطع أَن أكون امرأة ناكرة لجميل علبة سجائر. وجدتُ كلَّ أيّامي الجميلة نائمة تحت أوراق فضتها. تلك الأوراق، ومعها صورة مصغّرة عن عينيّ الخضراوين بقيت دليل ذاكرتي معك. لعلَّك نجحت في العثور عليها في صوف إحدى مخدّات نومك بعد رحيلي. على العموم أردتك فقط أَن تعرف أَنّ حنين الثلوج قاس قسوة فقد.

—2—

مفتحة العينين . يقظة الذاكرة . واهية القلب . بقيت تتحسس جسدها ،
لساعات طويلة كي تتأكد من مكان النبض . نظرت إلى الساعة التي
بقيت معلقة في مكانها رغم شهور غيابها . ارتجف فكها ، واهتزت
أكتاف قلبها حين خرج العصفور من عشه يدق دقة واحدة عجلة ،
ويعود ثانية إلى ريشه . كم جسد خاطف للضوء يفصل الواحدة
فجرا بتوقيت لندن عن الواحدة فجرا بتوقيت عكا ؟ أربع وعشرون
ساعة يفصل واحدة عن واحدة بتقدير شوقها . مدينة عن مدينة ،
ثلج عن شتاء ، ضياع عن لقاء ، رجل عن امرأة ، نسيان عن ذاكرة .
لن تصغي إلى قلبها الذي يحب أن يموت الآن .
كان يجب أن تأخذ مجدها ، وتهرب . لم تكن أمامها خيارات كثيرة .
وإلا كان سيحدث لها ما حدث لساندريللا بعد الدقات الاثنتي
عشرة . كانت ستنقلب موزتها إلى قرن خرّوب ، ونهديها إلى حبتي
بندورة . أهكذا ، يا امرأة ، يحسب مجد النساء ؟ معادلة بمجهول
متغير الأبعاد . واحد مهما تكاثرت مدن ، واحتشد رجال . بقناع
واحد يلبس كل الألوان . يختفي داخل اللحظة ، ولا يُعثر عليه
إلا متى شاء . هذه هي معادلة التعاسة ، تفصلها امرأة مهزومة على
مقاس خوفها . تظل هاربة ما بقي الحب حبا ، وما بقي الحنين رجلا
اسمه غسان .
كان يمكن أن تختبري سعادتك معه . أن تمنحيه بقدر ما يمنحك .

لكنّه اعتاد على الخيانة، كيف أضمن عودته؟ هل أعلّق على جسد كلّ امرأة يلتقيها رقيقاً؟ لكنّك رأيته ينثرك برقاً في جهات السّماء، ويملاً بترك رعداً واشتعالاً. كلّ ذلك لا يكفي، الجنس مثل الرّغوة يتوهّج بمثل ما ينطفئ. ارتعت من شتاء صباح يستيقظ فيه رجل عاديّ فارغ من قسّمه. بدون عينين، وبلا شفيتين. بلا صابون، وبلا رغوة.

__3__

تهرب من رجل إلى رجل، هذا ما سيقوله عنها الحبّ. لم تستوقفها لهفة كاظم، رغم أنّها وجدته نضراً، ومشرقاً وبأسنان بيضاء. يتنظر أن تأتيه على غفلة كما فعلت، لكن بقسمات أقلّ تجمّها. ستخذله، تعرف نفسها جيّداً، ولو أحضر لها أحذية بغداد ولندن، ثمّ توجّها ملكة على سيّدات الأحذية الأنيقة. لا حظّ له معها. هو رجل يصلح لمسائل التّحرير والاحتلال، وليس للحبّ الذي يدوّخ الرّجال والنّساء. ثمّ أنّها لا تعرف في الحقيقة من أين تحبّه. من أسنانه؟ وأسنان غسان التويحيّة، ماذا تفعل بها؟ سوف يفهمها، همست لقلبها مطمئنة. كاظم هذا أذكى بكثير ممّا اعتقدت عنه. لاحظت كيف اختار لغة بوحه. بعناية وعن تفكّر. كلّما كتب لها شعراً توقّفت نصف رأسها عن النّوم. وبقيت بنصف رأس تحلم فوق كنبه لا تتوقّف عن اللّوعة.

جاءت إلى لندن برأسين. واحد يصغي إلى همس رجل لا يتوقّف عن رمي اللّيل بالجمر، والآخر يصغي إلى همس زمن يدندنه رجل

لا يمكن أن تكون امرأة له. لأيّ رأس تعلن فيها الولاء؟
لعلّها السادسة والنّصف صباحا. تصغي تحت الأغطية الساخنة
إلى حركة الملعقة في كوب الشاي. وإلى دندنة الصّباح في فمه.
حلاقة ذقنه العجلة. تأنّقه أمام المرأة. رائحة الكولونيا، وهي
ترخم أنفها بأغنية ذات لحن جديد. لم تحزر مرّة واحدة كيف يجيء
بالحان للأحان. ليست أغنية لفيروز. وجّهت سمعها باتجاه الباب
.. أخرج من معطفه الجريدة، وعلبة الثّقاب. ابتسمت، يا له من
رجل حالم! شمّت رائحة السيّجارة الأولى. صباح كاظم يتبدّى
قبل رشفة القهوة بسيّجارة. لحظات مرّت سمعت بعدها ثلاث
رشفات متعاقبة من فنجان القهوة. شدّ إبزيم حذائه. رآته بعيون
خيالها يدور على النّغم الحالم، ثمّ يخرج، وهو يذوّب السّكر في كوب
شاي وهمي خبّاه تحت معطفه الخردلي.

3

العواصف في هذه المدينة لا تتوقّف عن النّباح. إنّها مثل كلاب يافا
بدون عائلة، ضائعة طوال أيّام السّنة. في لندن تتلاعب بجميع
أوراق السّنة.

تململت تحت الأغطية. فكّرت أن تخرج قليلا، لكنّ عقربي السّاعة
لسعها في كوعها. معقول؟ الرّابعة مساء! لا يجوز أن تقول عصرا.
فاليوم ساعة واحدة يوجّهها عقربان ماكران. لم تفعل شيئا طوال
اليوم خلاف الإصغاء إلى حلم رأسها مغمورا في عمق كنبه، كأنّه
يخت في عمق بحر. عند أقدام عكّا يجوز الحلم. في كلّ مكان آخر

الأحلام محض وهم.

خنقها الغيظ حين سحبتها رأسها إلى عكّا. ماذا جاءت تفعل في هذا المكان البارد؟ وماذا ستفعل بثلج وحدتها القادمة. أن تنغمر بالأغطية؟ هذا كلّ شيء؟ للتوّ لمع في رأسها خاطر غريب. سوف تبحث عن عمل، كاظم يملك معارف كثر، ولا بدّ أن يساعدها. ربّما تعثر على من يحتاج مهارتها في العمل المسرحي مهما يكن. حين سيختبرون تجربتها ستقول أنّ لها تجربة غنيّة في عشق مخرج مسرحي ألقي أضواءه ذات يوم على مقاعد حافلة، وفجرّ بالوانها بشرا. ومن عجيب الصدفة أنّ البشر كانوا يهودا. في أعقاب ذلك اتهم ذلك الرّجل بالعمالة لصالح مجموعة عدوّة، وأرسل مثل طرد ملغوم إلى معتقل المسكويّة. حين أطلق سراحه خرج فاقدًا لذاكرة مدنه. تخشّر اللّون بين أصابعه، وتجمّعت أضواؤه في أكياس رمل. بعد ذلك عميت عيونه تماما. أصبح مشطور المواهب.

ستخبرهم أنّ أسهل هواية يارسها رجل مشطور أن يشطر لفائف التّبغ وجلود النّساء فشطرها. هكذا يعيش رجل فنّان منطفئ اللّون والضوء تحت الاحتلال. يظلّ محتلا حتّى آخر أيام ضوئه. قد يصبح نجما ذات يوم، لكن في غرف التّفتيش وأمام الحواجز. ستقول لهم كي تقنعهم بمؤهلاتها أنّ النّجوم عندنا ينطفئون بعد إطلائهم الأولى من القنوات الفضائيّة عكس ما تضيفه الفضائيّات على نجوميّة الفنّانين. لأنّهم يطلقون على جمهور ضحايا وهميين، يطفئونهم فور ظهورهم بالكاز والكبريت. فالفنّ الذي لنا، ستقول، يصنع أشياء محدّدة. تخريب الحافلات، واللّهو بالأحزمة المفرقة. هذا ما يعرفه الفلسطيني عن الفن وفق تقارير الموساد.

شعب كبير لا تجد في جيوبه غير القنابل، وزعاف الدبابير.
 أنا امرأة من هناك. جئت كي أمتهن شيئاً خلاف الزعاف. لقد
 نزلت بي صواعق الفنّان الذي حدّثكم عنه، ستقول، ومنذ
 صعدتُ لا أجيد الحياة. قد يصغون إليّ، ويمدّون أحد جسور لندن
 تحت أوراقِي. ستقول لهم أنّها تبحث عن مؤسسة تتبنّى مواهبها
 شرط أن تكون خارج تخصّص الرّجولة، لأنّها لم تعد تحبّ الرّجال.
 كأنّها عند مفترق الرّجولة أحسّت أنّها امرأة ناضجة، ومقنعة. لديها
 بعض الأوراق التي تثبت مؤهّلاتها. وقصاصات جرائد كثيرة
 فيها علّقت. رفعت ومسحت. بهرت وأبهرت. لكنّها تعرف كم
 ستكون غريبة في نظر مؤسّسات كهذه، وكم تبدو مهمّتها صعبة.
 لذلك لا بدّ أن تلعب أحذية كاظم دوراً في ضرب أبواب المسارح.
 لا يعقل أن تظلّ مقيمة في إجازة. تعيش مشروع تأمل مفتوح على
 قطن السّماء.

قلّبت الفكرة برأس حكيمة. حاولت أن تستحضر بعض الأسماء
 التي ذكرها كاظم أمامها في معرض أحاديث عابرة. ليست تدري
 كيف قفز د. فهمي صادق إلى ذهنها. مدير مسرح تجريبي في
 أطراف العاصمة لندن. وعلى ما تذكر يلقّب بمسرح «الغرباء»
 تمجيداً لغربة فنّانيه. ابتسمت للمرّة الأولى منذ وصولها. أحاطت
 ذقنها بكفّيتها، وهمست، إذن الأحذية مفتاح هذه المدينة العجيبة.
 جرت إلى المطبخ، وهيأت طعاماً متواضعاً لها وللرجل الذي بيده
 الآن سرّ تألقها.

ستّ زقزقات لعصفور السّاعة. عند آخرها دقّ جرس الباب. منه
 أطلّ وجه كاظم منشرح الأسارير. حيّاها، وقبّل جبينها بتلقائيّة

أعجبته. ثم دخل المطبخ مباشرة. أرسل نظره إلى الطاولة، ففوجئ بأصناف الطعام الذي يجب. على طرفها وجد إبريق الشاي ينتظره أيضا.

غاب دقيقة أو اثنتين، وعاد ينضم إليها متسائلا:

— شو هذا الأكل الطيب. ما كنت أعرف إنك طبّاخة ماهرة. شو السّالفة؟

بضحكة ذات معنى:

— تمام سيّدي العزيز، لكن بعد الطعام. بهذا أوصانا النبيّ الكريم. ضحك:

— تمرّ حين بعد

تخابث:

— بعض أفضالكم سيّدي.

نظرت إلى شاربيه فرأتهما يتراقصان تحت تعبيرات وجهه المازحة. علّقت:

— أنت رجل ذكي سيّد كاظم. هذا ما هامست نفسي به قبل قدومك.

— وماذا ترجين من هذا الذكاء؟

اقتربت منه قليلا. حدّقت بكتل الثلوج التي انحشرت في زوايا النّافذة، كأنّها تحتمي من برودتها. أطلقت سبّابتها باتجاه النّافذة كأنّها تتحسّس لزوجة السّائل الأبيض. كلّ ذلك، وهو ينظر إليها، ويعجب من تردّدها. في نهاية الأمر عرضت عليه فكرتها. فوجئ أوّل الأمر، لأنّها كانت المرّة الأولى التي تكشف فيها عن مواهبها الحقيقيّة. رغم أنّه لاحظ في أسلوب تعليقها على الأفلام

والمسرحيات التي شاهدها معا ما يثير الانتباه. غير أنه لسبب ما اعتبره جزءا من ثقافتها النافذة.

لم تبد عليه الدهشة، بل أبدى استعدادا تاما لترتيب المسألة مع مدير المسرح الذي حدّثه عنه ما دام من زبائنه العريقين. كان الرجل يتردّد على مصنعه من حين لآخر، قال، لكنّ أخباره انقطعت منذ فترة وجيزة. على العموم لا داعي للقلق، طمأنها، غدا سأهاتفه، وأبحث الأمر معه.

4

ليلة أخرى انتظرت أن يخرج الصّباح من ثوب العتمة. المسرح أصبح مركز كونها. بهذه الطريقة ستقهر غربتها، وتطرد المدينة التي تنام معها كلّ ليلة في نفس السرير، عكا. يجب أن تتغلّب على غسان، وبكلّ ثمن. وعدت نفسها مرّة بعد مرّة، وسريعا تراجعت كأنّ في وعدها المتكرّر فسحة تفضي إلى النّقص.

لا، نشوة، ليس بأيّ ثمن. غسان هو قلم الرّصاص الذي تنظرين به عن المسرح الذي أناخذت به.

أولى ساعات الصّباح غلبها النّعاس بعد أن اطمأنت على مستقبل الخطط التي أعدت مسودّاتها بعناية.

الفصل الثاني

1

صباح يوم الأحد. شوارع الحي صامتة، والناس نيام. عند السادسة والنصف صباحاً لا يبحث عشاق المدينة عن الحب. أغاني البيتلز لا تزال تدور مع مخدّات نومهم فوق الأسرة.

رجل وامرأة هما كلّ ما يملأ طرقات الناس النائمة. في مركز الدوّار المؤدّي إلى الكنيسة، حيث وقفا، مرّت سيّدتان إحداهما تحمل طفلاً، والأخرى تجرّ درّاجة. بدا مرورهما صامتاً وسريعاً، حتّى أنّه لم يلفت انتباه بائع الكستناء الذي وقف يقلّب حبّاته الغامقة. «كأنّها مدينة مسحورة» همست، وهي توجّه خطوات الرّجل الذي يرافقها تحت المظلّة. بعد قليل رآها تتقدّم من منقل الكستناء بفرح طفلة، كأنّها تعثر على شهوة منسيّة.

— عشر حبّات فقط حتّى لا أضمن.

همست للبائع السّوداني، وهو يقلّب حبّاته السّاخنة، وغمزت لكاظم:

— شهوة امرأة.

اقتربت من ثياب البائع ثانية، وهمست:

— كي نتقاسمها أنا، وهذا الرّجل الذي يرافقني. لكلّ منّا خمس حبّات. كي يدفأ فهو بردان.

ابتسم البائع الأسمر لها ابتسامة عريضة، وهي تغمره بسحر

إطالاتها. ابتعدت عنه، واقتربت من كاظم. همست له كأنها
تخبره على نفسه:

— هل سمعت عن وجبة أفل دسما من حبّ الكستناء؟ هيّا، هيئ
لها مكانا في قلبك.

دهش:

— قلبي؟ في قلبي تعيش حبة كستناء واحدة. لا يقدر على خمس.
كان مبتهجا رغم برودة الجو. سعيدا لأنّ الشتاء يعود، وهو
برفقة هذه الكستناء الفاتنة. أصغى إلى ضحكتها فأحسّ أنّ
الصباح يمشي بين عينيه ويزيدهما بريقا. تركته، وتقدّمت من
بائع الكستناء. تأمّل من بعيد رأسها الصغيرة، وجهها الأجاصي،
شعرها المسترسل تحت قبعة الصوف. واعترف لنفسه، «لهذه المرأة
سحر غير عادي عليه» تذكر أول مرّة عثر عليها مثل قطعة مذعورة.
هل اعتقد للحظة أنّها تتوفّر على هذه الدرجة من الذكاء؟ ضرب
أفكاره كستناءها. كأنها أصغت معه إلى تساؤلاته. اقتربت منه،
ومدّت يدها بحبة عارية، وعلّقت بخبث:

— جرّدتها لك من ثيابها كي لا تتعبك.

فوجئ من خبث تعليقها. لم يملك نفسه من الضحك. أرسل
ضحكة عالية إلى برد الصباح. ثمّ، وهو يلتقط الكستناء المورّدة من
بين أصابعها الباردة اعترف:

— الرّجل، يا سيّدي، يهوى التعب. هذه إحدى فضائله النادرة.
ويحبّ أن يعرّي الأشياء بنفسه.

ارتبكت:

— كان مجرّد افتراض وحسب.

ضحكت مثله ضحكة عالية. علا ضحكها حين قال:

— هاتي واحدة كي أعلمك فنّ التّقشير.

ناولته حبة ساخنة. قلبها بين يديه، وهو يتأملها، ويتسم. أمّا هي فقبضت على المظلة بيد وعلى كوز الكستناء باليد الأخرى، ووقفت ترأب طريقته في تخليص الحبة الساخنة من قماطها.

فتنها، هذه هي الحقيقة. قماط، وليس قشرة، أكد. «لا تصغي إلى كلّ ما تقوله الكتب، هي في معظمها أوكار ذكيّة للكذب» علّق. أشعل سيجارة، وحرق قاع الكستناء بحذر. حين انكشف أحد وركيها تركها تحترق تحت شاريه على مهل. حين اتّسع غلافها أخذ يزيح القشرة الصلبة بخطّ عامودي. «فنان هذا الكاظم!»، همست لنفسها وهي تتابع أسلوب احتياله على لبّ الكستناء. فزعت، حين رآته يخلّص الحبة من قشرتها، ويخرجها قطعة واحدة. قالب متكامل لكستناء فاتنة تستطيع لو أرادت أن تعود إلى قشرتها، وتنام من جديد، كأنّ بطانة قماطها البنيّ لم تחדش أبدا. تأملته بسعادة، وعلّقت، «إذن، هكذا يقشّر الرّجال النّساء». استوقفها محذرا «ليس كلّ الرّجال». ابتسمت، «يا لك من داهية!».

هذه المرّة فكّرت أن تشاكسه. أخرجت كستناء جديدة من عمق القمع الورقي، وحاولت أن تقشّرها على طريقته. لكنّ الشّتاء الذي تحبّ أفسد عليها مخطّطها. أرعدت السّماء فجأة، وبدأت أفواج البرّد بالهطول. اقتربت منه وهمست، «من الأفضل، سيّد كاظم، أن تتولّى بنفسك تعرية كلّ النّساء المنتظرة داخل هذه القماشة» وأشارت إلى الكوز الورقي. أمام التحديّ الذي دفعته إليه لم يملك خيارا أفضل من الامتثال. أمّا هي فانزوت تحت سقيفة شرفة. انكمشت

داخل معطفها، ووقفت تصغي إلى مداعبات حَبّات البرَد لِقَبْعَتِها، وتراقبه. كان منكفئاً على النِّساء السِّمراوات تحت المظلة. يضربه البرَد الذي يداعبها دون أن يوليه اعتباراً. ساعة كاملة بقي غارقاً حتّى أذنيه بفساتين النِّساء السِّمراوات. يعرّيها واحدة واحدة. تلاشت من حولها الأصوات البعيدة والقرية. كأنّ الحياة تمرّ بالأشياء على عجل إلّا بهما. وقفت، وتأمّلت برويّة شديدة مشروعهما. بل ربّما انكفأت معهما على ملابس نساء يستغثن من حرارة الوهج. مخلوقات غريبة، همست، وانصرفت عنهما. لم يفزعهما احتلال الثلوج لجنّبات الأرصفة. لا يولولان، وقد ولولت حتّى نساء الكسّناء وهي تشهد تمزّق مظلة المرأة الغائبة عن الواقع فوق رأسها. قضما الحَبّات العشر قضم فأرين نهمين لعرونوس ذرة. تحت البرَد الذي انتشر في كلّ زاوية. نظرا طويلا إلى احتقان السّماء بالوابل القادم. كانت طبقات السّماء مكسّحة بأسود قاتم. ورغم ذلك ابتعدت عن مظلتها الممزّقة، وانحنت تتحسّس تلال الثلج الصّغيرة التي أسندت الجدران والزّوايا. ليست من النِّساء اللّواتي يقاومن الفساتين البيضاء حين تحتال بها الأرصفة البردانة، همست وهي تديم النّظر بهذه الطّاهرة الرّبانيّة النّادرة. استرجعت شتاء عكّا. هناك لا يرون فساتين فرح تخرج بها الطّرقات على البشر، بالكاد حَبّات برَد مجنونة تعبّ القمصان، وجيوب المعاطف، ثمّ تذوب قبل أن تستنفذ جنونها مع الحصى والأطفال.

تنبّه فجأة إلى نتف الثلوج التي أدمعت عينيها. اقترب حيث وقفت. مدّ لها كفا صلبة دافئة، ودعاها للانضمام إليه تحت المظلة. لعلّها

أجمل لحظات سعدت من ساقِها، وانتشرت في كامل جسدها.
كأنَّها لم تكن عنيده أبدا. قفزت من تحت السَّقيفة، ومدَّت له يدا
مشمَّعة بققاز أصفر غامق. شدَّ عليه معلِّقا:

— هل تستعيرين الحياة من أصباغ ذلك الفنَّان المقتول؟
فرعت: مقتول؟

حدَّق بانقباض ملاحظها، وأضاف مؤكِّدا:
— ألم يقتله زهر عبَّاد الشَّمس، وهو يلاحقه دون أن يعثر له على
نهاية؟

همست كأنَّها لنفسها:

— غريب! هل تعتقد ذلك أنت أيضا؟

ابتسم لابتسامتها الغامضة. كانت تشبه ضوء الغرفة الذي يتناثر
على وجه غسَّان أثناء المراجعات. أصفر منطفيئ ليس كأصفر
الفنَّان المقتول تماما، لكنَّها أحبَّت وجهه بكلِّ ألوان الضَّوء. ثمَّ
كأنَّها تذكَّرت، تمتمت، «وغسَّان حين يستيقظ ولا يجد مكانها غير
زغدة بنفسج سيتذكَّر سرير فان جوخ المزدهم بالمدى الأصفر. ثمَّ
كأنَّها تحتبر معلوماتها، علقت، نعم زغدة، وتهجَّأت الكلمة بين
شفتيها. في فلسطين لا تزال ضُمة الورد زغدة، كأنَّها رسغ يد.
أضافت، ودهشت من العلاقة العشوائية التي أنشأتها بين الزَّغدة
ورسغ اليد. تمَّ صمتت تماما، لم تجهر بكلِّ ما حدَّثت قَبَّة معطفها
به. تقدَّمت من مظلة كاظم، وانحشرت داخل الفسحة التي هيَّأها
لمعطفها. مشى ومشى هو إلى جانبها حيثما حيثنا، وأصغت إلى
دندنات فيروز من حنجرته، وقَفَز حَبَّات البرَد بين معطفيهما.

2

هل تقف امرأة سواها إلى جانب غسان في مثل هذه الساعة من الصباح وتصفي معه إلى وشوشة المطر؟

أكلت قلبها الغيرة، وأعتم قلبها فجأة لمجرد أنها رأت وجهها غير وجهها في مرآة جسده. أطفأ خيالها وجهه، وأحاله إلى أصفر بلا عمق. بدونها سينطفئ كل شيء. هذا ما أعلنه آخر مرة رآها. هل قال الحقيقة، أم أنه عاد يرسم أحلاما في دفاتر الوهم؟

صمت قصير فصل اللحظة عن فالس كاظم الأخير. كان ينتظر أن تعود إليه معبرة عن استيائها من لحنه. لكنها لم تعلق، بل أرسلت إليه ابتسامة باهتة أقلقت. اقترب منها، مستفسرا، «ما الذي يحدث لسيدتي الجميلة الآن؟» لم تعلق على استفساره، بل تعلقت بصورها القديمة دون سبب. لا تزال تلاحق صراخ مدينة تحتجز وجه رجل. لا تستطيع أن تبقى مضيئة، وهي تلاحظ الأصفر الذي يخيفها يبتلعه ويجلس مكانه.

على بعد أقدام من البيت ليست السماء ثوبا أشد قتامة. بدأت تمرقه تنفا، وتلقيه على وجوه الشوارع وجدائل الأرصفة. وقد وجد القطن الذي تحب مناسبة مواتية كي يتسلل تحت معطفها. استقر لحظة حول عنقها دون أن يجروا على الذوبان. كأن الدفء الغريب الذي دفعه إلى خلايا جسدها دفع معه كلاما دافئا من غسان إلى قلبها. بمثل ما أعتم أضواء ثانية، وهي تختفي بسقيفة البيت. تضم كتفها إلى صدرها كأنها تضمه.

أغلقت عينها بعمق وهي تسند كتفها إلى الجدار كأنها تقرأ غيبا الكلام الذي نثره القطن حول عنقها. أيقظها صوت كاظم تماما، وهو يحاول العثور على مفتاح الشقة بين ثنانيا ثيابه. سمعته يقول:

— الرجل طلب رؤيتك.

— أي رجل؟ علقت باستغراب

— شو تسمينه؟ فهمي صادق؟ أجاب بمكر

زغللت عينها تحت قبة القميص، وضحك صوته:

— صحيح؟

— لقد وعدتك، ذكرها وهو يحاول العثور على ألق ابتسامتها المفاجئة في ثنانيا المعطف.

وأضاف:

— كل ما في الأمر أنه كان غائبا لحضور مؤتمر في السويد.

انشرت أساريها. دفع المفتاح في ثقب الباب. دار في القفل دورة واحدة، دورتين، وأطلق أقدامها الراقصة إلى الصالة. ركضت إلى أسطوانة فيروز، وأطلقتها على البرودة، «تلج، تلج عم بتشتي الدنيي تلج» لعلها تسبق المدفأة في إشعال البيت.

— 3 —

اليوم هو الثالث والعشرون لوصولها إلى لندن. الثالث والعشرون لانقطاعها عن أنوثتها. كلما ذكرها كاظم أن للبيت غرفة أخرى تنام وحيدة ترسل إليه ابتسامة شاحبة. بدأ غسان يتحالف معها ضد الرجال الذين يبحثون عن منفذ يدخلون منه إلى قلبها. كأنه بدأ

يحبّها من جديد. لكنّها لم تنتظر أن يدفعها الهرب إلى حتف غريب هكذا.

تعبّأها خوف جعلها دائمة الرّكض إلى أجاص الغرفة الباردة. حرّ المدفأة لم يعد قويّا بما يكفي كي يذيب الثّلج الذي لاذ بجسدها. حين يسكنها الثّلج لا يظل قطناً، بل يستحيل إلى قرط صلب يخشّب أجزائها.

غدا، هو صباح لقائها «بفهمي صادق» أعدت أوراقها جيّداً، مؤهّلاتها. حنّت إلى ديمة، ماذا كانت ستفعل بدونها. همست، وهي تلقي نظرة حانية على شهادة التقدير الأخيرة التي منحها «مسرح المدينة» لها. كانت ضمن ثلاثة نقاد منحووا تكريماً استثنائياً بمضيّ خمس سنوات على تأسيسه. وكانت ديمة سببا في استخراج نسخة عن هذه المناسبة.

نظرت إلى حروف اسمها، وهجست قليلا قبل أن تقرّر أن وجود غسان في حياتها كان سببا مباشرا في تقدير الوسط المسرحي لها. حكايتها الغريبة به دوّخت كلّ من رآهما معا، بل واحتلّت موضوع الساعة برغم انقطاعها. ظلّا مفاجأة الأمسيات، واللقاءات. هل يأتيان معا، أم أنّه كالعادة سينزلها عند أول المنعطف ويدخل وحيدا. يلتقيان وفق صدفة مدبرة كي لا يثيرا حفيظة الفضوليين من حولهما.

لم يدخل مرة واحدة معا. بقيا موسم حب مغامر تنكتب تفاصيله بعد كلّ عرض جديد. كم رجل وامرأة تمّنّيا أن يكونا زوجا مغامرا ومداورا مثلها؟ استحضرت صورها المتبدّلة معه برعف حين غمر وجهها بشفافية شديدة الوجد. ترى، هل يقدر الحبّ على

شوق غريب الأطوار كشوقهما؟ تساءلت، واستنتجت وحدها.
عند هذا السؤال لم يتوقف رجل، ولا امرأة.

__4__

في طرف العاصمة توقفت سيارة الأجرة. على بعد خطوات من
خطواتها ارتفعت يافطة صغيرة كتب عليها «مسرّح الغرباء» بخط
نحيف وغير مشدد، كأنّ واضعها غير واثق تماما من ضرورة إعلانها.
تقدّمت باتجاه المبنى تساورها الشكوك ويتتابها القلق. لكنّ ارتباكها
تبدّد فور أذن لها بالدّخول، وانكشف الوجه الذي واعدته.
بدا رجلا وقورا، وهادئا. ملامحه تعكس قدرا كبيرا من التعقّل
واللّطف. بمجرد أن لمحها غادر مكانه وتقدّم لاستقبالها.
ابتسم محيّا:

— أهلا بك سيّدة نشوة.

أضاءت ملامحها عن خجل:

— وبك أكثر، سيّد صادق.

ارتسمت على وجهه دهشة واضحة:

— حدّثني سيّد كاظم أنّك سيّدة فلسطينيّة. سامحه الله، لم
يقل أنّك فلسطينيّة فاتنة.

حاولت أن تستدرك خجلها:

— هذا من لطفك، سيّد صادق.

دقيقة صمت طويلة سبقت فئجان القهوة. حين مدّت

يدها إلى فنجان القهوة لأخذ رشفة أحسّت بضعف مفاجئ. ارتبكت القهوة بين أصابعها وسقطت. لفّت بها الجدران، ولم تستطع التماسك أمام انشدها الرجل واستغرابه. توترت قهوته، وزاغت نظراته. لم يفهم سبب ذبولها المفاجئ. على غير توقع انكفأت أمامه على طاولة المكتب. ذهل تماما. لم يعرف ماذا عليه أن يفعل. دون تفكير طويل ترك مكانه، واقترب منها. سكب قليلا من الماء في كفه، ورطب به جبهتها، ووجنتيها. وقف أمامها ممتنع الأسارير، وانتظر دقيقتين قبل أن تفتح عينيها ويرسم على ملامحها الذهول والارتباك. هي أيضا لم تفهم ما يحدث. نظرت إلى مضيفها فوجدته منقبض الأسارير، وحائرا، كأنه لم يكن واثقا من حسن تصرّفه. حين رآته كذلك تمتمت بكلمات اعتذار لم يميّزها جيّدا. هو تغلّب سريعا على ارتبাকে واقترب منها، ثم سألها بقلق:

— سيّدة نشوة، هل ترغبين باستدعاء الإسعاف كي تقلّك إلى المستشفى القريب؟
لا، شكرا. أرجو أن تستدعي سيّارة أجرة كي تعيدني إلى بيت السيّد كاظم.

لكنّه أصرّ أن يعيدها بسيّارته الخاصّة. رافقها حتّى الباب، وتمنّى لها الشفاء. ثمّ تواعدا على تحديد موعد جديد بمجرد أن تتجاوز أزمتها.

—4—

خمسة أيام مرّت لم تبرح خلالها فراشها. اعتقدت أنّها ربّما نزهة صباح الأحد مع الثلج ونساء الكستناء، السبب في وعكثها المفاجئة. حاولت أن تخفي ضعفها عن قلق الرّجل الذي بدأ يلحّ عليها. لم تقنعه أنّها أزمة عابرة. أصرّ أن يعرضها على أحد الأطباء المتخصّصين. أمام إصراره ورفضها اتّفقا أن تلزم الفراش.

صباح اليوم الخامس استفاقت على قيء وصداع شديدين. في طريقها إلى الحّمّام ظهر كاظم بملابس الخروج. ذهل قليلا حين لاحظ اصفرارها وضعفها. كان سيحتمل كل شيء ما عدا قيئها الشّديد. لم يصغ إلى أعذارها. دفعها دفعا إلى تبديل ملابسها كي يرافقها إلى الطّبيب. انتظرها حتّى سوّت هندامها قليلا، وخرجوا معا.

على باب المشفى تردّدت. دفعت قدّما، وأخّرت ساقا. لا تحبّ المشافي. درّجها يؤذي كعب الحذاء. فكّرت أن تتركه وتجري إلى شوارع المدينة. لكنّها ضعيفة، وغير قادرة. نظرت إلى مدخل المشفى الفاخر وساورها خوف مضاعف. أحسّت أن الأبواب التي ستفتح بعده تهدّدها. تحسّست جسدها، واعتقدت أنّ آلامها تصعد من أسفل بطنها. تذكّرت غسان، يوم لقائها به، وتحذيف المركب الحار في صالته. لم تخطيء. وكأنّها أرادت أن تعترف لنفسها عن وعي كامل. لقد اختارت توقيت لقائها به بدقّة متناهية. الألم يصعد من رحمها مباشرة. إحساس الأنثى لا يخونها. كأنّ إحساسها

بأنوثتها أعاد الحياة إلى ملاحمها الذّابلة. عادت إليها حياة وهمية للحظة.

أمام الباب أصرت على التراجع. حدّقت بعيني الرجل الذي يقف متسائلا ومحتارا برجاء. «أريد أن أعود إلى البيت» خافت أن يعرف ما أحسّت. لم يفهم سبب تراجعها. لم يسألها كثيرا. أمام دموعها وقفت جميع الأسئلة حائرة حيرته. دخلت غرفتها، وتحت إصرارها ذهب وتركها إلى عمله. لكنّه انتزع منها وعدا بالراحة التامة، وبمهاافته إذما عاودها الانتكاس.

5

إنّها رزنامة فبراير. بطلة هذا الألم.

مربعاتها تحتفظ بخطوط الرصاص التي زّرت بها الأرقام، وشدّت بها أحزمة الأيام. لقد خطّطت لهذا الألم. يصعد من رحمها مباشرة. بكت بحرقه حتّى ابتلّ قطن الوسادة. تحسّست الموضع الذي يؤلمها بحنين مرعب. كان غسان يتأبّد في جسدها. متجاوزا جداول الشهور، وقوانين المسافة. وهي من خطّط أبعدها فيها. لقد أصبحت امرأة لغسان، صغير يتكوّن على مهل في أحشائها.

ذهبت إليه وفي رأسها خطة مكر. منذ رأت المرأة على الخشبة، وهي ترسم. تمحو وتشدد. وتلاحقها دون توقّف. كلّ خشبة أصبحت في عينيها مسرّحا لصرخات امرأة. رأتها على الغيم، على إشارات المرور. من البلاكين. نزلت، وتصدّت لتراجعها المفاجئ. لكنّها تقدّمت بمثل ما تراجعت. كأثما قرّرت، وهي ترى غريمتها

تلاحق هو اجسها أن تأخذ غسان إلى الأبد. اقتنعت أن امرأة تريد رجلا لا تتركه طعما للسّمك. يجب أن تكون السّمكة التي تربطه بزعانفها، وتأخذه إلى حيث لا يصل سواها إليه. تحسّست أسفل بطنها بحنان، كأنّها اكتشفت مذاق الثمرة التي هربت منها طوال السنين الفائتة. مرّت بباطن كفّيهما على رحمها بيد مرتعدة. أتريد ثمرة بدون شجرة؟ فكّرت بصوت عال للمرأة الأولى منذ زمن بعيد. هل تستطيع انتظار غد لا يكون صباحه؟

الفصل الثالث

رسائل قلب كتبت إليه. رسائل تبغ كتب إليها سريعة ومختصرة. هل تذكرت، وهو يجذف جسدها أن حبر الرسائل يتحلل تحتها، ويصبح وعيا لقلبيهما؟ كيف نسيت أن القلب سيستحيل إلى خيط يشدها من آخر النهايات لأول بداية؟

«البحر يظل قائما إذا لم تلونه الرسائل»، كتبت إليه. لوئتها بحبر الشوق كي تبقى مضيئة، ومفاجئة. هكذا تسطر النساء لحظات خلودهن، وتجعلنها رغبة لأشعة تسافر فيها نساء إلى رجال، وهن يحملن.

زحفت إلى الطاولة المجاورة، وأخرجت ورقة بيضاء. برت إصبعها بحرارة أنفاسها وكتبت إليه كأول مرة:

« كان يجب أن تتوقع رسالتي البيضاء إليك. احترقت حقول عباد الشوق

في رأسي ولم يبق في قلبي مكان لزهر الشمس.

في قلبي يقيم معبد واحد

لزهر شوقك. هل تسمع غسان؟

قبل أن ترتبك كلماتي بين ابتسامتك ورماد دهشتك ستجدني مكانها مستلقية تحت عينيك. أنا وغسان صغير يعيش في مكان لن تتوقعه،

هبي له أرجوك سريرا من قطن البحر الذي أحبنا»

توقفت مقابل خارطة السنوات التي زحفت خلفها، وأعادت قراءة ما كتبت. كأنها تقرأ ما تعرف أنه يسمعه. ثم وقعت نفسها

كأول مرة»

امرأة الرسالة».

وعلى المغلف حفرت اسم «عكا» واضحا كموج قلب كأنه آخر
ملجأ للذاكرة من السلب، وللحب من الفقد.

انتهت

مايو، ٠٥، حيفا

rajaabk@gmail.com

